

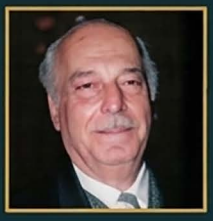
في رِحاب التّاريخ والفنّ والأدب

تراجم دمشقيّة

غسّان الكلاس







دار المقتبس

في رِحاب

التاريخ والفن والأدب

تراجم دمشقية

دار المقتبس

مؤسسة ثقافية
تُعنى بالنشر والطباعة والتوزيع للكتاب العربي
أسسها نور الدين طالب سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٤م.

ـ سوريا ـ دمشق ـ الحلبوني
(ص. ب:34306)
00963933093781
00963933093782

ـ لبنان ـ بيروت ـ كورنيش المزرعة:
(ص. ب: 14/6759)
00961 70 81 33 77
00961 70 81 44 77

moqtabas
t. almoqtabas. com
f. almoqtabas. com
y. almoqtabas. com
i. almoqtabas. com
l. moqtabas. com

E_mail: info@almoqtabas.com
Website:/http://almoqtabas.com

جميع الحقوق محفوظة

إن جميع الحقوق لهذا الكتاب محفوظة بموجب عقد / أو / اتفاق تم فيه إذن المؤلف / أو / المحقق على نشره بجميع وسائل النشر، وعليه فيمنع إعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بجميع طرق النشر أو التصوير أو النقل أو الترجمة أو التسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً بجميع أنواع الاستخدام سواء في برامج المكتبة الشاملة أو غيرها من البرامج الحاسوبية أو حفظه بصورة بي دي إف أو غير ذلك من صيغ ووسائل الحفظ والنشر المفتوح عبر الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، كما يمنع استخدامه بغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من دار المقتبس، ومن تعدّى على أيّ حق من ذلك تحمّل مسؤولية المحاسبة في الدنيا وعدم المسامحة في الآخرة، علمًا بأنه تم توفير وصول الكتاب بكل وسائل الشراء المتاحة المشروعة عبر الشحن الدولي الفردي أو الاستخدام الإلكتروني وفق العناوين المرفقة هنا.

ISBN 978-9933-657-53-6
90000
9 789933 657536

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢١م

لشراء نسخة ورقية من الكتاب عبر خدمة الشحن السريع
DHL TNT ups aramex FedEx
مراسلة الواتساب التالي:
+961 70 831 155

لشراء نسخة إلكترونية مفتوحة للبحث النصي والنسخ:
App Store
Google Play

في رِحاب التاريخ والفن والأدب

تراجم دمشقية

غسان الكلاس

دار المقتبس





إهداء

إلى

الذين آزروني في غربتهم . . . وغربتنا

وإلى

التي تبلـــمنا جروحنا معاً

صابرين محتسبين

أهدي ما خطه يراعي . . . من أجلهم

غـــان

❐ ❐ ❐

كلمة لابد منها

يتناول كتابنا، في رحاب التاريخ والفن والأدب جوانب محددة في سير ومسارات ثلاث عشرة شخصية سامقة من أعلام الفنون والآداب في بلدنا الحبيب سورية.

في الكتاب فصول عن ثلة من أدبائنا الذين أثروا وأثّروا في الحياة الأدبية بتاجاتهم الشعرية والنثرية والنقدية الهامة...

وفيه فصول عن آخرين أغنوا الحياة بوجهيها الإبداعي والتوثيقي...

وفريق ثالث أرّخ للحوادث والأحداث؛ ووضع لبنات ومنهجيات دراستها...

وجميعهم قد غادروا دنيانا، رحمهم الله، خلا واحداً أمدّ الله في عمره وعطائه.

ولا أزعم أن الكتاب بموضوعاته التي تناولها استغرق حيوات مبدعينا المدروسين، فليس هذا منهجه، وحسبنا ومضات وإضاءات ميّزتهم فاستحقوا التكريم وهذه اللمحات...

غسان الكلاس

□□□

شفيق جبري

شاعر الشام

شفيق جبري
شاعر الشام

الوطنيّة والتأمّل

يعتبر شفيق جبري، كما جاء في تقديم ديوانه الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق، واحداً من أربعة رهط من الشعراء نظراء متكافئين هم خير الدين الزركلي وشفيق جبري وخليل مردم بك ومحمد البزم كانوا طبقة واحدة، إن نهجنا في التسمية نهج ابن سلام في طبقاته، نشؤوا في رحاب دمشق وترعرعوا في جنباتها وأشربوا حب أرضها وسمائها وامتلأت قلوبهم إيماناً بعروبتهم واعتزازاً، فتغنوا في أشعارهم آمال الأمة العربية ومطامحها، ونددوا بالقوى الاستعمارية الظالمة التي عاثت في الأرض فساداً، وأذاقت الجماهير العربية المناضلة في سبيل الحرية والوحدة مر العذاب.

ولد الشاعر عام ١٨٩٨م، وتوفي في ٢٣ كانون الثاني من عام ١٩٨٠م، وبين ولادته ووفاته، تاريخ طويل حافل مليء بالمآثر والأمجاد، فقد غنّى آمال الشام وردد آلامها وشكا بلواها بالمستعمر، وكان صوتها الداوي في المناسبات الوطنية والقومية كما عبّر عن ذلك الأديب عبد الغني

العطري في (عبقرياته الشامية).

وظيفياً، تقلب الشاعر في وظائف رسمية عديدة كان أولها رئاسة ديوان المعارف، وآخرها عمادة كلية الآداب، مروراً بعضوية مجمع اللغة العربية والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

في الحياة النفسية والداخلية للشاعر كان ـ كما جاء في أكثر من مصدر ـ قليل الضحك، قليل الكلام، يؤثر العزلة، يقول في ذلك:

ومالي وما للناس أبغي وصالهم

فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا

أما في تكوينه الفكري والثقافي، فقد كانت دراسته الأولى في مدرسة العازاريين الإفرنسيين، ثم عكف على قراءة (أناتول فرانس) الفرنسي وجهابذة التراث العربي: ابن المقفع، والمتنبي، وابن عبد ربه، وابن خلدون، مما انعكس في شعره، كما سنرى، وضوحاً في العبارة والفكرة وبعداً عن الحشو والغموض.

لقد كانت أشعار شفيق جبري جزلة قوية ذات فيض رائع تقوم على عاطفة متقدة وألفاظ مختارة من خلال أسلوب مشرق أقل ما يقال فيه أنه سهل ممتنع. ويظهر واضحاً تأثره بالمتنبي والبحتري روحاً عالية وسلاسة في التعبير.

ولم تتفجر قريحة شفيق جبري بالشعر وحده، بل كان متعدد المواهب والإمكانات. فهو، كما وصفه سامي الكيالي، في كتابه الأدب

العربي المعاصر في سورية ـ شاعر وناثر وباحث ولا يقل في نثره أصالة وروعة عن شعره، فهو يجمع في نثره إلى جمال العاطفة جمال الفكرة معلناً تأثره بابن المقفع في وضع اللفظ في موضعه عبر تعبير سهل يسري خلاله جرس موسيقي متماسك من البداية للنهاية.

وتجدر الإشارة أن أديبنا يتفرد بأمر، لعل أحداً لم يشابهه فيه، فقد وضع كما هو معروف، كتابين: أنا والشعر ـ أنا والنثر أرّخ فيهما لتجربته في النظم والتأليف فأتيا كأنهما سيرة ذاتية على نمط مختلف عما ألفناه في السير الذاتية والمذكرات.

لقد تجسّدت حياته الأدبية، كما يقول الدكتور شكري فيصل، في مراحل ثلاث: مرحلة البواكير، حيث الاحتذاء والمعارضة التقليدية للقديم والحديث؛ ومرحلة التجارب المستندة على استيحاء آراء ومواقف، ثم مرحلة النضج المبنية على وحدة القصيدة وإحكام الصلة فيما بينها، وخاصة المرثية.

لقد تحرّك أديبنا نحو التجديد في التطلع والاستلهام والصراع في الأفكار والصياغة والاستعارة من القديم، ويعتبر شعره الوطني، حسب الدكتور فيصل، مظهراً من مظاهر التجديد حيث العلاقة بين الوطن والمرأة والطبيعة ضمن إطار المفهوم الوطني والقومي.

في ديوانه الذي طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق، كما أسلفنا وحمل اسم (نوح العندليب) ـ وزّع الأستاذ قدري الحكيم أشعار المرحوم شفيق جبري في خمسة أبواب: الوطن العربي، الطبيعة والمرأة، التنويه

والتأبين والرثاء، التأمل، ومتفرقات.

والمتتبع لقصائد الديـوان، ولاسيما باب الوطنيات، يشهد تاريخ سورية فترة الاستعمار الفرنسي مجسداً «شعراً» حيث الصراع الذي كانت بدايتـه في ٢٤ تموز ١٩٢٠م وتـوّج بالاستقلال والجلاء في ١٧ نيسـان ١٩٤٦م.

يتغنّى الشاعر، إبّان الاحتلال الفرنسي في حب وطنه والتمسك به والتنديد بالمستعمر الغاشم محرضاً «الجماهير على الثورة»:

وطنـــي كيـــف أرجّـــي بيعـــه؟
ذلّ مـــن راح يبيـــع الوطنـــا
أيهـــا الطـــامع فـــي حوزتـــه
لـــست أرضـــى بالثريّـــا ثمنـــا
أيهـــا القـــوم أفيقـــوا ويحكـــم
وثـــب الـــدهر فمـــا هـــذا الـــونى؟

وقد كان كلما سنحت الفرصة يستنهض الهمم ويدعو الشعب إلى الثورة والمجابهة:

ألا فـــي ســـبيل العـــلا ثـــورة
نقـــصّ علـــى الخلـــق أنباءهـــا
أفيقـــوا، أفيقـــوا، رجـــال الـــشآم
أمـــا ملّـــت العـــين إغفاءهـــا؟

لقد صوّر قسوة المستعمر عندما ضرب البرلمان في ٢٩ أيار ١٩٤٥م قائلاً:

يـــا يـــوم أيـــار والنيـــران ملهبـــة
علـــى دمـــشق تلظيهـــا جلاميـــد
الطفـل فـي المهـد لـم تهـدأ سـريرته
مـــروّع مـــن لهيـــب النـــار مكـــدود

وعندما يتحقق الجلاء وتتوج ثورات العرب السوريين بالانتصار يقف ليغني:

حلـم علـى جنبـات الـشام أم عيـد؟
لا الهـــم هـــم ولا التـــهيد تـــهيد
أتكـــذب العـــين والرايـــات خافقـــة
أم تكـــذب الأذن والـــدنيا أغاريـــد؟
لـو ينـشد الـدهر فـي أفراحنـا مـلأت
جوانـب الـدهر فـي البـشرى الأناشـيد

ولعله من المفيد، على سبيل المثال أن نقطف ـ في الأغراض التي نظم فيها شاعرنا بعض الأبيات:

يقول في قصيدة عنوانها (المرأة في الشعر):

أنـــت الحيـــاة فمـــا تزهـــو محاســـنها
إلا إذا طـــاب للأحبـــاء مزهـــاكِ

إن شئت كانت حياة الخلق باسمة

تفيض في جنبات الخلق نعماكِ

خلقت أنساً لعين ليس يؤنسها

إلا التفيؤ في أفياء مغناكِ

ليس الربيع، وإن بشت أزاهره

أحلى على العين من ريّا مزاياكِ

ولا العنادل في الأفنان هادلة

أشهى إلى السمع من رنات ذكراكِ

أما في الرثاء فقد صال شاعرنا وجال، وقد نظم أكثر من خمس وعشرين قصيدة، وفي هذا الغرض، يقول في رثاء شهداء السادس من آيار الذين أعدمهم جمال السفاح:

لقد جلّ العزاء فلا عزاء

وعزّ الصبر وانقطع الرجاءُ

وأمسى الدمع مجراه خفاء

وقد يستنزف الدمعَ الخفاءُ

ولو خانت مآقينا دموع

لفاضت من جوانحنا الدماءُ

فلا شعر يعزي عن مصاب

ولا نثر يخفُّ به العناءُ

ولكـــنْ نـــذكر الـــشهداء منـــا

لمـــا يقـــضي بـــذكرهمُ الوفـــاءُ

أما عندما يتأمل شاعرنا فيحلّق في أجواء علوية تستنطق الطبيعة وتحاورها، يقول مناجياً الشمس:

هـذا لهيبـك! لـولا الـشمس تلتهـب

ما كـان للخلـق فـوق الأرض مـضطربُ

إذا طلعـــت فكـــل الكـــون مبـــتهج

وإن غربـــت فكـــل الكـــون مكتـــربُ

لـــولاك لـــم تزدهـــر يومـــاً حـــدائقنا

ولا اســـتطال علـــى أطرافهـــا العـــشبُ

فـــالزهر مـــن وجهـــك الوقّـــاد رونقـــهُ

والـــورد منـــك نـــضير اللـــون ملتهـــبُ

والعنـــدليب إذا غنّـــى علـــى غُـــصُنٍ

فمـن شـعاعك هـذا الـصوت والطـربُ

ولا أزعم، في النهاية، أنني أحطت بالأديب الراحل شفيق جبري شاعراً وناثراً وباحثاً، فهذا أمر يحتاج إلى دراسات موسعة عميقة وإنما هي لمحات تقديراً واحتراماً ووفاء. . .

* * *

الوطن والثورة

يقول الدكتور شكري فيصل، في دراسته النفيسة التي تصدرت ديوان المرحوم الشاعر شفيق جبري: على أننا ـ ونحن نتحدث عن الجوانب المتميزة في شعر جبري ـ لا نملك أن نهمل الموضوع الذي استدل به، والذي ملك عليه أكثر جوانب شعره ذلك هو شعر الوطنية.

وهو شعر اتسع أحياناً ليكون شعر القومية وضاق أحياناً ليكون شعر الوطنية.

وامتزج بعضه في بعض فكان هذا الشعر الذي يتألف فيه الحديث ويتحدث عن الشرق والعروبة وبلاد الشام.

وفي حديث جبري عن نفسه وشعره تأكيد متصل أن شعره الوطني لا يخالط قصائده كلها فحسب وإنما يبتعثها ويولّدها، وإنه ـ أياً كان الموضوع الذي يطرقه ـ فإن الوطن يظل هو الخيط الأساسي الأصيل في نسيج هذا الموضوع، وإن هناك هذا التصعيد المستمر من الذاتية الضيقة إلى الوطنية أو القومية الجامعة... وسواء أكان حديثه عن المرأة أم الطبيعة فإن تمجيد بعض الذكريات أو تسجيل بعض المواقف، فإن هذا الوطن

يتخذ مكانه الأصيل في الحديث.

لقد كانت الوطنية، عند شفيق جبري كما أوضح غير مرة، هي تحريض على الأجنبي والحث على الثورة وتأييدها في سبيل الاستقلال، وكان كلما أتيحت له عبر حفلات التأبين واستقبال الشعراء، الإفصاح عن مكنوناته في هذا الاتجاه، سعى لتعميقه والتعبير عن مشاعره الوطنية الفياضة.

إن الخضوع مذلة ومضاضة

هل يستوي العبدان والأحرارُ؟

من كان يرسف بالقيود ولم يثر

فحياته بين الأنام شنارُ

في داليته التي نظمها في يوم الجلاء عام ١٩٤٦م يلخص بعباراته المتماسكة، وجمله الجزلة تاريخ النضال الوطني في سبيل الجلاء والحرية، معبراً عن الفرحة الغامرة التي ملكت قلوب الناس وأفئدتهم في هذا اليوم الخالد، ومذكّراً بأمجاد العرب في حين، وبدايات الاحتلال الفرنسي الذي انتهى إلى غير رجعة، وممجداً الثورات التي التهبت في أرجاء سورية التي أقضّت مضاجع المستعمرين وأفقدتهم صوابهم.

يبدأ الشاعر قصيدته، التي استغرقت ثلاثة وخمسين بيتاً، بالبهجة التي يعيشها السوريون وهم يتنسمون هواء الحرية، وقد غدا الحلم حقيقة واستبشر الناس فكانت الأعياد والأهازيج في كل مكان:

حلـم علـى جنبـات الـشام أم عيـد؟

لا الهـمُّ هَـمٌ ولا التـهيد تـهيدُ

اتكـذبُ العـين والرايـات خافقـة

أم تكـذبُ الأذن والـدنيا أغاريـدُ؟

علـى النـواقيس أنغـام مـسبَّحَةٌ

وفـي المـآذن تـسبيح وتحميـدُ

لـو ينـشد الـدهر فـي أفراحنـا مـلأت

جوانـب الـدهر بالبـشرى الأناشـيدُ

ويتابع قصيدته الخالدة ليذكّر بأمجاد العرب في حطين، ويخاطب البطل صلاح الدين بأن الأرض التي حررها لن يسمح لعابث أن يعبث فيها فساداً، ولن تكون أصوات قذائفه ومدافعه سوى تغريد الطيور وزقزقتها:

ليـت العيـون (صـلاح الـدين) نـاظرة

إلـى العـدو الـذي ترمـي بـه البيـدُ

أضـرِبُ بعينيـك هـل تلقـى لـه أثـراً

كأنـه شـبح فـي الليـل مطـرودُ

أيـن الأعـاجم؟ مـا حَلّـوا ومـا رحلـوا

كـأنهم حلـم فـي الفجـر مـردودُ

ويفرد «جبري» ستة أبيات في المقطع الثالث من قصيدته ليبرز همجية الفرنسيين في أبشع صورها يوم ٢٩ أيار عام ١٩٤٥م، في محاولتهم لإخماد الثورات والقضاء على الروح الوطنية، ولكن هيهات ما يرسمون له ويخططون:

يا يوم أيار والنيران ملهبة
على دمشق تلظّيها جلاميدُ
ذكرى سجونك ما تنفك ماثلة
لم يمح من هولها عيدٌ وتعييدُ
هذي ضحاياك في الأيام آبدة
وللضحايا على الأيام تأييدُ
الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه
مُروَّع من لهيب النار مكمودُ
تلفُّه أمه ما بين أضلعها
وموقد النار مطراب وغرّيدُ
فقل لصحبك والأمواج تحملهم
هل الحضارة تذليل وتعبيدُ

ومما سجّله التاريخ ذلك المساء من يوم ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥م أن الفرنسيين إمعاناً في إضعاف صمود الجماهير، ومحاولة إجهاض ثورتها، تذرّعوا برفض حرس المجلس النيابي الوقوف تحية للعلم الفرنسي،

فهاجم الفرنسيون المجلس بأسلحتهم المخزّنة في مركز رئاسة الأركان العامة للجيش الفرنسي قبالة المجلس، بل استعملوا أيضاً في عدوانهم السلاح الأبيض، مما أوقع الكثير من الضحايا الذين استشهدوا في سبيل الوطن وإعلاء كلمته، إضافة إلى أضرار فادحة في مبنى المجلس، ولم يكتف المستعمرون بذلك بل تجاوزوه إلى قصف المدينة من مناطق المزة والقابون والقدم، ومما أدى إلى قطع الكهرباء والهاتف والمياه عن أحياء دمشق وإصابة قلعتها بأضرار.

ويتناول شاعرنا في قصيدته الخسائر التي ألحقها العدو المندحر بسورية مستخدماً وسائله الهمجية التي لا تتوافق مع مفاهيم الحضارة التي يدّعيها، فيقول لهم مخاطباً:

جنـــات عـــدن رتعـــتم فـــي نواضـــرها
خليتموهـــــا ولا مـــــاء ولا عـــــودُ

هـــل انتـــدبتم إلـــى توطيـــد دولـــتكم
بالعنف؟ هيهات مـا فـي العنـف توطيـدُ

في المقطع الخامس من قصيدته يذكّر بمعركة ميسلون التي كانت بداية النضال والمواجهة وأن ما تلاها من الثورات والمعارك كانت ثأراً لشهداء ميسلون وسواهم:

مـــا نامـــت الـــشام عـــن ثـــأرٍ تبيّتـــه
هيهـات مـا نومهـا فـي الثـأر معهـودُ

لــو اســتطاعت لهبّــت مــن مــدافنها

تــــعى الزرافــات فيــه والمواحيــدُ

يــا ميــسلون ومــا الأحــداث منــسية

ذكـــرى تفيَّهـــا تلـــك الأماليـــدُ

خلــت ملــوك وأرض الــشام طاويــة

تــاج الملــوك وتــاج الــشام معقــودُ

ويختم الشاعر شفيق جبري قصيدتـه الرائعة بمخاطبة أبطال الشام وصناديدها الذين قـادوا الثورات وجادوا بأنفسهم في سبيل الوطن لأن العروبة الصادقة تجري في عروقهم مجرى الدم:

يــا فتيــة الــشام للعليــاء ثــورتكم

ومــا يــضيع مــع العليــاء مجهــودُ

جُـذْتُم فــالت علـى الثـورات أنفــكم

علّمـتم النـاس فـي الثـورات مـا الجـودُ

مـا فـي النعـيم عـن اسـتقلالكم عَـوَضٌ

وكيــف يــنعَمُ مغلــولٌ ومــصفودُ

أجل... إنها سورية... إنها دمشق التي كانت ولا تزال وستبقى مقبرة للطامعين تستلهم من ماضيها دروساً وتستشرف لمستقبلها الحضارة والكرامة والازدهار، إنها دمشق التي تغنّى بها شاعرنا شفيق جبري فأجاد عندما قال:

سـلمتْ دمـشق فلـم تـزل

تختـال فـي وَشـيِ البـرود

بـسّامةٍ فكأنّمـا

بـماتها الـدرّ النـضيد

نفـضت حوادثهـا فلـم

تَحفَـل بوعـدٍ أو وعيـدْ

ومَـشَت علـى هـام الـصوا

رم والقنـا المـشي الوئيـد

جبـارة لـم يـصَلِمـ

ـها كـلُّ جَبَّـارٍ عنيـد

* * *

حديث الذكريات

«كنت أتهيب شخصيته لكثرة ما سمعت من عارفيه عن وقاره، وإيثاره الانزواء، غير أنني وجدته ـ بعد أن تعرفته ـ إنساناً في غاية الرقة واللطف، ومحدثاً ساحراً، إذا أصغيت إليه ملك عليك الفكر والحواس...».

بهذه الكلمات وصفت سلمى الحفار الكزبري شاعر الشام شفيق جبري... وبهذه الكلمات أردت أن أستهل بحثي عن جبري، ولا سيما أنها ـ أي الكلمات ـ تضمنت من الألفاظ: الهيبة، الشخصية، الوقار، الانزواء، اللطف، ... وسواها مما يدخل في صلب الموضوع الذي اخترته: شفيق جبري بأقلام من عرفوه.

لقد فارق جبري الحياة[1]، وفي نفسه ـ كما قال ـ أن يخرج للناس كتاباً بعنوان (أنا والناس) يحدثهم فيه عن علاقاته بهم على نحو ما تحدث في كتابيه: أنا والشعر ـ أنا والنثر، عن علاقته بهذين الفنين. ولو أن الله مد بعمره ـ كما قال عبد الفتاح المصري في كتابه: شفيق جبري باحثاً

---

(١) ٢٣/ ١/ ١٩٨٠م.

لغوياً، لتم جبري ما أراد، ومن يدري لعله كان أتحفنا ـ أيضاً ـ بكتاب رابع بعنوان: أنا واللغة، يحدثنا فيه هذه العلاقة الوثيقة التي ربطته باللغة حتى باتت جزءاً أصيلاً من مكونات نفسه. . .

تحت عنوان: ذكريات مع شاعر الشام ـ جاري في بلودان، كتبت سلمى الحفار الكزبري: «عرفت شاعرنا الراحل عبر قصائده يوم كنت تلميذة في عهد الانتداب، أدرس الأدب العربي على أستاذين كبيرين: الأديبة الرائدة ماري عجمي، والأستاذ الفاضل أبو الخير القواص. حفظت بعض قصائده مع ما حفظت يومئذ من روائع شاعرنا الكبير بدوي الجبل وقومياته فكنت، على يفاعتي، أعتز بأعلام الفكر والفن من بني قومي اعتزازي بوطني الكبير وبرجالاته الأفذاذ. ويوم نشرت باكورة أعمالي (يوميات هالة) في مستهل عام ١٩٥٠م أهديت إليه نسخة من الكتاب فتكرم بنقده في مقالة نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

ثم نعمت بمجاورته في الستينيات في مصيفه الشامخ شموخه (بلودان)، وما كان أعذبه جاراً، وآنسه زائراً ومضيفاً، وأفضله محدثاً، وصديقاً، وموجهاً! وقد اكتشفت فيما بعد أنه كان قليل الثقة بالناس، يحذر شرورهم، ويكره تباغضهم وتحاسدهم، وأن فقدان المرأة في حياته أورثه بعض الانكماش، وجعله يؤثر العزلة، أما أصدقاؤه الذين كان يودهم ويرتاح إلى عشرتهم فقد كانوا يعدون على أصابع اليد، وكان يترك نفسه معهم على سجيتها الحلوة، فينشد لهم أشعاره، ويبرع في النكتة، ويروي أخباره ويطرح أفكاره آراءه بعذوبة وطرافة.

كنا نـزوره في بيتـه ببلودان قبـل الظهر، وكان، رحمـه الله، يأتينا قبل الغروب فيجلس في الحديقة، يتبسط في الحديث منشرح الصدر، مستمتعاً بكل ما يحيط بـه من مناظر خلابـة، وورود ورياحين. إن من أطرف ما سمعته منـه حكايـة رواها لنا عن ذكرياته في الجامعة السورية مفادها أن إحدى تلميذاته في كلية الآداب استوقفته ذات يوم غضبى تشكو إليه تهجم زملاء قالوا لها: إنها ضائعة! فأجابها على الفور:

ـ ليسوا مخطئين لأنك دائماً ضـائعة!

فاستنكرت ما سمعت وبدا عليها الامتعاض فأردف يقول:

ـ والشرح والتعليل في قاعة الدرس بعد دقائق.

لم يكن أستاذاً فظاً مع تلاميذه بل كان بهم رفيقاً، ولم يكن متحاملاً على تلك الطالبة إذ كانت مجتهدة ومهذبة، غير أنه أراد أن يداعبها بلطف، والدعابة اللطيفة من طبعه، فلما شـرع في الدرس نادى أحد الطلاب على السبورة وقال له أكتب «ضـاع» فكتب وجرى بينهم الحوار التالي:

ـ ما مضارع ضاع؟

ـ يضوع.

ـ وما اسم الفاعل؟

ـ ضائع.

ـ ومؤنثه؟

ـ ضائعة.

ـ ومتى يستعمل هذا؟

ـ في انتشار العطر.

ـ أحسنت، عد إلى مكانك!

ونظر إلى تلميذته الغضبى فرآها متهللة الأسارير، مبتسمة بعد عبوس، وانفضت المشكلة على خير!.

وتضيف الحفار قائلة: ومن حسن بختي، على حد تعبير فقيدنا الكبير في كتابه (أنا والنثر) أن المغفور له أبي، وأنا وزوجي كنا أصدقاء شفيق جبري في القلائل، وأنه أتيح لي الاستمتاع بجلسات أدبية أسبوعية كانت تعقد في بيت أبي بدمشق في الستينيّات، بعد اعتزاله العمل السياسي. كان رواد ندوة الأربعاء... الأساتذة: بدوي الجبل، شفيق جبري، سامي الدهان، صبري العسلي، الدكتور نجيب الأرمنازي، رشدي الحكيم، نصوح الأيوبي، ظافر القاسمي، أبو الهدى اليافي وعمر العمري، وكانت جلساتهم علمية وأدبية صرفة. أذكر على سبيل المثال أن الأستاذ القاسمي قرأ علينا، ذات مساء، دراسة أعدها عن كتاب الدكتور الأرمنازي (الشرع الدولي في الإسلام) فأثارت نقاشاً ممتعاً ومفيداً، ثم انتقلنا إلى مراجعة بعض النصوص في كتب التراث. وكثيراً ما كانت الجلسات تمتد إلى التاسعة ليلاً سواء في الاستماع إلى روائع شاعرينا الكبيرين، جبري وبدوي الجبل أو في التعليق على أخبار العرب، وتقييم مؤلفات قديمة وحديثة. ولا ريب في أنني، والحديث لسلمى الحفار

الكزبري، كنت بين هؤلاء الفحول مستمعة أكثر مما كنت محدثة، أنتظر يوم الأربعاء بشوق لإرواء نهمي للعلم، والإفادة مما أصغي إليه، فمكتبة أبي، رحمه الله، عامرة بكل قيّم ونفيس، وهوايته الكبرى كانت المطالعة للاستمتاع بما جادت به قرائح الشعراء، وأقلام المفكرين والبلغاء.

تقول سلمى: دفعت إلى شاعر الشام بفصول كتابي (في ظلال الأندلس) قبل نشره ففاجأني بمقدمة رائعة وضعها لتزينه، ولما أهديت إليه روايتي «عينان من أشبيلية» بعد نشرها بعث إلي برسالة فيها نقد منصف للرواية.

ولعله من المفيد أن نقتطف من تلك الرسالة، المؤرخة في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦م ما يلي:

[فرغت في هذه الساعة من قراءة قصتك: عينان من أشبيلية، أنا في الهزيع الأول من الليل، مكثت في البيت لزكام شديد قد أصابني، وعلى الرغم من هذا كله لم أشأ أن أؤجل مفاتحتك بما عنّ لي من الآراء في خلال القراءة، لقد هممت بهذه المفاتحة لأن شعوري في هيجانه، وأصدق الكتابات ما كانت بنت الشعور، فهي في مثل هذه الحال بنت الطبع.

وإني لأرجو أن تفاجئي القراء بعيون ثابتة، سواء كانت هذه العيون من أشبيلية أم كانت من بيونس أيرس، ولئن فاتني التمتع من سحر العيون في مسرح الحياة فأرجو أن لا يفوتني هذا السحر في تضاعيف قصصك].

في كلمته التي ألقاها في أربعين جبري، باسم أصدقاء الفقيد، آثر، الدكتور بديع حقي أن يجلو بعض الملامح من شخصية شفيق جبري فقال:

لم أكن أتجاوز الثانية عشرة من عمري، حين كان اسمه يناسم سمعي، فقد كانت تتردد إلى دارنا، بسوق ساروجة، سيدة من كرام الأسر الدمشقية، كانت أمي تدعوها أم شفيق، وكانت من آثر الصديقات إلى قلبها، وكانت تتراءى لي حسنة السمت، طيبة القلب، لطيفة، ظاهرة البشاشة والأنس، وكانت معروفة بذكائها وطلاوة حديثها وشخصيتها المحببة.

ولعلها آنست من طباع الفتى الهادئ المشغوف بالمطالعة، مماثلة في الخلق والميول، مع طباع ابنها وهي تراني، دوماً، أنتبذ ركناً من الغرفة أو أتفيأ ظل شجرة النارنج في حديقة درانا، عاكفاً على كتاب أقرأ فيه، وأوثره على أي متعة من متع الطفولة، فقالت، ذات مرة، بمسمع مني: سيصبح هذا الفتى مثل ابني شفيق، فهو مثله، في انطوائه وشغفه بالطبيعة وولعه بالكتاب. وتابعت فيما كانت تلمح، في عيني، بريقاً يمور فيه سؤال مستوضح:

ـ ألا تعرف ابني الشاعر شفيق جبري؟

قالتها بلهجة يسري في مطاويها ومسنح كلماتها، شعور صادق بالاعتزاز، وظل السؤال، آنذاك، معلقاً، دون جواب. ولكن، جاذب نفسي، تطلّع متقد لمعرفة الشاعر، فقد كان يمثل في خاطري، في سني،

تلك الغضة الساذجة، أن الشاعر إنما خلق من طينة غير طينة البشر، وأنه إنسان أسطوري، خصه الله بموهبة متميزة نادرة وأن من مقدوره أن يبدع كلمات منسقة مؤتلفة، لا يؤتى لغيره من الناس أن يلهج بمثلها، ولعلي ما أزال أدخر، في قرارة نفسي، بهذا الايمان العفوي، بالشاعر الملهم الحقيقي. كانت صورة الشاعر مقرونة في ذهني، بصورة البطل العملاق.

وإذن، فإن أم شفيق، هذه الصديقة المتواضعة المحبة لأمي هي أم شاعر.

قبل وفاته بشهر تقريباً قمت بزيارته، في بلودان، على مدرجة عادتي، فرحّب بي ترحيباً حاراً، بابتسامته الرقيقة التي ألفت أن أراها، كلما صافح بصري محياه، وتحامل، على مرضه وإعيائه ليلقاني، وتشعب الحديث، يومئذ، ألواناً ممتعة، في الأدب والشعر واللغة، ولست أدري كيف جنح القلب إلى ذكريات طفولتي، لأقص عليه ذكرى ذلك اليوم المثلج البهيج المترع بالهناءة عندما مسحت والدته على رأسي تزيل بقايا الثلج الذي كانت تداعبني ووالدتي فيه، وقد، والله، لمحت الدمع يفيض من مآقيه، فيما كنت أسرد ذكرى أمه الغالية، ثم كفكف دمعه براحته وراح يحدثني عن أمّه الحبيبة، حديث الابن البار الوفي، وقال لي:

ـ أشعر دوماً، أن طيف أمي يلازمني، ويحنو علي، كما لو كنت صغيراً، إنني أدعو إلى الله، كل يوم، حين أفيء إلى فراشي، لأخلد إلى النوم، أن يرحم أمي وأبي، وكذلك ترفرف ذكراهما، مماثلة في خاطري

قبل أن يأخذ الكرى بمعاقد جفني.

تلك هي الصورة الموحية المحفورة في ذاكرتي، عن الصديق الشاعر الإنسان، الصورة المنتزعة من ذكرى أحب الناس إلى قلبينا، في الدنيا، أم شفيق وأم بديع.

ولم يتح لي، في طفولتي أن أتعرف الشاعر الكبير فقد فصل الموت بين الصديقتين: أمه وأمي وظلت الصورة الرائعة التي نسجها خيال الفتى عن الشاعر الملهم، تجاذب دوماً خاطري.

وتترادف لقاءاتنا، وتتوطد أواصر الصداقة بيننا، فإذا ما اتخذت أدراجي إلى بلودان، حيث كان يقيم الشاعر، معظم أيام السنة، فقد كان علي أن أمضي إلى داره أو إلى المقهى، حيث كان يطيب له أن يتخذ مجلسه، في ركن منه لا يكاد يغيره، فإذا ما لمحني مقبلاً عليه، استقبلني حفياً بي مرحباً، ورحت أتزود من حديثه الطلي الشهي.

ولما ظهر كتابي (التراب الحزين) أهديت إليه نسخة منه، وشاء، أن يكتب عليه مقالاً ضافياً، في صحيفة الأيام، خصني فيه، بمحبته وتشجيعه وتقديره، وتمنيت لو أن أمي كانت حية لتعتز بما كتبه ابن صديقتها العزيزة عني، وترى إلي أنعم بودّه ورعايته.

لقد اكتملت، مع توالي الأيام، الصورة الرفيعة التي قامت في ذهني عن الشاعر المترفع المرهف الشعور يلوي بسمعه عن اللغو العقيم، وينحو ببصره إلى كتاب يقرأ فيه، أو منظر رائع ينسرح في مداه. وعرفت

لماذا ألفى ـ كما ألفيت أنا ـ بلودان القرية الوادعة الهادئة، ملاذاً لروحه الشاعرة، مفضلاً عزلته الخصبة الموحية، على مخاطبة الناس، فإن نفسه المرهفة، الحساسة، كما يقول:

تجافت عن الدهماء، لم تحتفل بهم
ترى عبسهم بشراً وبشرهم عبساً
فما ألفت بالليل بارقة الدجى
ولا هي ناغت في رفيف الضحى شمسا
وما لي وما للناس أبغي وصالهم
فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا

ولئن وجد الكثيرون في طبعه انقباضاً وترفعاً وبعض الجفاء، لقد كنت ألمس، حين يطمئن إلى مجلس صديق محب، وداعة وخفة روح ومباسطة في الحديث، وتواضعاً لا تكلف فيه، فإذا بالبسمة المشرقة، تنساق من قلبه إلى شفتيه وتسري معانيها في قسمات وجهه وعينيه، فكأن عينيه كانتا تبتسمان، وإذا هو يتدفق في حديثه جنى سائغاً، لا أحلى ولا أشهى، وأشهد، ما وجدت، عمري كله، أديباً، يكره مثله الثناء كما يكرهه هو، وبخاصة حين يسرف مخاطبه في الإطراء فيضحي كلامه تملقاً، واذكر أنني دعيت، ذات مرة، إلى محاضرة له، فإذا بمقدم المحاضر، يفيض في إزجاء المديح إليه، وإذا أنا أرى إلى الشاعر، يزوي ما بين حاجبيه، مقطباً عابساً، وإذا هو يغمغم ممتعضاً: لا حول

ولا قوة إلا بالله، كأنما كانت كلمات الإطراء التي تناهت إلى سمعه سهاماً جارحة، مصوبة إليه، وكان، إلى ذلك يكره أن يتحدث عن نفسه مباهياً، مزهواً. كانت روحه الطيبة الصافية مفطورة على البساطة، ومجانبة التكلف والمداهنة.

وكان رحمه الله، كلفاً بحريته، على نحو متشدد، نأى به، مع ما عرف عنه من إيثار للعزلة والهدوء. عن الزواج. فعاش عمره كله عزباً.

أتمثله، الآن، بقامته الفارعة المشيقة، وعينيه الحالمتين، يسعى، متهملاً، هادئ الخطا، في دروب القرية، أو مصعداً في إحدى رباها، أو جالساً في مقهى متواضع، مع بعض أصدقائه ومحبيه، يرامق، عن بعد، كعاب النرد، تنداح، أمامه، في وسوسة ناعمة، ومتحدثاً إلى بعض أهل القرية الذين يكنون له محبة صادقة واحتراماً عميقاً، ها هي ذي قمة شامخة من قمم الشعر في دنيا العرب، تتطامن، هنا، تواضعاً وبساطة، ومؤانسة.

أما الدكتور خالد قوطرش فيجسد أمامنا شفيق جبري بسماته وصفاته قائلاً:

قامة مديدة فرعاء، تعلوها هامة مستديرة، ووجه مستطيل جذاب ذو ملامح من جمال خاص، فيه عينان نضاحتان بالذكاء والإشعاع، وفم صغير مدور، ذو شفتين رقيقتين وأنف مستقيم وجبهة عريضة مشرقة

وبشرة بين البياض والسمرة الخفيفة.

هادئ إذا مشى وصامت إذا جلس، ولـه في الحالين هيبة مهيبة، يعلوها عنفوان، وتسموها كبرياء، تميزها العزة والكرامة، وشعور مطمئن بالثقة في النفس.

يجالس البسطاء من الناس، ويلعب معهم (بالنرد) ببساطة متناهية، ويجالسه الأدباء والعلماء، ويتحدث عن الجاحظ والمتنبي وأناتول فرانس وبركسون، عن إطلاع واسع وخبرة عميقة.

ومن الناس من إذا رأيتهم عرفت مهنهم وما يحبون، وشفيق جبري من هـؤلاء النفر ذوي السمات البينة والملامح الواضحة... إذا رأيتـه لأول مرة ولا تعرفه ولم تسمع باسمه... وكنت على قسط من الفراسة قلت هذا شاعر...

روى لي أحد الأصدقاء: أن شوقي لما زار دمشق وأمّه وفود أدباء سورية وشعرائها يرحبون به، قال لمن حوله من جلسائه في فندق الخوام مشيراً إلى شفيق جبري وهو لا يعرفـه: إن هذا الشاب شاعر، وقد كان جبري وقتئذ في مطلع شبابه وفي أول الشوط من شاطئ بحر القريض، ولم يتعد اسمه بعد القطر العربي السـوري... وجاء مع الوافدين مرحبين بأمير الشعر والشعراء.

إذا تحدث شفيق جبري هزّك... وإذا سكت هزّك... وهـو في حديثـه وسكوته، بيان مشرق وإشراق من البيان... بايعه شعراء قطره

وأدباؤه ولقبوه بشاعر الشام وهو لما يبلغ الثلاثين . . . ونال مرتبة عالية في وزارة المعارف وأظهر شفيق جبري من حسن الإدارة والحزم وضبط العمل ما لم يظهره أعظم الإداريين والمنظمين، خبرة ودراية.

ويضيف قوطرش، في ثنايا دراسته لأدب جبري: أن فلسفة جبري في الحياة، ككل شاعر مفطور فلسفة متفائلة، تدعو إلى الإبداع والبناء، وتناهض الهدم والفناء. . . وما ثورة الشاعر على الفساد والشر والاضطهاد ومفاسد الأخلاق إلا دعوة للخير ومكارم الأخلاق، هذه مثالب موجودة في المجتمعات البشرية ولا سبيل إلى نكرانها، ونقمة الشاعر الفنان على الحياة دليل على حبه للحياة وتعلقه بخير الحياة وتطلعه نحو حياة أفضل، إن الفنان في انفعلاته الداخلية يحارب الشر في سبيل الخير، إن الحب الأكبر والجهاد الأكبر في سبيل انتصار الحق والخير والجمال على الظلم والشر والهلع، وإن تسميته لديوانه بـ «نوح العندليب» لقبس ساطع في نهجه هذا. . .

ويردف: لقد عاش جبري عيشة الشعراء المفكرين المتنورين. . . فلم يعرف عنه أنه انساق في حياة صاخبة عنيفة، بل عاش حياة شخصية منسجمة مع الاتزان الفكري والعاطفي، فلم يسمح للعاطفة أن تفلت من عقال العقل، ولم يترك العقل يطغى على العاطفة، فقد حباه الله إرادة حكيمة عرفت كيف توازن بين كفتي الميزان فلا طفاف ولا جفاف بل حياة واعية معتدلة.

سمعته يلقي قصيدته في الحفل الذي أقيم في أحد أحياء دمشق،

تكريماً للزعيم السوري «الدكتور عبد الرحمن الشهبندر» بمناسبة عودته إلى الوطن عام ١٩٣٧م، ورفع حكم الإعدام من قبل السلطة المنتدبة عن الشهبندر ومجاهدي الثورة السورية. . . وكان هذا العفو عن المجاهدين أحد المكاسب المباشرة للإضراب الستيني الذي اندفع أوراه في حفلة ابراهيم هنانو وقصيدة جبري.

سمعته يلقي قصيدته الملتهبة في بيت من بيوتات دمشق الواسعة، رحم الله تلك البيوت وأصحابها، ودمعة حرى على ذكراها:

يـا دامـي الجـرح لا جـرح ولا ألـم

يـد الـزعيم تداويـه فيلتـئم

سمعته ورأيته وكنّا عصبة من شباب ثائر على الانتداب. . . فأقامنا شفيق جبري وأقعدنا.

وإبان مهرجان الشعر الذي انعقد في دمشق في السادس عشر من شهر مايس ١٩٥٩م واستمر أسبوعاً كاملاً يزجى الشاعر الكبير أنور العطار برسالة قيّمة إلى شاعرنا الكبير شفيق جبري نقطتف منها:

وبعد فقد عدت إلى «دمشق» ولا يزال سحر «بلودان» يملأ قلبي ويغمر مشاعري، ولا يزال مجلس أستاذي العلامة فارس بك الخوري يرفّ في نفسي ويعزف في أذنيّ، ولا تزال أمسيتنا الشعرية في دارك الجميلة ماثلة في الذهن ما تغيب عنه، نستمع فيها إلى عميد الأدب وهو يتلو علينا ـ يوميّات الأيام ـ ولا أزال أردّد هذه الفقرة السّاحرة الشاعرة:

«. . . وإذا كان الطبع حسناً في الفنون، فهو في الحياة أحسن، وما تزيد متزيّد إلاّ لنقص في نفسه. . .».

يا سيدي ويا عميد الأدب! لقد بلغت القمة في الأدب: نثره وشعره، وما هذه الفرائد من الشعر إلا صورة من صور الوصول إلى القمة، والاستظلال بظلال سدرة المنتهى، وجديرٌ بشاعر عظيم مثلك أن تكون «سدرة المنتهى أدنى منابره» وما هذه القلائد من النثر إلا دليلٌ من أدلّة النضج والامتلاء، وما يتمان لأحدٍ إلا بعد عناء وتعب، فمن يا سيدي استطاع أن يلّخص أغراض مهرجان الشعر الذي انعقد في دمشق في السادس عشر من شهر مايش ١٩٥٩م واستمرّ أسبوعاً كاملاً كما لّخصتها في هذه الوجازة والأصالة والسهولة:

«إنّ فائدة هذا المهرجان الكبرى أنه يستثير قرائح الشعراء فيخوضون في موضوعات شعرية مختلفة، ولا سيّما موضوع الشعر القومي، فهو الذي يهيج شعور الأمة، ويذكّرها بمآثر ماضيها وحاضرها، فيخلق فيها قوّة تبعث على النشاط، وتزيدها ارتباطاً بقوميّتها ووطنيّتها».

ومن قدر أن ينزل الشعراء هذه المنزلة الكريمة كما أنزلهم بيانك: «لم يدوّن أحدٌ من مآثر العرب ما دونهّ الشعراء، فقد كانوا الألسنة الناطقة في كلّ معرضٍ من معارض البطولات في التاريخ، وما أصحّ ما قال (ميل) فيهم: «الشعراء هم شرف الأدب بل هم أصفى وجهٍ من وجوه هذا الشّرف».

ويختم: أحسن الله إليك يا سيدي كفاء إحسانك إلى لغتك وأدبك، ونضّر أيامك وأعوامك لتجيد وتزيد، وتغني أدب العرب بكل جديد.

وعن ذكرياته مع شاعرنا الكبير يقول عيسى فتوح، في مقالة له:

زرته مرة واحدة في منزله ببلودان قبل عشر سنوات تقريباً، وكنت وحدي وبلا سابق موعد، رحب بي وجلست معه أكثر من ساعتين، يحدثني بلا ارتواء، يبوح لي بأدق مكنوناته وأخفى أسراره ببراءة الأطفال، فقد أحسست أن وراء هذه القامة الفارعة التي لم تستطع الشيخوخة أن تؤثر في استقامتها، قلباً عامراً بالحب، مملوءاً بالطيبة والمودة والصفاء. حدثني عنه يوم أقدم، وقد تخطى عتبة الشباب، على خطبة فتاة من اللاذقية كانت إحدى تلميذاته في كلية الآداب.

وهكذا بقي بعدها عزباً، وحيداً، لا زوجة له ولا أولاد.

لقد تهيبت هذه الزيارة في بادئ الأمر لأنني لم أكن أعرف الرجل من قبل، ولكن التهيب سرعان ما تبدد من ذهني منذ أن أخذ يرحب بي بلهجته الدمشقية المهذبة العريقة، وقد أسفت لأنني لم أسجل حديثه يومئذ، ولم تتح لي زيارة أخرى غير تلك الزيارة اليتيمة. حدثني عن حياته اليومية الرتيبة، وكيف يقضي وقته بين القراءة والكتابة والجلوس في مقهى «أبو زاد» أحياناً، وفي المساء يقصده بعض القرويين ليحدثوه عن همومهم ومشاكلهم فيساعدهم على حلها بطيبة خاطر.

تعرّف زهير ماردیني على شفيق جبري، كما يقول: منذ أن بدأت

أتعرف على الأدب، وكان همي في كل مرة اجتمعت به أن ألقي عليه نظرة ثابتة كمحاولة للدخول إلى أغوار نفسه علني أفهم بعض أسراره.

وخلال هذه المقابلات استقر في ذهني شيء واحد، وهو أن القطعة المتحركة من الماضي تحاول بمناعة هرة برية أن تظل في شموخها رافضة الاستسلام.

كان لقائي الأول معه في قهوة متواضعة جداً في مصيف بلوادن، فلقيته بين جمع صغير من قرويي البلدة لا شأن لهم بالأدب، ولا علاقة لهم بالشعر... واختلطت (بالشلة) فلم أسمع من الجمع القول الفخم والشتائم والتعالي والتبجح... عندها أدركت لماذا أختار أن يجالسهم، فهم بكل بساطة سذج... طيبون... لا يعرفون أن يغتابوا أحداً... ولا أن ينالوا من كرامة إنسان... بل لقد بلغ من خمول ذكرهم أنهم يجهلون اختراع الأكاذيب لإطلاقها ضد كل من طفت موهبته... ومع الزمن بدأت آلف هذا الجمع كما ألفه الأديب... ما هم بقادة رأي ليسفّهوا من سبقهم... ولا هم بقادة فكر يتعالون على الكلمة... بل إنهم أناس من الناس، يعملون في نهارهم في الحقل والأرض ويأتون في الليل للجلوس بالقرب من الأديب يحدثهم في مشاكل الحياة بروح خيرة وكلام موجز واضح ويتدخل في مشاكلهم بقدر ما يظل احترامه سائداً... فهو يعلم أن للفقراء قلوب يضنيها التعب مثل قلوب الأغنياء، فهو لا يصنف البشر فئتين خادماً ومخدوماً، بل إن البشر بنظره فئة واحدة سواسية.

هكذا تعلّم . . . هكذا علّم. واللقب الوحيد الذي فرض عليه هو لقب (بك)، ورثه من عائلته الدمشقية الأصل، وتخلى عنه منذ زمان بعيد. . . ولكن أين له من يفهم هؤلاء زهده عن الألقاب!.

كل من بقصد مصيف بلودان ويزور صباحاً منتزه (أبو زاد) يرى في طريقه رجلاً طويل القامة منتصبها، عريض المنكبين. . . أبيض الشعر. . . أحمر الوجه. . . يضع على رأسه قبعة من (الفلين) وعلى عينيه نظارتين سوداوين. . . يسير بهدوء، وما إن يدقق النظر بذلك الصاعد حتى يفتح عينيه حتى مآقيهما. . . فهو معروف من الجميع. . . وأشهر ما فيه هامته.

فهذا الصاعد بهمة الرجال يحمل على كتفيه ثمانين عاماً ونيف، كان خلالها شيئاً يذكر في الوطنية والأدب. ويجلس الرجل وحده في زاوية نائية ويعيش مع ذكرياته الطافحة بكل ما هو مثير، وحين يأتي إليه الزائر لا يسمع منه أي شيء عن الشعر والأدب، ولا يكر أمام سامعه بمسبحة أسماء عظام حادثهم وباحثهم فهو أصلاً لا يدعي.

لقد عرفته شاعراً يرهب الحكام، وكاتباً حاد القلم. . . لقد عرف الناس عنه مظاهره، ولكنها مظاهر تحجب حقيقته، فوراء المظاهر أسبابها ودوافعها. . .

لم يطلق عليه لقب شاعر الشام وأديبها اعتباطاً، فهو أولاً ابن الشام، تربى في دورها الكبيرة الأثرية بين (أحواض الشمشير والليلك)، وأنواع

الورود الشامية، وشرب من البحرة الوسطى عروس الدار التي لا تريد أن تنزع عنها ثوب عرسها، وقطف من الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع، وعبث في الفوارة طفلة البيت المدللة التي لا تنشف لها حنجرة، واتكأ على (خصاص) النوافذ الخشبية الذي يحجب الجمال الدمشقي عن أعين الجياع. . . وأحب دمشق كأطهر ما يكون الحب، وظل وفياً لهذا الحب طيلة حياته التي عاشها منعزلاً عن الناس، يقضي صيفه وشتاءه في بلودان. . . ووراء مظاهر العزلة أسبابها ودوافعها. . . المهم عن أي سبب تصدر، وبأية خبرة تعود. . . لماذا يعتزل الناس ويعيش في مصيف ناء لا يعرف الحياة سوى أشهر الصيف القصيرة العمر؟ ألأنه سئم حياة لا يستطيع أن يحيا فيها حقيقته؟

قد يكون في حكاية هذا الأديب ما يجبينا عن هذا السؤال، ولكن هذا الجواب لا يروي ظمأ أحد. . . إذ ما قيمة السيرة إن لم توصل إلى السريرة؟

لقد كان فيه قنوط الذي يخشى أن لا يفهم فيعتصم في إباء، ويخفي شممه وراء المزاج الخاص.

أبقى في الخواطر، كل الخواطر، اقتناعاً لا يتزعزع بأن حياته رتيبة، وكذلك شخصيته. . .

في عهد الانتداب القاسي جاءه شخص إلى ديوان وزارة المعارف وقدّم إليه ورقة صغيرة موقعة من ابراهيم هنانو، وكان الزعيم الكبير

ملاحقاً من السلطات الفرنسية . . .

كانت هذه الورقة عبارة عن توصية من هنانو بتعيين حاملها أستاذاً في مدينة حماة، ودار بين الاثنين الحوار التالي:

ـ أين تريد أن أعينك؟

ـ في حماه يا سيدي . . .

ـ اذهب من الآن واستلم وظيفتك، وسأرسل إلى مدير المعارف في حماه برقية ليسلمك منصبك . . .

ـ بهذه السرعة؟

ـ نعم، بهذه السرعة، فالتوصية التي يخطها ابراهيم هنانو هي بمثابة مرسوم علينا تنفيذه، فاذهب واستلم عملك؟

وذهب الشاب إلى حماه بالفعل وتسلم وظيفته . . .

وعلم المستشار الفرنسي بالقصة، فثار وهدد وتوعد . . . إذ كيف تنفذ الحكومة بطاقة توصية من رجل تلاحقه السلطة؟

استدعى المستشار رئيس ديوان المعارف، فأقبل عليه الشاعر الحر وهو يعلم ما ينتظره، وجلس على المقعد بدون استئذان . . .

أذهلت المفاجأة المستشار فقال الشاعر:

ـ هل أصبح ابراهيم هنانو رئيسا للحكومة؟

ـ إذا كنتم تعتبرون ابراهيم هنانو متمرداً، فنحن نعتبره زعيماً وطنياً، وإذا كنتم تطالبون بسجنه فنحن نطالب بأن يكون على رأس الدولة، وهو

لم يطلب منا مخالفة القانون، كل ما طلبه تنفيذ القانون، فالشاب الذي بعثه إلينا يحمل شهادة الاختصاص، ونحن بحاجة إلى معلمين . . .

قال الشاعر عباراته هـذه وخرج من غرفة المستشار الفرنسي دون استئذان .

طلب المستشار تسريح رئيس الديوان المتمرد على السلطة المنتدبة، وعرض وزيـر المعارف مرسـوم الإقصـاء على مجلس الوزراء، ولكن رئيس الحكومة آنذاك طوى المرسوم وقال لوزير المعارف :

(هل تريـد أن يخرج مـن الوظيفـة ليشـن علينـا حملة شـعواء في الصحف، إن الذي يتجرأ على تسريحه هو غيري يا صاحب المعالي. . .).

ويضيف ماردیني : لقد أراد جبري أن يمشي على جناحين بين قوم يمشون على قدمين، وكان يستطيع بنفوذه وماله أن يظفر بالمرأة، وكاد أن يظفر بها ثم تلكأ، لقد عاش عمره يطمح من المرأة أن تعطيه جسدها، عبر قلبها، عبر روحها . وحدث مرة أن تعرف في باريس على فتاة جميلة، وكان بينهما لقاءات انتهت بأن قالت له :

ـ يا أستاذ أنت كبير السن فلا أستطيع أن أحبك . . . فأجابها :

ـ إذن دعيني أحبك .

والشاعر لا يتأفف من الرهبنة الاختيارية .

رأى مرة طفلاً ذكياً فتأسف لأنه لم يتزوج وقال :

(. . . كلما رأيت طفلاً بهذا الذكاء تألمت لأنني لم أتزوج، ولكني

كلما شاهدت رئيس الحكومة أحمد الله لأنني لم أتزوج فيولد لي ولد شبيهه. . .).

ما زرت عاصمة عربية إلا سئلت عن أخباره. . . وما زرت عاصمة أجنبية إلا وجدت بعض كتبه في المكتبات الرسمية. في القاهرة لا يعترفون بشاعر أو أديب إذا لم يشهد له الرجل بالأصالة. أما في دمشق فإن معظم الأدباء الشباب يجهلون أن يعيش بين ظهرانيهم، ولا يعرفون عنه أكثر من عبارات موجزة.

سألته مرة، يقول ماردیني، في كتابة قصة (فلان) وكان شخصية علمية مرموقة. . . فأجابني:

(لا أنصحك بالإقدام على هذا العمل إلا في حالتين، إما أن تكون تحب الرجل حباً جماً، أو تكرهه كرهاً جماً) وها أنا أكتب عنه الآن، فأي الحالتين تنطبق علي؟

إن جميع من عرفوا هذا الرجل عن قرب وخالطوه يطلقون عليه لقب (صراف الرجال) لفراسته وتحليله لنفسيات الناس. . .

إذا صعدت يوماً إلى منتزه (أبو زاد) في مصيف بلودان ورأيت رجلاً يسير بهمة الشباب وقد تجاوز الثمانين فاعلم أنك أمام (شفيق جبري) شاعر دمشق وأديبها الكبير. . .

ويروي زهير الماردیني، بأسلوب مسرحي جميل، علاقته بالعملاقين بدوي الجبل وشفيق جبري من خلال اللقاء الذي امتزج فيه الحزن بالفرح:

الزمان: الساعات الأولى من صباح يومٍ حارّ من أيام حزيران.

المكان: غرفة المكتبة في دارة شاعر الشام شفيق جبري، في مصيف بلودان.

ستائر تحجب ضوء النهار... خادمة متداعية تعد القهوة... أكداس من الكتب المتناثرة على المقاعد. وعلى السرير الحديديّ، الهاتف يواصل رنينه، والخادمة لا تقترب منه، فهي تعلم أن رب الدار قد نسي الهاتف طالباً أو مطلوباً...!

ولاحت لي الحياة، وأنا في هذا السكون الأخرس شيئاً آخر غير ما أعهده فيها من حركة... ترى كيف يستطيع إنسان أن يعيش خارج الحياة؟

فرغ شفيق جبري من ارتداء ملابسه، وجلس على المقعد، وأمسك بالقلم، وراح يخطّ على ورقة بضعة أسطر، وما إن انتهى منها حتى طوى الورقة بأناة ووضعها في جيبه وقال:

ـ هيا بنا إلى البريد لنبعث بهذه البرقية.

وأحسست، ونحن في الطريق، أن الرجل الذي احتضن الماضي، وأقام لنفسه عالماً خاصاً به، يريد أن يفضي بشيء ضاق به صدره... فلزمت الصمت.

ولم يطل انتظاري فسرعان ما استأنف حديثه:

(... الكتابة عذاب، ولا بد للطاقة المتفاعلة من أن تجد سبيلاً

إلى الحياة. . . وما الحيلة؟ لقد توقفت حركة الذهن، والتفكير. ! لقد تأثرت هذا الصباح حين قرأت نبأ عودته إلى وطنه)!

في مبنى البريد عرفت لماذا تألم شفيق جبري، وهو القابع بعيداً في صومعته، غير آبهٍ لزخرف البشر، وذلك حين رأيت البرقية التي أعدها ونحن في الدار. . .

(من جبري للبدوي).

دمشق: الأستاذ محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل).

(هنيئاً لجنة الدنيا، عَوْدُ العندليب إلى ظلالها، متّعها الله في حياته، وملأ الآذان من تغريده).

وعدنا إلى المقهى الصغير الذي يأنس إليه الشاعر الكبير، ويفضله على غيره، وظهر الارتياح على وجهه. . . لقد قام بواجبه. ! هكذا قال لي ونحن نتحدث.

قال جبري يصف أدب البدوي:

(إن بدوي الجبل لا يدانيه شاعر من شعراء العصر. في شعر البدويّ ديباجة الشريف الرضي، والشريف الرضي أشعر شعراء قريش. . . بل هو شاعر قريش).

بعد يوم واحد من إرسال البرقية وصل جواب البدوي، وكنا معاً نجلس في المقهى. ورحت أتلوها على مسمعه.

بلودان. . . أستاذنا وشاعرنا الأكبر شفيق جبري:

(سِحْرُ بيانك، وسِحْرُ الغوطتين منبع إلهامي، وسرُّ أنغامي، فمن حقِّ أديمهما المعطّر، أن يتزين له الوفاء، ومن حق بيانك المنوّر أن يتبرج له الثناء).

أعاد الشاعر قراءة البرقية بنفسه، ثم طواها ودسّها في جيبه، وقد احمرت وجناه... لقد ظهر في تلك اللحظة على حقيقته!

تركت الشاعر في لحظة النشوة، وأخذت أمعن النظر في وجهه... هذا الوجه الذي لم تستطع الأحداث المرّة أن تحفر تجاعيدها عليه، وأعتقد، كما خُيّل إليّ، أنه كان مثلي يعود بخياله إلى الماضي... الحافل بعداوات الشعراء. فنحن لا نكاد نعرف في هذا العصر شاعِرَيْنِ بلغ من صفاء الصداقة واعتراف كل منهما بفضل الآخر ما بلغه جبري والبدوي... فبينما يطلق جبري على البدوي العندليب الذي يغني الدنيا. يقول البدوي لجبري:

ـ أنت أستاذنا وشاعرنا الأكبر.

تبادل الشاعران القصائد الشعرية، وحفلت الصحف بشعرهما الذي اندفع في رغبة جامحة... رغبة في التحليق في أجواء البلاغة، وسيظل شعرهما هذا عالقاً في ذاكرة الأجيال، لا لكونه شعراً جيداً فحسب، بل لأنه سجل مرحلة من حياة أمة... ولن يضيرهما كونهما محافظين. فقصائد (كيبلينغ) التي كان يسميها بالنُظم، بقيت عالقة في ذاكرة جيلين اثنين، وكان (كيبلينغ) أيضاً محافظاً، ومع ذلك كان الناقد الأول لبريطانيا المحافظة.

إن الذيـن علموا بعـودة بـدوي الجبل إلى وطنـه بعد غيـاب، لم يستغربوا عدم قيام شفيق جبري بزيارتـه. . . فأصدقاء الطرفين يعلمون أن المعتزل في جبـل بلودان قد قطع اتصالـه بالناس منـذ سنوات. فهو لا يزور أحداً، ومن أراد زيارته فعليه أن يقصد بلودان صيفاً كان الوقت أم شتاءً، ربيعاً كان أم خريفاً.

ووقعت المفاجأة. حين قرر شفيق جبري زيارة البدوي. وكان لقاءً ممتعاً حقاً، وكنت شاهده الوحيد. . .

كان البدوي ملازماً فراشَه، وما إنْ علم باسم الزائر حتى نهض من سريره، وأقبل على صديقه يعانقه، وتبادلا لحظاتٍ خالدة من السعادة، لا يقدرها حقّ قدرها إلا شاعر.

قال البدوي:

(لقد طوقتني بفضلك، وهـذا دليـل نبلك، وأنـت أمـام الرعيل الأول. . . وأنت أستاذنا).

أجاب جبري:

(أخجلتني بهذا الكلام، فأنا ما قمت إلا بواجب نحو صديق. . . فقد عزّ عليّ أن يحنّ شاعر مثل البدوي إلى دمشق، وألا يتجاوب معـه شفيق جبري).

على هذا النحو انطلق الحوار بين الشاعرين. . . وعلى هذا النحو استمرت فتـرة اللقاء ساعات. . . لقد أشار البدوي في شكره إلى تلك

القصيدة التي بعث بها جبري إليه وهو في (فينا) وفيها يقول:

لا الغوطتـــــان ولا الـــــشباب

أدعـــو هـــوايَ فـــلا أُجـــاب

العنـــــدليب علـــــى (البحيـــــرة)

والجـــــوانح فـــــي اضـــــطراب

مُـــــلَّ المُقـــــام ومـــــا يَمَـــــلّ

مقامـــــه، فمتـــــى الإيـــــاب؟

استأنف البدوي حديثه عن أثر القصيدة بين العرب في النمسا وسويسرا فقال:

(. . . حين وصلت قصيدتك إلى جنيف قرأها أناس كثيرون، وطبعت ووزعت، وحفظها الطلاب هناك، وفي عيد الجلاء ألقيت في حفل عام احتفاء بهذه الذكرى القومية الخالدة. . . والآن نريد أن نسمع الجديد من شعرك الذي طالما ظمئنا إليه. . . إن الشعر الذي نقرؤه اليوم لا يروي غليلاً، ولا يشفي ظمأً. . .).

وبالأسلوب نفسه، الممتع، الآخّاذ، الذي يشد، يحدثنا سعيد الجزائري عن علاقته بجبري قائلاً:

النهار ليل في ذلك اليوم من شهر كانون الثاني ١٩٨٠م، والغيم الأسود انبسط ستاراً حاجزاً بين السماء وبين الأرض، والأمطار غطت الطرق المؤدية إلى دار ضيقة في «حي المهاجرين» في دمشق، نقل إليها

من داره الرحبة في مصيف «بلودان» الأستاذ شفيق جبري، بعد أن قال المرض الذي يتخبط فيه للمحيطين به: إنّ عناية الأطباء به خير من عاطفة الأهل والأصدقاء نحوه... ما جدوى الحب والكلمة الفصل هي للطب؟... وناداني «الهاتف» فلبيت النداء... ودخلت الغرفة ورأيت الرجل الكبير في سريره، وراعني، في تلك اللحظات المتجهمة، أنه ينتظر نهايته دون أن يدري، فالحياة في رأيه، وهو ابن الحياة العالمة الشاعرة الواعية، أقوى من الموت. ووقفت إلى جانب الصديق الدكتور شكري فيصل، أصغي كما أصغى إلى أستاذنا، وهو ينطلق في الكلام عن الأدب والشعر والنثر. وعن مشروعات فكرية له حققها، وعن مشروعات ينوي أن ينقلها إلى دائرة الضوء والتحقيق، عندما يعود إلى بلودان، وداره ومكتبته الغنية، بعد أن تنجلي هذه الوعكة التي ألمت به، ثم ما لبثت الكلمات الواضحة في حديثه الحي أن انقلبت إلى همس ما شعر به، ولكننا شعرنا، وعرفنا أن الرجل الذي هز المنابر الشعرية والخطابية على مدى نصف قرن من هذا الزمن، بقصائده ومحاضراته، يزيد في إرهاقه أن يستمر في التحدث إلينا، وأن يسترسل في العودة إلى ماضيه في البيان والتبين، وإلى ذكريات له في ميادين ثقافية وأدبية ما اتسمت إلا له وللقلة في التأليف والنظم والبحث، وأن يتكلم في الحاضر، وهو على السرير الأصفر، عما يهيئه، في الأدب والفكر، للمستقبل... وأين المستقبل؟ إن أنفاسه تتقطع، وإن همسه قد غاب، في تلك اللحظات المتجهمة، عنه وعنا، وودعناه إلى لقاء، ومتى اللقاء؟.

وجلسنا في الغرفة المجاورة، مع شقيقيه ممدوح ورؤوف، نتلمس السبيل إلى إقناعه بقبول نصائح الأطباء له بالانتقال من الغرفة التي لا تعرفها الشمس في الصيف، ومن السرير الذي ينتظر القدر المحتوم، إلى رعاية في مشفى ورقابة من الأطباء ودقة في تناول الدواء، فقد أصر على أن يبقى... ألم يقل لنا، ونحن إلى جانبه، إنه أحب البيت والغرفة والسرير، وإنه لن يعود إلى مصيفه في «بلودان» إلا مع الصيف، وأين الصيف؟... هل يصر على الإصرار؟... هل تذوب في ذلك الجو المظلم تلك الحياة الوضاءة التي سكبت أنوار المعرفة والبيان والتاريخ العربي المجيد في صدور أجيال عربية، تعلمتها من شفيق جبري، عميد كلية الآداب في الجامعة السورية، وعلمتها، رحلت معه إلى «الكوفة» وتعرفت إلى البلد الذي أنجب «أبا الطيب المتنبي» وعادت معه إلى دمشق، إلى منبره في الكلية، لتضع اهتمامها وسمعها بين شفتيه ورهن كفاءته المتفردة وبلاغته، وهو يحاضر في الأدب ويرتل القول في الشاعر العربي، العظيم الخالد، الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس» ويستهل محاضراته بقوله: «الأدب ألهية، ولكنها ألهية شريفة، وإذا أردنا أن نعرف مبلغ شرفها لزمنا أن ننظر إلى أفق الأدب المديد، فمتى أدركنا العالم الذي يحيط به علمنا مقدار اتساع أفيائه وانبساط سلطانه... ما ينبغي للأدب أن يكون إلا لذة الفكر وراحة البال»؟... وهل تذوب في ذلك الجو المظلم العبقرية التي تحدثت عن «الجاحظ معلم العقل والأدب» وقال أعلام الأدب والنقد، من العرب والمستشرقين: «إن كتاب

شفيق جبري عن الجاحظ خير كتاب أخرج عنه للناس»؟ . . . ولم نبلغ في الجلسة والإجماع إلى ما التمسناه، ثم عرفت أن أستاذنا قد اقتنع وأنهم نقلوه إلى المستشفى، ولم أنقطع عن الاتصال الهاتفي، أسأل لأعلم، أو لأطمئن، وكان لي مشروع رحلة أدبية إلى بيروت، ثم قيل لي إن شاعر الشام وأديبها المتفوق وصاحب المتنبي والجاحظ وسمير الأغاني قد مات، أخذ سبيله إلى الخلود بعد موته، وقد نعم بكل الأمجاد الثقافية والتعليمية في حياته. وذكرت، وأنا أتلعثم في تعزية الحزين الناعي، كلمات أستاذنا، الحية فالهامسة فالخرساء، في الدار الضيقة فوق السرير الأصفر. وكأني في تلك اللحظات المتجهمة أرى إلى ملاك الموت يسهم معنا في الإصغاء الباكي إلى الرجل الذي لعب على مسارح الحياة الأدبية في القطر العربي السوري، وفي الأقطار العربية كلها، الدور المرموق، المتميز، في التغني بأمجاد أمته العربية الماجدة، وفي تمجيد الكلمة العربية، الأصيلة العريقة، وفي إبداع الصور والأفكار والمعاني في الرّصين الجيد والمطرب من المباني. . . وأعود، من جديد، إلى ما كتب من بحوث ومقولات في الأدب والوطنية والسياسية والاجتماع، لأنعم، كما نعم غيري من زملائه ومعاصريه وطلابه، بالأسلوب المشرق والفكر العالم، وأتغنى بالشعر، وهو السحر الحلال. وأعتز بأني واحد من الذين أعطاهم قلبه الكبير وشرّفهم بصداقته، وكاشفهم بما أخفاه عن آخرين من آرائه في الحياة الإنسانية التي نتقلب معها في دنياها هذه، بين المر في الكثير وبين الحلو في القليل، ومن أثر مطالعاته، ثم استنتاجاته، في

الأدباء والعلماء والشعراء القدامى ومن زملائه ومعاصريه، وفي هذه المواكب الجديدة من أولئك الذين يقولون الشعر ويكتبون النثر، والذين ينشرون القصص والحكايات والروايات بين المواطنين، والذين يؤلفون، ويمارسون لعبة النقد، ويفلسفون الاتجاهات والأساليب، ويصنفون المدارس الفكرية، وينبرون للانطلاقات الفنية، ولا يتورعون، بالحق وبالباطل أحياناً، عن توزيع الآراء والأدوار، ذات اليمين وذات اليسار، حجتهم أنهم أهل الجديد في الأدب والفن والتطور والشعر، وكأن في الشعر، على سبيل المثال، قديماً وجديداً، وكأن الأسلوب القوي في الأداء هو الضعف وكأن التمسك بالتراث، ولو كان حرصاً على الماضي العبق، ضرب من التقهقر الحائل دون التحضر واللحاق بالركب الذي يتطور. . . وأحاديث وأحاديث، كم تتلمذت عليها، وأنا أسمع، في لقاءاتنا، في إدارة مجلة «النقاد» في الخمسينيات، وفي مكتبه في «كلية الآداب» وفي المقهى الصغير في ساحة مصيف بلودان. . .

أما أحمد الجندي فقد عرف شفيق جبري منذ عام ١٩٢٨م حين جاء إلى دمشق حافظ ابراهيم شاعر النيل، يرافقه خليل مطران شاعر القطرين، يوم دعته الجامعة الأمريكية لإلقاء قصيدة في إحدى قاعاتها الشهيرة وكانت القصيدة:

حيي بكور الحيا أرباع لبنان

وطالع اليمن من بالشام حياني

أهـــل الـــشآم لقـــد طـــوقتم عنقـــي

بمنـــة خرجـــت مـــن طـــوق تبيـــاني

ولم يكن ممكناً أن يصل الشاعران الكبيران إلى بيروت ولا يزورا دمشـق، لذلك تبـادر الأدبـاء والشعراء مـن دمشق إلى بيـروت لدعـوة الشاعريين الذين لبيا الدعوة وحضرا إلى دمشق بين التقدير والاحترام، وقد كلف حافظ يومها إنشاد قصيدة كالتي أنشدها في بيروت ولكن حافظاً لم يكن كشوقي غر البديهـة خصـب الالهام سريع الاستجابة، فقد كان أشبه بالفرزدق، لا ينظم الشعر إلا بعد تعب وتفكير، إذ كان كثير التنقيح والتهذيب لما ينظم، وكان يحمل ورقة في جيبه، إذا أراد نظم قصيدة، فيكتـب فيهـا البيت والبيتين ويعود إليهـا بعد حين وآخر حتى تستتم القصيدة وتكتمل خلال شهرين أو اكثر، بينما كان شوقي أشبه بجرير فهو فياض القريحة لو كلفته نظم قصيدتين في اليوم الواحد لفعل.

وأقيم للشاعرين حافظ ومطران حفل في مجمع اللغة العربية ـ المجمع العلمي سابقاً ـ وألقى حافظ في الحفل بيتين أسعفته بهما قريحته وهما:

شـــكرت صـــنيعكم بـــدموع عينـــي

ودمـــع العـــين مقيـــاس الـــشعور

لأول مـــــرة قـــــد ذاق جفنـــــي

علـــى مـــا ذاقـــه طعـــم الـــسرور

وكـان مستغربـاً طبعاً ألا تجود قريحة شـاعر كبير كحافظ ابراهيم

إلا بيتين اثنين لم يكونا أكثر من كلام بسيط هو أقرب إلى النثر منه إلى الشعر.

وقام يومها شفيق جبري ليجيب شاعر النيل في قصيدته الأولى التي ألقاها في بيروت وكانت إجابته أشبه بالمعارضة فهي من نفس البحر والقافية، فقال:

أنشدت شعرك في أرباع لبنان
فرحت أغمز وسواسي وشيطاني
يا طاويَ اليم من دجناء زاحفة
على صفيح من الأمواج مرنان

إلى أن يقول:

وبنت مروان توحي من أباطحها
وشى القرائح عاشت بنت مروان

وكأنه من ذكر «بنت مروان» قد نظر إلى شوقي يوم جاء إلى دمشق وأنشد:

مررت بالمسجد المحزون أسأله
هل بالمصلى أو المحراب مروان

وكانت قصيدة جبري «قنبلة» الموسم الشعرية، ثم أخذنا نسمع صوت الشاعر بين حين وآخر، فهو يتحدث إلى الناس في عيد الجلاء

وفي المناسبات الوطنية الكبيرة، حتى لقد سمي بحق شاعر الشام.

على أن شفيق جبري في طبعه الخاص كأن أشبه بالبحر يهدأ ليثور ويثور ليهدأ، فإذا ثار رأيت الجبال تنقض والأودية تسيل والأشجار تتقصف والرياح تعصف وتزأر، لقد كانت له خلافات مع خصومه فكان كفؤاً للمناجزة والقتال، لقد خاصم أقوى الخصوم من مثل حسني البرازي والشيخ تاج الدين الحسيني وغيرهما فانتصر عليهم جميعاً، وكان شعره هو المروي على لسان الناس في حين أن خصومه لم يصنعوا شيئاً إلا أزاحته عن العمل الذي كان يشغله في وزارة المعارف أو الجامعة.

وكانت علاقتي به قريبة صادقة يوم كنت في مجمع اللغة العربية، فقد وقع الاختيار علي لأكون مقرراً للجنة الشعر في المجلس الأعلى للآداب والفنون، وقد كنت خلفاً لشفيق جبري، وهذا ما كان موضع فخر بالنسبة إلي ولكني خشيت أن يدس الدساسون بيني وبينه فذهبت إليه أحكي له حكاية هذا «المركز» الذي نلته، وقد أضحكته يوم قلت له لو أن لهذه الوظيفة راتباً لما وصلت إليها، واضحكته أكثر، يوم قلت له في لقاءات أخرى: إنني موظف شفهي، وقال لي: لم أفهم، قلت أنا موظف شفهي لأني لم أقبض راتباً على أي عمل أعمل فيه في الدولة.

ولكني أفتخر كثيراً أنني كنت محل تقدير الرجل تقديراً أخوياً، فقد كان يترك لي مقاله الدائم في مجلة المجمع لأصحح أخطاءه المطبعية ولا يتركه لغيري، ولقد لقيت منه تكريماً خاصاً يستغربه الناس جميعاً حين يعلمون قصته، فقد هتف إلي مرة أن أزوره في البيت، فلما جئته

قال: لقد كلفتك الحضور لأني أريد أن أقرأ عليك قصيدة نظمتها لأرى رأيك إن كنت ترى نشرها أو إرجاء ذلك، وأخذ يقرأ وهو جالس بين عدد من الطنافس على الأرض، فقد كانت تلك عادته رحمه الله، وأخذت أسمع القصيدة وكان ينظر إلي رافعاً بصره ليستشف رأيي بين مقطع وآخر، وكنت أدلي برأيي متحفظاً أتحسس الهمسة والنبرة كيلا أسيء إلى شاعر يرى نفسه أكبر شاعر في البلاد العربية، وحين انتهى من قراءة القصيدة وسمع رأيي، قال: حسناً، قلت يا شفيق بك: إن قراءتك هذه القصيدة عليّ اعتبرها أكبر راتب أتقاضاه عن كل حياتي الأدبية، فضحك، وأكتفى بذلك، فقد كان رحمه الله لا يؤمن بالكلام الكثير، واللبيب من الإشارة يفهم.

وفي العام ١٩٨٠م يكتب الدكتور شكري فيصل، بعد وفاة شفيق جبري فيقول:

أن غياب شفيق جبري لا يمكن أن يكون، في الحساب الدقيق، غياباً لأديب، ولا غياباً لشاعر ولا غياباً لناقد فحسب... وإنما هو صفحة من صفحات هذا السجل العربي الكبير الذي حفظ فيه أدباؤنا وشعراؤنا خير آثارهم، واحتفظوا لنا على مدى الزمن، بروح الحياة العربية الأصيلة متألقة، وأورثوها ـ عن طريق الذين زرعوا في نفوسنا من أدبهم، سمو التطلع، وصحة الاتجاه، ومكارم الأخلاق، وفضائل الوطنية، وسجايا العروبة، والإحساس بالمسؤولية والريادة في الحياة الإنسانية.

وإذا كانت مسالك الشعراء والأدباء إلى الخلود مسالك مختلفة

متعددة يحددها ما يكون من ظواهـر خصائصهم وملامح تفردهم، فقد كان نصيب جبري من هذه المسالك نصيباً كبيراً نستطيع أن نتبينه إذا نحن نظرنا في مكانته من الحياة الأدبية في بلاد الشام، أو اثره فيها.

ويضيف: والذين عرفوا شفيق جبري عن قرب في جملة وجوده الثقافي، يستطيعون أن يقرنوا ـ دون أي حذر ـ بين حركته المادية المتزنة وحركته الثقافية المتبصرة... كلتاهما كانتا مثالاً للأناة التي لا تريد أن تختطف الأشياء اختطافاً ولا أن تلتهمها التهاما... وإنما تريد أن تصل إليها من أطول السبل... تريد أن تعاينها أولا من بعيد، ثم أن تعاينها من قريب، ثم أن تأخذ بيدها، ثم أن تقبل عليها، ثم أن تعاينها... ثم تعاود النظر إليها حيناً بعد حين حتى تنقاد إليها انقياداً، وتسلس لها... فإذا هي ملك يديه، وإذا هي ملء نفسه تختزن منها أكثر ما يكون الاختزان، وتنفعل بها أشد ما يكون الانفعال، وإذا هو قادر على أن يفيد منها دهراً طويلاً من عمره.

وإذا كان هنالك على طول الحياة الأدبية من كتب سيرته الذاتية كما فعل أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» أو كما فعل الأستاذ طه حسين أولاً ثم الأستاذ أحمد أمين بعد ذلك ـ على شيء من مخالفة وتلوين... فإن شفيق جبري يقف عدلاً لهذه القمم الرفيعة حين تحدث عن تجربته الفنية في كتابين لم يتعود إلا قلة من الباحثين الوقوف عندهما والاهتمام بها، هما كتاباه الرائعان اللذان يؤلفان عندي ذروة عمله الأدبي، الذروة التي تجمع بين شقي الدراسة الأدبي... أردت كتاب: «أنا والشعر»

وكتاب «أنا والشعر» وهما سلسلة محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية، في القاهرة.

ولقد كنت أتحدث بذلك إليه، على استحياء منه، فكان يهش له وكأنه كان يشجعني عليه أو يرتضيه مني... وأتحدث بذلك إلى عدد من مريديه أو اصدقائه فكانوا يدهشون للذي أقول، ولكنهم كانوا بعد ذلك يرون الرأي أو ما يقاربه حين ينظرون في الكتابين ويقعان على ما فيهما من دقائق الحديث عن التجربة الفنية.

لقد كان كل شيء في حياته يتأبى على الفناء والموت، كان ينشد البقاء وديمومة الذكر... وكذلك كان إنتاجه تأكيداً على هذه الرغبات في التفرد والبقاء الطويل الذي يحاول أن يقترب من الخلود الإنساني.

لم يكن بصدق. في الأسبوعين الأخيرين أنه مريض... وحين عدته قبيل وفاته لم يكن ليرى في مرضه إلا أنه أمر عارض... ولم نفلح، كما لم يفلح الطبيب، في إقناعه بحاجته إلى المستشفى... فلما لم يكن من المستشفى بد أذعن له وكله أمل بالشفاء... وكأنما جاءه الموت فجأة بعيداً عن أعين الناس، حتى لا يروا منه ما لا يحب أن يرى من نفسه.

ويبعث ظافر القاسمي برسالة إلى شاعرنا يشكره، من خلالها، على تقريظه لكتابه (قاموس الصناعات الشامية) يقول القاسمي:

أني قرأتها في بلودان، آخر السهرة، فبكيت، نعم، والله بكيت،

وهل أنا إنسان، البكاء من غرائزه، وهل علي من حرج أن أعلن لك في هذا الكتاب الخاص أنني بكيت بدموع غزار، وقد أعلنت أنت نفسك في كتابك الفريد (أنا والشعر)، أنك استعبرت وأنت تشرح لطلابك في كلية الآداب قصيدة شوقي:

شـــيّعت أحلامـــي بطـــرف بـــاكي

ولممـــت مـــن طـــرق المـــلاح شـــباكي

وهل على التلميذ من حرج إذا تأسى بأستاذه...؟

لقد بكيت يا سيدي مرتيـن، مرة يوم بحثت عن سوق الخياطين، وعن (قنبازك) الحريري الذي كنت تزهو فيه وتلفه ثم تطويه ثم تنشره، لأن مثل هذه الذكرى قد مرت في خاطري، فأثارت في النفس كوامنها، وبكيت مرة ثانيـة ساعة قرأت تمجيدك للمؤلفين الذيـن رزقوا (الذهـن المتوقد الذي اهتدى في عصر كله ظلمات بعضها فوق بعض إلى ما لم نهتـد إليـه في عصر كله نور بعضه فوق بعض) وساعة قرأت (تعظيمك لرجاحـة العقول التي تضافـرت على عمل القامـوس وإجلالك لثقوب أذهانهم).

لقد أشجاني هـذا كله يا سيدي فأبكانـي، وصدقنـي إن شيئاً آخر أشجاني فأبكاني، تلك هي عاطفتك العميقة نحو دمشق، وإنك، (ابن ترابها وهوائها ومائها وشمسها)، وكيف لا أبكي وقد رأيت القدر يتنكر لها، وأهلها يشيحون بوجوههم عنها، حتى ليكاد يحس أبناؤها الغربـة

فيها، والوحشة في مغانيها، فتأتي أنت وحدك لتنشد قبل أسابيع، وينشد الدهر معك، هذي الديار بنو أمية أهلها، فأذكر هذا وأنا أقرأ لك أنك ترى (في قاموس الصناعات الشامية روح الشام ولحمها ودمها)، فيجري دمعي، وأتساءل، هل هذا الروح واللحم والدم باق متجدد، أو أنه ذاهب متبدد؟

لقد أعلنت لك أنني أفتخر بالتلمذة عليك، وإن لم أجلس على مقاعد الدرس، لأستمع إليك، إلا أنني أخذت عن كتبك، وانتفعت بأدبك، ورويت بعض شعرك، وتأدبت بآثارك، فإذا كنت قد وصفتني (بفرط الذوق) في صدر كلمتك، وأنني (قد ورثته من معادنه)، فإن هذا الإرث قد صقلته أنت بما نشرت في الناس عامة، وبما تلقفت عنك أنا خاصة، من آثار فنك الرائع الخالد. وهذه رسالتك (المفرطة بالذوق) حقاً، وقد علمتني شيئاً جديداً يعود فضله إليك.

وعن زيارته، مع ثلة من زملائه للشاعر الكبير، يقول الدكتور محمد صلاح الدين بن موسى:

وأذكر أني زرته مع بعض زملائي في دارته الأنيقة في بلودان وقدمت إليه عدداً من جريدتنا وفيها بعض أبيات من قصيدته «الجلاء» فنظر طويلاً إلى الأبيات ثم قال بهدوء إنّ القصيدة يا بني بالنسبة للشاعر كل متكامل كالجسد الواحد وكل بيت فيها يتمم البيت الآخر، لذلك فإني ألومكم على نشر هذه الأبيات، وكان الأحرى بكم نشر القصيدة بأجمعها، ألستم معي في ذلك؟ وعرفته أيضاً عميداً لكلية الآداب بجامعة دمشق وأستاذاً

فيها وكان يدرس طلبة السنة الرابعة ـ وكنت واحداً منهم ـ كتاب الأغاني للأصفهاني وملامح الشاعرية عند أحمد شوقي.

وكان كثير من طلبة كلية الآداب يزاحمون طلبة السنة الرابعة ـ على حضور محاضراته والاستماع إلى شاعرهم الكبير ينقل إليهم تجربته الشخصية، ولا نخرج من مدرج الكلية إلا ونحن قد وصلنا إلى ما يرضي نفوسنا ويثلج صدورنا في حيوية متدفقة وإحساس مرهف صادق.

ولن أنسى مشهد دموعه المتساقطة من مآقيه وهو يحدثنا عن أحمد شوقي عندما زار دمشق بصحبة المطرب محمد عبد الوهاب «وكنا جلوساً في دارة قوراء في حي ساروجة بدمشق، وكان أمير الشعراء أحمد شوقي يجلس بالقرب من بركة وسط القاعة يتدفق منها الماء نميرا، وإلى قربه شاب وسيم أنيق وكان أحمد شوقي واجماً مطرقاً، فما إن تناول الشاب ـ وهو كما عرفتم محمد عبد الوهاب ـ عوده وأصلح أوتاره، وغنى حتى انطلقت أساريـر الشاعر أحمد شوقي وهش وبش فكانـت جلسة طرب لا زلت أذكر وقعهـا لدى الحاضرين ومنهم الشاعر الكبير أحمد شوقي نفسه».

وكـان شفيق جبـري خلال عمادتـه لكليـة الآداب الأب الرحيـم والموجه والمرشـد والأستاذ والحكيم، وكثيراً ما كنا نلجأ إليه إذا حزبنا أمر نسأله الرأي والمشورة أو الرحمة والإنصاف، وطلابه جميعاً يذكرون مواقفه الرائعة منهم عندما كانوا يعرضون عليه مشكلاتهم الجامعية منها والعامـة، وكان رحمه الله جم التواضـع معنا نحن أبناؤه الطلاب ـ وكان

بـاب حجرتـه دومـاً مشرعـاً ـ وما أكثر ما قطعنـا عليه عزلته لنسأله عن المحاضرات أو الدرجات، فكان يبتسم ويتنحى عن مقعده الخلفي وراء مكتبه ليجلس معنا على الأريكة ويستمع إلينا، ولا نخرج من غرفته إلا ونحن قد وصلنا إلى ما جئنا نسعى إليه ونتوسم عند المعيد قضاؤه.

وعرفته أيضاً أديباً كبيراً وشاعراً فحلا قد اتخذ من مصيف بلودان مثابـة لـه يستقبل فيهـا أصدقاءه ويخلو إلى نفسه مستلهماً جبال بلودان ووديانها ناظماً من هذه الطبيعة الضاحكة أجمل قصائده وأحلى دُرره.

وكم من مرة زرنـاه في عزلتـه فكان يهش لنا وينهض واقفاً مسلماً قائلاً:

أهلاً بكم طلابـي في الأمس وزملائـي اليوم ثم يبتسم ويضحك، ويقودنا إلى شرفة منزله المطلة على سهل الزبداني ووديان بلودان، ويبدأ حديثـاً أدبيـاً ممتعاً عن الشعر العربي والشعراء والنقد الأدبي... وعن شوقي وذكريات الشاعر معه... وتمضي الساعات ونحن في ضيافة هذا الشاعر على مائدته الفكرية... حتى يقطع علينا استغراقنا صوت الخادم بأن وقت الغداء قد حان... فننهض مع الشاعر لنتحلق حول مائدة سخية في جو مفعم بالشاعرية والأنس والجمال.

وعن ذكرياته مع شاعرنا جبري، أمير الشعر والنثر، يقول عبد الغني العطري في (عبقريات من بلادي):

عرفته وأنا في مطلع الشباب، حين أصدرت مجلتي الأدبية (الصباح)

ونشرت له على صفحاتها بعض شعره ونثره وأحاديثه. وازدادت علاقتي وثوقاً به، حين أصدرت في ربيع العام ١٩٤٥م مجلتي الثانية (الدنيا). وكنت ألقاه بين الحين والآخر، فيزداد إعجابي وتعلقي بشعره ونثره عقب كل لقاء. وفي العام ١٩٦٢م، حين استأنفت (الدنيا) صدورها، بعد توقيفها الغادر والظالم، أيام الوحدة مع مصر، أخذ أدينا الكبير يكتب للمجلة مقالاً خاصاً مرتين كل شهر. وتابع شفيق جبري كتابة مقالاته لمجلتي إلى حين توقيفها النهائي، مع سائر الصحف والمجلات السورية.

وفي نيسان من عام ١٩٦٧م أجرى عادل فريجات حواراً مع شفيق جبري في داره ببلودان أجابه، من خلاله، على أسئلته المتعلقة بنتاجاته المطبوعة والمخطوطة، والصحف التي كان يكتب فيها... وغير ذلك من آرائه في الأدب والشعر والنقد محلياً وعربياً...

❐❐❐

أضواء على شعر عمر أبي ريشة
القومي والوطني

أضواء على شعر عمر أبي ريشة القومي والوطني

ليس من المستطاع حصر شعر عمر أبو ريشة (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠م) في موضوعات محددة، ذلك لأن شعر الرثاء، مثلاً، يتضمن الوطنية والقومية والوصف، واستيحاء التاريخ والبطولات، كذلك شعر الوصف، قد يتضمن الفلسفة والتأمل. وقد نجد في الغزل الحنين والحسرة، وقد نجد في الشعر التاريخي وصف البطولة، وتصوير المعارك، مما يطلق عليه شعر الحماسة. وهذا يدل على أن موضوعات الشعر متداخلة متشابكة، وليس من السهل فرزها، كما كانت تفرز في الشعر القديم، ولهذا لا نجد أحداً أقدم على سرد موضوعات الشعر التي نظم فيها عمر سرداً تفصيلياً دقيقاً. فمعظم من يتطرقون إلى هذا الموضوع يذكرون شعر الوطنية، أو شعر النضال، وشعر المرأة، وشعر الطبيعة . . .إلخ مع العلم أن شعر عمر أوسع من ذلك، وأبعد مدى. وليس من المستطاع حصره استناداً إلى عناوين القصائد، ولكننا نستطيع أن نقول إنه نظم في الوصف والتأمل واستيحاء المرأة والطبيعة والتاريخ، علاوة على شعره الوطني والقومي. . .

لقد شب عمر وسورية في نضال دام مع الإفرنسيين، والشرق في ثورة لاهبة ضد المستعمرين، فكان لذلك أثره في نفسه، فاتجه بشعره الوطني إلى تصوير كفاح الأمة وكفاح الشعب السوري، بصورة خاصة، وكان له في كل مناسبة قومية قصيدة لفتت إليه الأنظار.

وكان الشباب ـ في تلك المرحلة ـ يتأثرون بالأحداث ويثورون للمعارك الدائرة في سبيل الاستقلال والقومية العربية، وينهضون لنصرة الشام التي كانت تعاني ظلم المستعمر وقذائفه وتكتوي بنيرانه، فيرسل الشباب بالجامعة مقالاتهم وقصائدهم، ويقف عمر خطيباً وشاعراً ولمّا يبلغ الثامنة عشرة من عمره، فقد أحس برسالته في نصرة العرب والدفاع عنهم.

لم يكن عمر يؤمن بالقطرية، فقد حمل قضية العرب القومية أكثر من عشرين عاماً في السلك الدبلوماسي متنقلاً من بلد لآخر، وخدم بلاده بكل أمانة وإخلاص ووفاء. لذا لم يكن شعره قطرياً، وإنما كان قومياً نقياً خالصاً لا تشوبه مصلحة خاصة، ولا تملق لحاكم.

لقد كان للأحداث الدامية التي عاشتها سورية، بدءاً من دخول الفرنسيين وتدنيسهم ثراها الطاهر إبان معركة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠م، أثرها الكبير في نفس الشاعر، فتردد صداها في شعره، وكانت قصائده تلهب الشعور الوطني وتزيد في حماسة الشعب لمقاومة الاستعمار، وكانت هذه القصائد حمماً من نار تنزل على المستعمر، فتدك حصونه،

وتهز كيانه، وتفضح مبررات وجوده فوق تراب الوطن.

كان أبو ريشة واحداً من اصفى الأصوات الوطنية، وكان شعره أكثر الأنغام مع تطلعات المواطنين وطموحاتهم، وكان لأحد أناشيده الوطنية من الذيوع ما لم يكن لسواه، إذ تلقفته أسماعهم، وتداولته ألسنتهم، وحفظته قلوبهم:

في سبيل المجد والأوطان، نحيا ونبيد

كلنا ذو همة شماء جبار عنيد

لا تطيق السادة الأحرار أطواق الحديد

إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيد

ولم يقتصر عمر، في تعبيره عن حبه لوطنه وتفاعله مع قضاياه، على الأناشيد وحدها، فقد نظم القصائد والمقطّعات الكثيرة، يشيد فيها بالوطن، ويشدو بما في ربوعه من جمال، ويعدد ما يملكه من عناصر الخير والعطاء، ويهتف مسحوراً:

يا بلادي وأنت نهلة ظمآن

وشبّابة على فم شاعر

وكان يبرز في شعره غنى الوطن بمقومات الجمال، من خلال رؤية إيجابية تقرن الأرض بأهلها، والوطن بالمدافعين عنه، والجمال بالإباء، والخير بالرجولة. فهو في قصيدته (صلاة) مثلاً لا يكتفي بتمجيد الوطن،

لما فيه من مقومات، تستحق التمجيد، وإنما يجأر شاكياً متألماً للتناقض بين روعة الوطن وتخاذل المواطنين أبنائه:

ربّ طوقـــت مغانينـــا جمـــالا وجـــلالا
ونثـــرت الخيـــر فـــيهنّ يمينـــا وشـــمالا
وتجليـــت علـــيهن صـــليبا وهـــلالا!
ربّ، هـــذي جنّـــة الـــدّنيا، عبيـــرا وظـــلالا
كيـف نمـشي فـي رباهـا الخـضر، تيهـا واختيـالا
وجـــراح الـــذّل نخفيهـــا عـــن العـــز احتيـــالا
ردّهـــا قفـــراء، إن شـــئت وموجهـــا رمـــالا

ويخاطـب الشعب الذي يئن تحت وطأة الخيانـة والتآمر بعبارات مريرة تلتهب بروح الثورة:

يا شـعب لا تـشك الـشقاء ولا تطـل فيهـا نواحـك
لو لـم تكـن بيـديك مجروحـا لـضمّدنا جراحـك
أنت انتقيت رجال أمرك وارتقيـت بهـم صـلاحك
فإذا بهم يرخـون فـوق خـــبس دنيـاهم وشـاحك
أيـــبل صـدرك من جراحتهم وتعطيهم ســلاحك؟!

ويبرز عمر، بجرأته المعهودة، تهاون الزعماء وتقصيرهم في كشف ما يحيكه المستعمرون ضد العرب:

لا يـــلام الـــذئب فـــي عدوانـــه

إن يـــكُ الراعـــي عـــدو الغـــنمِ!

وهو، في الوقت نفسه، لا يفتأ يندد بقوى الشر العاتية التي تقضّ مضاجع الشعوب الآمنة:

لـــم يـــزل شُـــرّبُ النجيـــع ســـكارى

يتبـــــارون حولـــــه عـــــدوانا

مـــا ألانـــت قلـــوبهم أدمـــع الأيتـــام

أو هـــــزّهم أنـــــين الحزانـــــى

فـــضحاياهم تمـــور علـــى الرمـــل

المـــــدّمى وتعتلـــــي صـــــلبانا!

كلهـــم فـــي وليمـــة البغـــي يخـــشى

أن يـــرى جـــوف غيـــره ملآنـــا

قـــل لتلـــك الحمـــائم البـــيض طيـــري

فالخطايـــــا تـــــدفقت طُوفانـــــا

لقد حرص الشاعر على ربط الماضي بحاضر أمتـه وواقعها بدافع من غيرتـه القومية فقد جعل من قصيدة (محمد) مقدمة لملحمة (النبي) ليبعث في نفوسنا نشوة الماضي العطر بحديثـه عن عظمة الرسول وعن غزواته:

يـا عـروس الـصحراء مـا نبـت المجـ

ـــد علـــى غيـــر راحـــة الـــصحراءِ

فأعيـــدي مجـــد العروبـــة واســـقي

مـــن ســـناهُ محـــاجرَ الغبـــراءِ

قـــد تـــرفُّ الحيـــاة بعـــد ذبـــولٍ

ويلـــين الزمـــانُ بعـــدَ جفـــاءِ

ويصوّر الوطن زاهياً بفتوحاته، ومراسم الهيبة والوقار تكسوه بوشاح اسطوري جميل، حتى لكأنه عالم الملاحم الشعبية، حيث تتفتح السدود وتزول الحدود أمام أخيلة ساذجة ترسبت صورها في عقل الأمة الجماعي مقرونة بأبطال السير الشعبية، وما يثيرونه في الناس من إيماءات بالخوارق والمعجزات:

وطـــن عليـــه مـــن الزمـــان وقـــارُ

النـــور مـــلءُ شـــعابه والنـــارُ

تغفـــو أســـاطير البطولـــة فوقـــه

ويهزّهـــا مـــن مهـــدها التـــذكارُ

ويؤلمه أن يرى المستعمرين يسخّرون قوتهم للظلم وكبت الحريات، واستعمار الشعوب الضعيفة لاستغلالها وسلب خيراتها ونهب مواردها ويأسف ـ في الوقت نفسه ـ لاندثار الحضارة العربية، ويعتز بمواقفها الإنسانية:

أنـــا مـــن بقايـــا أمـــة هـــي والعلـــى مِـــنْ تـــوأم

مرّت على الدنيا مرور القَطرِ بالحقل الظمي

وتناقلـــت آيـــات رحمتهـــا شـــفاءُ الأنجـــم!

ويبين موقف العالم بما قدمته الأمة العربية إلى الدنيا كلها من قيم عليا ومثل نبيلة:

مـن هنـا شـقّ الهـدى أكمامـه وتهـادى موكبـا فـي موكـبِ

وأتـــى الـــدنيا فرفّـــتْ طربـــا وانتـشت مـن عَبْقـه المنـسكبِ

وتغنّـــت بـــالمروءات التـــي عرفتهـــا فـــي فتاهـــا العربـــي

هـــبّ للفـــتح فـــأدمى تحتـــه حـافرُ المهـر، جبـينَ الكوكـبِ

إن شعر أبي ريشة مدرسة في تعليم الكبرياء وعزة النفس وحب المجد وعشق المروءة والمعالي، وقد كان التاريخ العربي أحد المصادر الموحية بمثل هذه المشاعر والأخلاق:

أيـن دنيـاكِ التـي أوحـت إلـى وتـري، كـل يتـيم الـنغمِ؟

كـم تخطيـتُ علـى أصـدائه ملعـب العـز ومغنـى الـشممِ

وتهاديـــت كـــأني ســـاحب مئـزري، فـوق جبـاه الأنجـمِ

لقد كان المثل الإيجابي للمواطن، بسبب الصراع مع الاستعمار، هو الإنسان المضحي بنفسه فداء أمته، ومن هنا كثرت في الشعر العربي المعاصر صـور الشهداء والفدائيين والزعماء الوطنيين، المناضلين ضد

الغزو والاحتلال. . . ومن هذا المنطلق رسم شاعرنا صوراً شعرية للشهيد والفدائي والجندي. . . ولم يقصد بهم أشخاصاً محدودين أو معروفين، يمتلكون أسماء وتواريخ، وإنما رسم صورة مثالية لكل واحد منهم.

يقول في بسمة التحدي:

يـــسم. . مـــن علّمـــهُ كيـــف يطيـــب الألـــمُ؟
ســـلاحه علـــى الثـــرى مبعثـــر محطـــمُ
وصـــدره ممـــزق يـــسيل فوقـــه الـــدمُ
وحولـــه أعـــداؤه تلعنـــه، وتـــشتمُ
تمعـــن فـــي تعذيـــه لعلـــه، يستـــسلمُ
أو ينثنـــي عـــن زهـــوه بقولـــه: أســـترحمُ
أزرى بـــذل حقـــدها ومـــات. . وهـــو يبـــسمُ

ويقول في فدائي:

أمـــضي ويـــذهلني طِلابـــي عنـــي، وعـــن دنيـــا شـــبابي
أمضي! ويسألني الربيع ولا أجيبُ، متى إيابي
أمـــضي! ومـــا روّت فمـــي كأســـي، ولا أفنـــت شـــرابي!
بينـي وبـين المـوت ميعـاد أحـث لـه ركـابي
عبق بأنفـاس النعـيم الـسمح والمجـد اللبـاب
أســـري علـــى إيمانـــه والحقـــد يـــسري فـــي إهـــابي!

هذي الربوع ربـوع آبـائي وأجـدادي الغـضاب

عطّـــر، فـــداك العمـــر، يـــا ميعـــاد مـــن جرحـــي ترابـــي

فلـوف تركز فيه أعلامي وتحرسـها حرابـي!!

ويشيد الشاعر، بقصائد عديدة، بشهداء ومناضلين معروفين سفحوا دماءهم رخيصة على مذبح الحرية وغسلوا بها تربة الوطن الغالي.

يقول في ذكرى رحيل الزعيم إبراهيم هنانو:

هنـــانو، أي صـــاعقة أقـــضّت على صرح مـن العليـا مـشيدِ!؟

هنـــانو، أي ســـيف غيّبتـــه يد الأقدار فـي غمـد اللحـودِ!؟

ألا انظر صحبك الغـرَ الـدواهي يـشدّون الأكـف علـى الكبـودِ

رجـــال لا تلـــين لهـــم قنـــاة إذا عصف الحديد على الحديـدِ

يعـــز عليـــك مـــرآهم جميعـــا وقد أجروا الدموع على الخدودِ

ومـــا علّمـــتهم غيـــرَ ابتـــسام إذا عبـــس الـوغى تحـت البنـودِ

أفظـــع منظـــر حـــر جـــريح بكـى أسـفا علـى حـر شـهيدِ

صريعَ الموت هل أبقيت سـهما ولـم تقذفـه بـالعزم الـسديدِ

وفيـك بطولـة الأجيـال تـدْوي مناضـلة مـن المجـد التليـدِ

وأنـت علـى يـد الآسـي عليـل تـصارع جولـة الـداء العنيـدِ

وما السنوات هدّت فيـك عزمـا ولا خـدعت بمعـسول العهـودِ

نهضت فكنـت عاصـفة تمشّـت وفـي جنباتهـا قـصفُ الرعـودِ

إن الخطوب الجسام التي نزلت بالعرب منذ الحرب العالمية الأولى عملت على ازدياد التقارب بينهم، وأن الاستعمار الذي أصاب كرامتهم ومشاعرهم القومية بجرح بليغ قد ألّف بينهم ولم شعثهم ووحد آمالهم، وكان الشعراء ـ ومنهم شاعرنا ـ قبل الساسة والزعماء لسان الشعوب ورسل التقارب والألفة والوحدة:

هـذه أمتـي وهـذي مغانيهـا تجـرُّ الـسواد فـي الأعيـادِ
كلمـا لاح بـارق فـي سـماها أطفأتـه ريـحُ الزمـان العـادي
جمعتها هوجُ الليالي على الجـر ح كما تجمـع النـدامى شـوادي
والرزايـاكم قرّبـت بـين أشـتا ت بـدادٍ وأمنيـات بـدادِ

كانت سورية أول بلد عربي انتزع حريته من براثن المستعمر إثر انجلاء غيوم الحرب القاتمة. ونجد أبا ريشة يعبر عن تلك المنى التي ذاق الشعب حلاوتها بعد لهفة شديدة وأيام مريرة، وهو يبلغ حد مباركة الخطوب، ويشير إلى أنه لولا تلك الآلام لما تحققت هذه الآمال:

لمّـت الآلام منـا شـملنا ونمـت مـا بيننـا مـن نـسبِ
فـإذا مـصرُ أغـاني جلـق وإذا بغـداد نجـوى يثـربِ
بورك الخطـب فكـم لـفّ علـى سـهمه أشـتات شـعب مغـضبِ

لقد أطال عمر وقفته في رحاب التاريخ العربي المجيد، وكان في رايه، من أهم المقومات المحرّكة لهذا الجيل الراكد، الذي ابتلي بكل عوامل الضعف والتخلف. وقد اقترن التاريخ عنده بالأصل العربي، الذي

كان فخر الشاعر به، وأعلن اعتزازه الدائم بالانتماء إليه.

يقول في قصيدته (في طائرة) التي يلتقي فيها الشاعر المسافر بحسناء إسبانية، تحدّثه عن أمجاد أجدادها القدامى، العرب، دون أن تعرف جنسية من تحدث، وقد سألها الشاعر عن أصلها وموطنها فإذا بها تشمخ فخراً واعتزازاً بأرض أنبتتها وأجداد تنتمي إليهم:

وجدودي، ألمح الدهر على ذكرهم يطوي جناحيه جلالا
بوركت صحراؤهم كم زخرت بالمروءات رياحا ورمالا
حملوا الشرق سناء وسنا وتخطوا ملعب الغرب نضالا
فنما المجد على آثارهم وتحدّى، بعد ما زالوا، الزوالا
هؤلاء الصيد قومي، فانتسب إن تجد أكرم من قومي رجالا!

وعمر، الذي ناضل ولقي كثيراً من الظلم، راح يردد في نفثاته طلقات المدفع الذي يملكه ليثير أن روحاً تتحرق في سبيل الحرية وقف لكل كارثة أو مصيبة أو هزة ينشد ويغني إلى أن استجاب الله لثورة الشعب العربي في سورية وتحققت آماله وذهب الاستعمار إلى غير رجعة فاعتلى منصة الحرية فرحاً بجلاء الغاصب، وهو يقول:

يا عروس المجد تيهي واسحبي في مغانينا ذيول الشهبِ
لن تري حفنة رمل فوقها لم تعطّر بدما حر أبي
درج البغي عليها حقبة وهوى دون بلوغ الأرب
وارتمى كبر الليالي دونها ليّن الناب، كليل المخلب

كـم لنـا مـن ميـلون نفـضت عـن جناحيهـا غبـار التعـب
كـم نبـت أسـيافنا فـي ملعـب وكبـت أجيادنـا فـي ملعـب
مـن نـضال عـاثر مـصطخب لنـضال عـاثر مـصطخب
شـرف الوثبـة أن ترضـي العلـى غلـب الواثـب أم لـم يغلـب!

شكلت القضيـة الفلسطينية أحـد الموضوعات الأساسية في شعر عمر أبي ريشة، وكان يتحدث عنها دائماً، وتطفو على صفحة فكره في كل مناسبة ويبدأ منددأ بوعد بلفور، وفاضحاً للدور الذي مثّلته بريطانيا في خلق هذه المأساة ـ الجريمة:

ومـن الطـاغي الـذي مـدّ لهـم من سـراب الحقِّ أوهـى سـببِ؟
أوَ مـا كنّـا لـه فـي خَطْبـه معقلَ الأمن، وجـسر الهـرب؟
مـا لنـا نلمـح فـي مـشيته مخلب الذئب، وجلد الثعلـب؟

ويطيل، في قصائد أخرى، وقفته أمام السلوك الغادر، الذي تميزت به علاقة البريطانيين بالعرب منذ محادثات الحسين ـ مكماهون:

خفروا ذمة العهود وصموا الأذان عن صرخة الهضيم اللاحي
كـم وعـود معـسولة سـكبوها فـي فـؤاد العروبـة المـسماحِ
فحـشدنا لهـم جيـوش ولاء ومـددنا أكفّنـا للـصفاحِ
وسـفكنا الـدم الزكـي وزيّنـا جبـين الرحـى بغـار النجـاحِ
وأردنـا الأسـلاب مـنهم فكنّـا نحن أسلابَهم، ونحن الأضاحي

وانطلق الشاعر، في قصائد أخرى، يثير الهمم العربية للدفاع عن فلسطين، مثيراً فيهم المشاعر الدينية مذكّراً بمقدسات المسلمين والمسيحيين واليهود، ومؤكداً أن القوة هي السبيل الأوحد لحماية الأماكن المقدسة من عبث الغزاة ووحشيتهم:

يا روابي القدس، يا مجلى الـنا ... يا رؤى عيسى على جفن النبي
دون عليائك في الرُّحب المدى ... صهلةُ الخيل، ووهج القضب!

أما بعد النكبة فيستبد الغضب بالشاعر، فيجلد به نفسه وأمته، ويراها كأنها تجردت من كل صفاتها الإيجابية والتصقت بها كل التهم التي يصمها بها أعداؤها فينشج بالأبيات التالية:

أمتي، هل لك بين الأمم ... منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفي مطرق ... خجلا من أمسك المنصرم
ويكاد الدمع يهمي عابثا ... ببقايا كبرياء الألم!
ألإسرائيل تعلو راية ... في حمى المهد وظل الحرم!
كيف أغضيت على الذّل ولم ... تنفضي عنك غبار التُّهم

ومن بعد، يصور بؤس اللاجئين: مشهد الشيخ العجوز المتعثر في مشيته، ومشهد المرأة الكريمة تساق إلى مصير ترفضه ونهاية تأباها...

كم متعب جرّ السنين وراءه ... ومشيهُ يبكي جلال وقاره
متلفتا صوب الديار، مودعا ... وخطاه بين نهوضه وعثاره

كم حرة لم تدرِ عينُ الشمس ما في خدرها، أغضت بطرفٍ كارهِ

ويحاول أبو ريشة تحديد عوامل الهزيمة والمسؤولين عنها، وينتهي إلى اتهام الحكام تارة واتهام الشعب تارة أخرى:

ودعي القادة في أهوائها تتفانى في خسيس المغنم!
رب (وامعتصماهُ) انطلقت ملء أفواه البنات اليتّم
لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم!!

ولكن لا يلبث أن يتعلق بصره بفوهة بندقية يصوبها جندي عربي ليرفع بها راية الوطن:

أيها الجندي، يا كبش الفدا يا شعاع الأمل المبتسمِ
ما عرفت البخل بالروح إذا طلبتها غصصُ المجدِ الظمي
بورك الجرح الذي تحمله شرفا، تحت ظلال العلم!

وإبان نكسة عام ١٩٦٧م وتصاعد الحركة الفدائية يقول:

عزاؤه أنّ ملء الساح فتيَه إلى الردى والفدا، أرواحهم نذروا
كتائبُ الفتح، في إعصار عاصفة بالحقد والغضب العُلوي تنفجرُ
من كل أمردَ ما أدمى مراشفَه في رعشة الشوق، إلا الوحل والمدرُ
وكلِ حسناء ما بعات أساورَها إلا لتشري بها ما الموت يدخرُ
كتائب بالنضال الحق مؤمنةُ إذا الطواغيت من إيمانها سخروا

ولعله من المفيد، قبل اختتام هذه الاضاءات حول شعر أبي ريشة

القومي والوطني، الإشارة إلى عدم تطرق عمر إلى العديد من الأحداث الهامة التي شهدتها المنطقة العربية منذ مطالع الخمسينيات (هاشم عثمان/ عمر أبو ريشة/ آثار مجهولة) كثورة مصر والعدوان الثلاثي وقيام الوحدة ومن ثم الانفصال بين مصر وسورية وانتصار الثورة الجزائرية. . .

❐❐❐

نزار قباني
قبل الهوامش وبعدها

نزار قباني
قبل الهوامش وبعدها

نزار قباني في رسائله الشعرية

تتناول هذه الدراسة بالبحث رسائل نزار قباني الشعرية، دون النثرية. وهي ـ بهذا المعنى ـ تستغرق أغراض ومضامين شعره كافة؛ وبتنويعاته المختلفة. وتكاد ـ بشكل أو بآخر ـ أن تكون لوناً جديداً في دراسة شعر شاعر قد لا يختص به سوى نزار من حيث الكثرة والأسلوبية.

والرسائل، موضوع البحث، تندرج تحت مسميات عديدة: رسائل، حوارات، مذكرات، وصايا، بلاغات، برقيات، أخبار، محاضر، هوامش، خطابات، مكاتيب، بطاقات، سير ذاتية... وسواها.

وهي، أي الرسائل، موضوعاً التأمت في سياق عاطفي، تجاه الوالدة أو الوالد أو الحبيبة، أو سياسي، تجاه قيادة أو زعامة أو مدينة، أو أنها جمعت بين هذه جميعاً، أو بعضٍ منها، أو وُجهت إلى متلقٍ واحدٍ، اعتبارياً أو فردياً...

وهي، أي الرسائل أيضاً، أتت على لسان الشاعر، أو من يمثله من

جنس الرجال، أو أنها انتبدته لينطق باسم امرأة أو مدينة أو حالة. . .

والرسائل، بمترادفاتها التي أشرنا إليها، اقترنت أحياناً بتأريخ باليوم والشهر والسنة، وهذا له سمته توثيقاً، خاصة في الرسالة ذات المضمون الوطني، أو الدفاعي إن صح التعبير. وفي مرات عديدة جاءت خلواً من ذلك سوى سنة إصدار المجموعة التي تتضمنها الرسالة أو الرسائل. . .

ولابد من الإشارة إلى أن عدداً من الرسائل، يجمعها خط واحد نشرها نزار، وانتشرت بين جماهير القراء، ضمن مجموعة واحدة كـ (مائة رسالة حب).

وفي إطار الشكل والمنهج يمكننا الإشارة إلى رسائل قصيرة جداً لم تتجاوز بضع كلمات. . .

وأيضاً، وفي سياق الشكل يمكن التميز بين رسائل جاءت عروضياً كلاسيكية وغيرها على لون التفعيلة أو القصيدة النثرية. . .

وقبل الدخول في عمق الدراسة وشفعها بالنماذج اللازمة، يجدر بنا، وعبر أسطر قليلة، أن نسلط الضوء على نزار الشاعر في اسلوبه المتميز وشخصيته الشعرية المتفردة، والتي تجسدت وبخط متنامٍ، ليس في رسائله فحسب بل وفي شعره كله؛ فمنذ نصف قرن وتزيد أدرك د. منير العجلاني بحسه النقدي في تقديمه لـ (قالت لي السمراء) مميزات وخصائص الشخصية النزارية فنزار شيء جديد ومخلوق غريب في طبيعته الشاعرة روائح بودلير وفيرلن والبير سامان وغيرهم من أصحاب الشعر

الرمزي والشعر النقي. . . والذي خاطبه قائلاً: . . . ومن يدري لعلَّ القدر يخبئ لنا فيك شاعراً عالمياً؛ تسبح أشعاره من بلد إلى بلد؛ وتمر من أمة إلى أمة. . .

ومنذ خمسين عاماً وضع نزار برنامجه الشعري وأصدر بيانه العاطفي؛ لخص فيه نزعاته وأساليبه؛ فهو رمزي غريزي عفوي، لم يأخذ من الرمزية إلا بمقدار، تبرأ من غموضها وجاراها أو شابهها غير متعمَّدٍ في عنايته بموسيقا الألفاظ منفردة أو مجتمعة. . . وشاعرنا غريزي ولكنه لم يستطع أن ينزل مع الشهوانيين إلى قرارة الحجيم الذي يسكنونه. . . ونزار بعد ذلك عفوي؛ فهو لا يتكلف صناعة الشعر؛ ولا يكتب ليلقن صغار التلاميذ أشعاره. . .

على مدى خمسين عاماً وصف النقاد شعر نزار بأنه سهل ممتنع، ومنذ خمسين عاماً أطلق الدكتور عجلاني على شعر نزار هذا الوصف مشيراً إلى استعماله بعض الألفاظ العامية في شعره فيه قوة وإغراء، وطلب إليه أن يبقى كما هو طفلاً يصور ويغني ويعشق، كأنه ملاك يمشي على الأرض ويعيش في السماء. . . وكذلك كان. . .

في استهلاله لـ (طفولة نهد) قال نزار عام ١٩٤٧م: حرام أن نمزق القصيدة لنحصي كمية المعاني التي تنضم عليها، ونحصر عدد تفاعيلها وخفي زحافاتها، ونقف على لون بحرها. . . فالإحصاء والتحليل والحساب والفكر المنطقي يجب أن تتوارى كلها ساعة التلقين المبدع؛ لأن كل هذه الملكات العقلانية الحاسبة فاشلة في ميدان الروح. . .

لنقرأ القصيدة كما ننظر إلى القمر بطفولة وعفوية واستغراق، فمهمة الشعر ليس أكثر من كهربة جميلة تصدم عصبك وتنقلك إلى واحات مضيئة مزروعة على أجفان السحاب. . . وهي لا تعمَّر طويلاً، وتكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة وخيال وغريزة مسربلة بالموسيقا. . . ومتى اكتست الهنيهة الشعرية ريش النغم كان الشعر النفس الملحنة.

وظيفة الشعر هي أن يعطيك بطاقة السفر دون أن يتدخل في تفاصيل الرحلة ومواعيد القطارات التي ستركبها، وأسماء الفنادق التي ستنزل فيها. . .

وظيفة الشعر هي أن يضع في أصبعك خاتم سليمان؛ وعليك أنت أن تستحضر المارد وتطلب منه ما تريد. . .

اللفظة الشعرية تؤدي عمل جهاز الإضاءة (الفلاش) ويصبح الشعر إضاءة سريعة عمرها ثانية أو جزء من أجزاء الثانية. . .

اللفظة الشعرية برق ورفة جفن والتماعة سيف؛ إنها طيران عصفور.

حين لا تستطيع أن تكتب فأنت منفي، وحين لا تستطيع أن تقول لحبيبتك يا حبيبتي فأنت منفي، وحين لا تستطيع أن تحقق الشرط الإنساني فأنت منفي وحين يصبح لسانك سمكة متجمدة في حلقك فأنت منفي، وحين لا تستطيع أن تمارس المواء الذي تمارسه كل قطط العالم بصورة طبيعية فأنت منفي، وحين لا تستطيع أن تبصق على السكين التي تذبحك فأنت منفي، كل واحد منا يحمل منفاه في داخله، ووحدهم المجانين

أو الشعراء هم الذين يحسنون الكلام عن منافيهم. . . يقول نزار: أحمل قارورة فيها رماد بيروت، وقارورة فيها رمادي، أحمل خارطة طفولتي ومكاتيب حبيبتي، وسلالم بيتنا القديم في دمشق، وسجادة صلاة أمي، وسعال أبي ومحفظة كتبي المدرسية وكراسة أشعاري الأولى، وأبحث عن زاوية في الأرض العربية تكون بحجم ورقة الكتابة. . . لا أريد أكثر من هذا، فمن يعطيني سماء بحجم ورقة الكتابة؟ من يعطيني الكتابة؟ . . .

- ١ -

في أولى رسائله العاطفية التي تلقاها من حبيبته والتي حملت عنوان (رسالة) يحلق نزار في أجواء علوية من السحر والفتنة وتعبق كلماته بأريج الربيع وألوانه الزاهية ويطالب الحبيبة بالمزيد. . .

لا تكـــوني بخيلـــة واكتبـــي لـــي
فـــي عروقـــي مقـــر كـــل رســـالة

وفي أولى (قصائد) رسالة حب صغيرة وبكلماته المنتقاة المختارة يتمنى على حبيبتـه ألا يضيرهـا أن أخبر عنهـا المنحنى والغديـر واللوز والتوليب. . . بل يؤكد أنها تكبر بحبه وعشقه:

دعي حكايا الناس لن تصبحي
كبيرة إلا بحبي الكبير
ماذا تصير الأرض لو لم نكن
لو لم تكن عيناكِ. . . ماذا تصير؟

ويعيش نزار في طيب حبيته وطيب حروفها وهو يترقب (ساعي البريد):

يا أنت يا ساعي البريد

ببابنا هل من خطاب

ويقهقه الرجل العجوز

ويختفي بين الشعاب

ماذا يقول؟ يقول:

ليس لسيدي إلا التراب

إلا حروف من ضباب

أين الحقيبة؟ أين عنواني؟

سرابٌ... في... سرابْ

ويبدو أن كرباً قد ألمَّ بشاعرنا الذي كان يتشوق إلى حرف جديد ولكن الحبيبة قصرت في ذلك فأمرها غاضباً أن تمزق رسائله لأنها لم تكتب لها:

مزقيها

كتبي الفارغة الجوفاء إن تستلميها

والعنيني والعنيها

كاذباً كنت وحبي لكِ دعوى أدعيها

إنني أكتب للهو فلا تعتقدي ما جاء فيها

فأنا ـ كاتبها المهووس ـ لا أذكره

ما جاء فيها

وفي قصة شعرية رائعة في المجموعة ذاتها، يتقمص شخصية امرأة حاقدة؛ خانها الحبيب وغدر بها فيجري على لسانها:

لا تعتذر

فالإثم يحصد حاجبيك

وخطوط أحمرِها، تصيحُ بوجنتيكْ

ورباطكَ المشدوه... يفضحُ

ما لديكْ... ومن لديكْ...

يا من وقفتُ دمي عليكْ

وذللتني، ونفضتني

كذبابةٍ عن عارضيكْ

ودعوت سيدةً إليكْ

وأهنتني...

من بعدِ ما كنت الضياءَ بناظريكْ

ومن غربته التي أمضته فوسم نفسه بالمتشرد لبعده عن الحبيبة يرسل (ثلاث بطاقات من آسيا):

يا أرنبي الحنون

بدون عينيكِ... فلا فسقيّةٍ اخضرارْ

بدون شاطئين مقمرينْ

بدون غابتين

أنشدُ في حِماهما القرارْ

ويكابد شاعرنا الألم عندما ينتهي إليه أن رسائله إليها التي مهرها بأسلوبه وطابعه ولونها بزرقة عينيه وطرزها بأنامله وأعصابه قد أصبحت طعماً للنار:

أمطعمةَ النيرانِ... أحلى رسائلي

جمالكِ ماذا كانَ؟ لولا روائعي

فثغركِ بعضٌ من أناقةِ أحرفي

وصدركِ بعضٌ من عويلِ زوابعي

أنا بعضُ هذا الحبرِ.. ما عدتُ ذاكراً

حدودَ حروفي من حدودِ أصابعي

وتتملك نزاراً نشوة عظيمة عندما يصله خطاب من حبيبته ويعاود قراءته المرة تلو المرة، فيغرق في طيوبه ويبكي من أسلوبه، ويود لو يقرؤه للنهر، للنجمة، للغريب...

ومن جديد يتعثر بريدها إليه، فينحني عليها باللائمة وينعت كلماتها بالبرودة والكسل، ويكتب تحت عنوان (بريدها الذي لا يأتي):

يا أكسلَ امرأةٍ تخطُّ رسالةً

يا أيها الوهمُ الذي ما أشبعهْ

أنا مـن هـواكِ . . . ومـن بريـدكِ متعـبٌ
وأريـــدُ أن أنـــسى عـــذابكما معـــا
لا تتعبـــي يـــدكَ الرقيقـــةَ إننـــي
أخـــشى علـــى البللـــورِ أن يتوجَّعـــا
إنـــي أُريحـــك مـــن عنـــاءِ رســـائلٍ
كانـــت نفاقـــاً كلُّهـــا . . . وتـــصنُّعا
الحـــرفُ فـــي قلبـــي نزيـــفٌ دائـــمٌ
والحـــرفُ عنـــدكِ مـــا تعـــدى الإصـــبعا

يقول نزار قباني في تقديمه لمجموعة (مائة رسالة حب): هذه الرسائل المائة التي أنشرها هي كل ما تبقى من غبار حبي وغبار حبيبتي. . . ولا أعتقد أنني بنشرها اخون أحداً أو أعتدي على عذرية أحد. فأنا شاعر كان له ككل الرجال تراث من العشق لا يختجل به، ومجموعة من الرسائل لم يجد الشجاعة الكافية لإلقائها في النار. . . وأنا لا أنكر انني فكرت في النار كحل أخير يحررني من هذه التركة الثقيلة ويحرر جميع حبيباتي، غير أني حين رجعت إلى محتويات هذه التركة وجدت أن بعض هذه الرسائل فيها شيء كثير من قماشة الشعر وبعضها الآخر شعر حقيقي، عندئذ تراجعت عن عملية الحرق والتقطت من بين أكداس الرسائل مائة رسالة أو مقاطع من رسائل وجدت فيها إيقاعاً شاعريا إنسانيا يتجاوز إطار الخصوصيات إلى إطار العموميات، رغم قناعتي بأن الخط الذي

يرسمه الناس بين خصوصيات الفنان وعنمومياته هو خط وهمي. ثم إني أعتقد أن الكاتب لا يكون في ذروة حريته إلا في مراسلاته الخاصة، أي عندما يقف أمام المرآة متجرداً من أقنعته وثيابه المسرحية التي يفرض المجتمع عليه أن يرتديها... فالرسائل هي الأرض المثالية التي يركض الكاتب عليها كطفل حافي القدمين ويمارس فيها طفولته بكل ما فيها من براءة وحرارة وصدق. إنها اللحظات الصافية التي يشعر فيها الكاتب أنه غير مراقب وغير خاضع للإقامة الجبرية:

رسائلي إليكِ...

تتخطاني... وتتخطاكِ...

لأنَّ الضوءَ أهمُّ من المصباحْ

والقصيدةَ أهمُّ من الدفترْ

والقبلةَ أهمُّ من الشفةِ...

رسائلي إليكِ...

أهمُّ منكِ... وأهمُّ مني

إنها الوثائق الوحيدة...

التي سيكتشف فيها الناس

جمالكِ...

وجنوني...

* * *

رسائلي إليكِ . . .

ليست مقاعدَ من القطيفة

تستريحين عليها . . .

إنني لا أكتب إليكِ . . . كي تستريحي

إنني أكتبُ إليكِ . . .

كي تحتضري معي . . .

وتموتي معي . . .

ودفعاً للإطالة في هذه الفقرة نشير ـ في السياق نفسه ـ إلى قصائد: بريد، وصايا إلى امرأة عاقلة، ١٠ رسائل إلى سيدة في الأربعين، رسالة من تحت الماء.

ـ ٢ ـ

ومن الرسائل التي تتسم بالسمة الاجتماعية (رسالة إلى رجل ما) صدرها نزار مجموعته (يوميات امرأة لا مبالية) مشفوعة بمقدمة قال فيها: هو كتاب كل امرأة حكم عليها هذا الشرق الغبي الجاهل المعقد بالإعدام، ونفذ حكمه فيها قبل أن تفتح فمها، ولأن هذا الشرق غبي وجاهل ومعقد يضطر رجل مثلي أن يلبس ثياب امرأة ويستعير كحلها وأساورها ليكتب عنها.

أما القصيدة فتثبتها كاملة لما تضمنته من معان وأفكار تتصل بعادات المجتمع وتقاليده يجدر التوقف عندها:

يا سيدي العزيز

هذا خطابُ امرأة حمقاء

هل كتبتْ إليكَ قبلي امرأةٌ حمقاء؟

اسمي أنا؟ دعنا من الأسماء

رانيةٌ أم زينبٌ

أم هندُ أم هيفاء

أسخفُ ما نحملهُ ـ يا سيدي ـ الأسماءْ

يا سيدي

أخافُ أن أقول ما لديَّ من أشياء

أخاف ـ لو فعلتُ ـ

أن تحترقَ السماء

فشرفكم يا سيدي العزيز

يصادرُ الرسائلَ الزرقاءْ

يصادرُ الأحلامَ من خزائن النساء

يمارسُ الحجرَ على عواطف النساء

يستعمل السكين

والساطور

كي يخاطب النساء

ويذبحُ الربيع، والأشواق

والضفائر السوداء

وشرقكم يا سيدي العزيز

يصنع تاج الشرف الرفيع

من جماجم النساء

لا تنتقدني سيدي

إن كان خطي سيئاً

فإنني أكتب والسيافُ خلف بابي

وخارج الحجرة صوت الريح والكلاب

يا سيدي

عنترةُ العبسيُّ خلف بابي

يذبحني

إذا رأى خطابي

يقطع رأسي

لو رأى الشفاف من ثيابي

يقطع رأسي

لو أنا عبَّرتُ عن عذابي

فشرقكُمْ يا سيدي العزيزْ

يحاصرُ المرأةَ بالحرابِ

وشرقكُمْ يا سيدي العزيزْ

يبايع الرجالَ أنبياءَ

ويطمر النساءَ في الترابِ

لا تنزعج

يا سيدي العزيز من سطوري

لا تنزعج

إذا كسرتُ القمقمَ المسدودَ من عصورِ

إذا نزعتُ خاتم الرصاصِ عن ضميري

إذا أنا هربت

من أقبيةِ الحريمِ في القصور

إذا تمردتُ على موتي

على قبري على جذوري

والمسلخ الكبير

لا تنزعج يا سيدي

إذا أنا كشفتُ عن شعوري

فالرجل الشرقي

لا يهتمُّ بالشعر ولا الشعورِ

الرجلُ الشرقي

واغفرْ جرأتي

لا يفهم المرأة إلا داخل السرير

معذرة يا سيدي

إذا تطاولت على مملكة الرجال

فالأدب الكبير ـ طبعاً ـ أدب الرجال

والحب كان دائماً

من حصة الرجال

والجنس كان دائما

مخدراً يباع للرجال

خرافةٌ حرية النساء في بلادنا

فليس من حرية

أخرى سوى حرية الرجال

يا سيدي

قل كلَّ ما تريده عني فلن أبالي

سطحية غبية مجنونة بلهاء

فلم أعد أبالي

لأن من تكتب عن همومها

في منطق الرجال تدعى امرأة حمقاء

ألم أقل في أول الخطاب إني امرأة حمقاء

ـ ٣ ـ

وبعد عامين من غربته التي أضجرته يرسل نزار لأمه (خمس رسائل) عكست طفولته في بيتهم الدمشقي العريق مفصلاً بأحلى الكلمات وأجملها تلك العلاقة وتلك الذكريات مع الأم ـ أم المعتز ـ ومع المنزل والحي والمدينة والوطن. . . أجل المدينة التي راح يرتلها ويغرق في أدق تفاصيلها في معظم كتاباته شعرا ونثرا. . .

ومن دمشق مرة أخرى ينطلق صوت نزار من بيت أمه وأبيه، حيث تتغير جغرافية جسده وتصبح كريات دمه خضراء وأبجديته خضراء.

في (الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق) يتوضأ نزار بماء العشق والياسمين ويدخل صحن الجامع الأموي فيسلم على كل من فيه ويتجول في بساتين الخط الكوفي ويقطف أزهارا جميلة من كلام الله، فيصعد درجات أول مئذنة منادياً: حي على الياسمين، ويتذكر:

عندما كنت دبلوماسيا في بريطانيا

قبل ثلاثين عاما

كانت أمي ترسل لي في مطلع الربيع

في داخل كل رسالة

حزمة (طرخون)

وعندما ارتاب الانجليز في رسائلي

أخذوها إلى المختبر

ووضعوها تحت أشعة الليزر

وأحالوها إلى اسكوتلاندبارد

وخبراء المتفجرات

وعندما تعبوا مني ومن (طرخوني)

سألوني: قل لنا بحق الله

ما اسم هذه العشبة السحرية التي دوختنا؟

هل هي تعويذة؟

أم هي دواء؟

أم هي شفرة سرية؟

وماذا يقابلها باللغة الإنكليزية؟

. . . . . .

إن أمي امرأةٌ طيبةٌ جداً وتحبني جداً

وعندما كانت تشتاقُ لي

كانت ترسل لي باقةَ طرخون

فالطرخون عندها هو المعادل العاطفي

لكلمة يا حبيبي

أو لكلمة (تقبرني)

ـ ٤ ـ

ويهـز العدوان الثلاثي في العام ١٩٥٦م شاعرنـا ويأتي ذلك على لسان جندي في جبهة السـويس في رسالة وجهها لوالده، مؤلفة من أربعة مقاطع ومؤرخـة في ٢٩/ ٣٠/ ٣١ تشريـن الأول، و١/ تشرين الثاني ١٩٥٦م والتي يصور من خلالهـا شراسة المعتدي الذي لا ضمير لديـه وصبر المعتدى عليه بكل طيبته وأصالته وسعيه للذود عن حياض وطنه بكل ما أوتي من قوة، فـ:

لم يبقَ فلاحٌ على محراثهْ إلا وجاءْ
لم يبقَ طفلٌ يا أبي إلا وجاء
لم تبق سكين ولا فأس
ولا حجرٌ على كتف الطريق
إلا وجاءْ
ليردَّ قطَّاع الطريق
ليخطَّ حرفاً واحداً
حرفاً بمعركة البقاءْ

ويعـود نزار ليكرس هـذه البطولات وهـذه القيم في رسالتـه إلى الجندي العربـي المجهول (حملت في موضـع آخر عنوان: رسالـة إلى

عبد المنعم رياض، ومنها:

يا أشرفَ القتلى

على أجفاننا أزهرْتْ

الخطوة الأولى إلى تحريرنا

أنت بها بدأتْ

يا أيها الغارقُ في دمائهِ

جميعهم قد كذبوا

وأنت قد صدقت

جميعهم قد هُزموا

ووحدك انتصرت

ويطالب الشاعر حزيران والألم يعتصره أن يطلق على الماضي الرصاص، ويضيف:

كنْ يا حَزيرانُ انفجاراً

في جماجمنا القديمة

كنِّسْ ألوف المفردات

وكنِّسِ الأمثال والحِكَم القديمة

مزِّق عباءتنا التي بليت

ومزِّق جلد أوجهنا الدميمة

وكنِ التغييرَ والتطرف

والخروج على الخطوط المستقيمة

وللفردوس المفقـود (الأندلـس) في شعر نـزار مساحـة واسعة، ويجيب سائلته عن اسبانية وطارق وعقبة قائلاً:

لم يبق في اسبانيه

منا

ومن عصورنا الثمانيه

غيرُ الذي يبقى من الخمر

بجوف الآنيه

- ٥ -

في (أشعار خارجـة على القانون) يكتب نـزار لحبيبته من بيروت حيث المطر وبيروت مشغولة بحسنها، عاشقة لنفسها، طيبة قاسية ذاكرة ناسية كأكثر النساء:

أبحث عن أصابعي

عن لغتي

عن علبة الكبريت

عن عبارة ما وردت في كتب الغرام

تسيطر الفوضى على مشاعري

بلفني الظلام

ما أصعب الكلام

نكتبه لامرأة نحبها

ما أصعب الكلام

ويفترض الشاعر أن رسائله السبع ستضيع في بريد بيروت في ظل الأوضاع المتردية والصراع الدامي الذي تشهده. ولكنه يريد أن يخاطب بيروت ويبادلها ويبثها آلامه وهمومه، فهو يرى فيها الحبيبة والصديقة والرقيقة والبعيدة والأثيرة:

يا بعيده

أيَّ أخبار تريدين عن الشعر وعني؟

أخذوا بيروت مني

أخذوا بيروت يا سيدتي منكِ ومني

سرقوا منقوشة الزعتر من بين يدينا

سرقوا الكورنيش والأصداف

والرمل الذي كان يغطي جسدينا

سرقوا منا زمان الشعر يا لؤلؤتي

والكتابات التي تسقط مثل الكرز الأحمر

من بين الأصابع

ويمعن نزار قباني رغم ما يعلم عن الأوضاع في بيروت في التحرش

بهـا والوقوف على أحوالها فيرسـل إليها برسائلَ أربع ينعتها مسـبقا بأنها ساذجة ليثير الفضول بالاهتمام بأسلوب تهكمي لافت:

يا أصـدقاء الصـبر في بيروت

قولوا لنا: في أيَّ أرض يزرعون الصبر؟

قولوا لنا: هل ممكن أن تنهض الوردة من فراشـها؟

ويستفيق العطر

هل ممكن أن ترجع الحروف من غربتها؟

وأن يفيض الحبر

هل ممكن أن نسـتعيد عمرنا؟

من بعد ما هم شطبوا

أجمل سطرٍ في كتاب العمر

ـ ٦ ـ

أما في الجانب السياسي فمنذ البدايـة نقف في رسائله على ألفاظ وكلمات تدخل بشكل أو بآخر في المفهوم نفسـه: تقرير، سري، بلاغ، خبر، نصائح، صاحب الجلالة، . . . وسواها.

تحت عنوان (تقرير سـري جداً من بلاد قمعسـتان) كتب وهو يرثي حال العرب ويستنهض هممهم:

قصائدي ممنوعةٌ

لأنها تحمل للإنسان عطر الحب والحضارة

قصائدي مرفوضة

لأنها لكلِّ بيت تحمل البِشاره

يا أصدقائي :

إنني ما زلت بانتظاركم

لنوقد الشراره

وفي بلاغ من بلاد صاحب الجلالة يرسم ما يلي :

يطلب من وزارة التجارة

أن تمنع استيراد أيما كتاب

وتقنع التجار أن يستوردوا النخالة

ويقدم الشاعر (نصائح ذهبية في أدب الكتابة النفطية) فيقول :

لو شاءت الأقدارُ أن تكون كاتباً

يجلس تحت جبة الصحافة النفطية

فهذه نصائحي إليك :

ادخل إلى مدرسة تعلِّم الأمية

اكتب بلا أصابعٍ وكن بلا قضية

امسح حذاء الدولة العليه

اشطب من القاموس كلمة الحرية

لا تتحدث عن شؤون الفقر والثورة في الشوارع الخلفية
لا تنتقد أجهزة القمع ولا تضع أنفك في المسائل القومية
كن غامضاً في كل ما تكتب، والزم مبدأ التقيه
خصِّص عمودك اليومي للأزياء والأزهار والفضائح الجنسية
لا تتذكر أنبياء القدس أو ترابها، فإنها حكاية منسية
لا ترثِ بيروت التي ترملَّت؛ فالقتل فيها عادةٌ يومية
لا تتعرض للسلاطين إذا تعهروا أو قامروا أو تاجروا فهذه مسألة شخصية
ولا تقل لحاكم: إن قبابَ قصره مصنوعة من جثث الرعيه

- ٧ -

وإثر وفاة الرئيس جمال عبد الناصر يرسل له رسالة وسمها بالعاجلة ويعدد من خلالها معالم مصر المشدودة إلى القلوب، ويتحدث من خلالها عن شعب مصر الطيب؛ وكيف يمارس عاداته وتقاليده مشيراً إلى الفراغ الكبير الذي خلَّفه موت عبد الناصر، وإلى الحزن الكبير الذي ألمَّ بالناس:

وعندما يسألنا أولادنا
مَن أنتم؟
في أي عصرٍ عشتم؟
في عصر أي ملهم؟

في عصر أي ساحر؟

نجيبهم: في عصر عبد الناصر

اللهَ ما أروعها شهادةً

أن يوجد الإنسان في زمان عبد الناصر

* * *

فلسطين في شعر نزار قباني

بداية، تُرى: هل يطرح هذا العنوان (فلسطين في شعر نزار قباني) ما يندرج ـ عند النقاد ـ تحت مسمى الأدب الملتزم؟ أم أن شعر نزار الفلسطيني منبثق من حالة وجدانية تتصل بالتاريخ وتحاكيه، بل دعني أقول تعرّيه، وتسلط الضوء ساطعاً على مثالبه وسلبياته!

منذ (خبز وحشيش وقمر) شخّص نزار (١٩٢٣ ـ ١٩٩٨م) المرض العربي ووصّفه، وشرّح أسبابه، وأشار بأصبع ضخمة إلى مواجعه ومآسيه:

عندما يولد في الشرق القمرْ

فالسطوح البيض تغفو

تحت أكداس الزهر

يترك الناس الحوانيت، ويمضون زمر

لملاقاةِ القمرْ

يحملون الخبز، والحاكي، إلى رأس الجبال

ومعدات الخدر

ويبعون، ويشرون خيال

وصور

ويموتون إذا عاش القمر

ولعل ما أوردناه، وغيره كثير جداً، ينفي عن نزار الصفة، أو الصفات التي الصقت فيه، وقد علّق عليها غير مرة في مناسبات شتى: بأنه شاعر المرأة. . . وقد تناولت الدراسات، على كثرتها، هذا الجانب، دون سواه إلا قليلاً: رغم غزارة كتاباته، شعراً ونثراً عن المجتمع العربي وعن همومه، وحظيت (فلسطين) بقدر لا يستهان به من القصائد التي حفّزت الهمم وقوّت العزائم. . .

فقد كان من أوائل الشعراء، إن لم يكن أولهم، الذين تنبهوا لخطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ففي العام ١٩٥٥م كتب (قصة راشيل شوارزنبرغ):

فليذكر الصغار

العرب الصغار حيث يوجدون. . .

من ولدوا منهم، ومن (سيولدون)

قصة إرهابية مجندة

يدعونها (راشيل)

حلّت محل أمي الممددة

في أرض بيارتنا الخضراء في الخليل

أمي أنا الذبيحة المـــتـهدة . . .

وليذكر الصغار

حكاية الأرض التي ضيعها الكبار

واستنكر نزار تجاهل الحكام العرب لآلام فلسطين، وعدم قيامهم بواجبهم نحوهـا، وتناسيهم وتجاهلهـم مصيرهـا . . . قصيـدة (الحب والبترول) ١٩٥٨م.

لعل نكسة العرب، بل نكبتهم، في حزيران ١٩٦٧م كانت الانطلاقة الواضحة لأدب نزار السياسي والشعري منه على وجه الخصوص، ولعل قصيـدة (خبز وحشيش وقمر) التـي ألمحنا إليها، كانت الإرهاصة التي أنبأت بنكسة حزيران فالشاعر يكيل فيها النقد القاسي للوطن العربي الذي ضيّع في وهمه وكسله وسكره فلسطين.

وجاءت النكسة ففجرت رائعته (هوامش على دفتر النكسة) وفيها تجسـيد لتوليفـة من التبخيس والشـعور بالذنـب، والرغبـة في الثـورة والاقتصـاص مـن الذات والآخـر، وحفلـت بعبـارات كثيـرة ومؤثـرة كـ: فصراخنـا أضخـم من أصواتنـا ـ وسيفنـا أطول من قاماتنا ـ بالناي والمزمار لا يحدث انتصار ـ لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية:

يا وطني الحزين

حولتني بلحظةٍ

من شاعرٍ يكتب شعر الحب والحنين

لشاعرٍ يكتب بالسكين

* * *

إذا خسرنا الحرب، لا غرابه
لأننا ندخلها
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخِطابه
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابه
لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابه

* * *

كلفنا ارتجالُنا
خمسين ألف خيمةٍ جديده

* * *

ما دخل اليهود من حدودنا
وإنما
تسربوا كالنمل من عيوبنا

الالتزام عند نزار فيه مفارقة لافتة، فهو رفض للخنوع المستتر في تضاعيف الماضي والحاضر معاً، وهو بحث دؤوب عن البطولات

المتلألئة في مرايا الحجارة وفي أكف أطفالها الذين بهروا الدنيا وجاءوا كالبشارة. . .

بعد الهوامش سار نـزار على الطريقـة الوعرة نفسها التي سلكها، فعلا صهيلُ قوميته، وتأججت نار عروبته، وغدا كالسكين يشرّح مواضع الألم في الجسد العربي لكي تبرأ من علتها، وأتت (الممثلون):

متي سـترحلون؟

المسرح انهار على رؤوسكم

متى سترحلون؟

والناس في القاعة يشتمون. . . يبصقون

كانت فلسطين لكم

دجاجة، من بيضها الثمين تأكلون

كانت فلسطين لكم

قميص عثمان الذي به تتاجرون

طوبى لكم. . .

على يديكم أصـبحت حدودنا

من ورق

فألف تشـكرون

على يديكم أصبحت بلادنا

امرأة مباحةً

فألف تشكرون. . .

في مهرجان الشعر التاسع ببغداد ـ نيسان ١٩٦٩م ـ ألقى نزار قصيدته (إفادة في محكمة الشعر) وقد بدا أثر النكسة واضحاً فيها، ومنها:

لم نزل، لم نزل نمصمص قشراً وفلسطين خضبتها الدماء
لو ملكنا بقيةً من إباءٍ لانتخينا، لكننا جبناء

* * *

الفدائي وحده يكتب الشعر وكل الذي كتبناه هراء
عندما تبدأ البنادق بالعزف تموت القصائد العصماء

* * *

لو قرأنا التاريخ ما ضاعت القدس وضاعت من قبلها (الحمراء)

وما زال نزار يكتب عن حزيران وقلبه يقطر ألماً وجراحه تنزف، وفلسطين في وجدانه، وينطلق صوته هذه المرة من دمشق في مهرجان شعرها ك١ ١٩٧١م (من مفكرة عاشق دمشقي):

سقوا فلسطين أحلاماً ملونةً وأطعموها سخيف القول والخطبا
وخلّفوا القدس فوق الوحل عاريةً تبيح عزة نهديها لمن رغبا
أيا فلسطين. . . من يهديك زنبقةً؟ ومن يعيد لك البيت الذي خربا؟

ويقول في قصيدة (الخطاب):

كنت بعد الظهر في المقهى

وكان البهلوان

يلبس الطرطور بالرأس

ويلقي كلَّ (ما يطلبهُ المستمعون)

عن فلسطين التي صارت مع الأيام (ما يطلبهُ المستمعون)

واحتفالاً مثل عيد الفطرِ، والأضحى

أراجيحَ، وكعكاً، وفطائر

وزياراتِ مقابر

* * *

وتذكّرت فلسطينَ التي صارت حقيبةْ

ما لها في الأرض صاحب

كان في حنجرتي ملح،

وحزني كان في حجم الكواكب

خدّروني

بملايين الشعارات، فنمتْ

وأروني القدسَ في الحلم، ولم أجد القدس

ولا أحجارَها، حينَ استفقت

* * *

وفلسطينُ على الأرض حمامة

سقطت تحت نعال المخبرين

كنت وحدي

لم يزرني أحد في السجن، إلاّ

جبل الكرمل، والبحرُ، وشمس الناصرةْ

كنت وحدي

وملوكُ الشرق كانوا جثثاً

فوق مياه الذاكرةْ

* * *

أدخَلُوني لفلسطينَ

على أنغام (ما يطلبه المستمعون)

أدخلوني في دهاليز الجنون

فاعذروني، أيّها السّادة، إن كنت ضحكتْ

كان في ودّي أن أبكي، ولكنّي ضحكتْ...

وفي ذكرى نكسة حزيران الخامسة (١٩٧٢م) يكتب تحت عنوان (دعوةُ اصطياف للخامس من حزيران):

سنةٌ خامسة تأتي إلينا

حاملاً كيسك فوق الظهر... حافي القدمين

وعلى وجهك أحزان السماوات

وأوجاع الحسين

سنلاقيك على كلّ المطارات بباقات الزهور

وسنحسو ـ نخب تشريفك ـ أنهار الخمور

سنغنّيك أغانينا . . . ونُلقي

أكذب الأشعار ما بين يديك

وستعتاد علينا

مثلما اعتدنا عليك . . .

وبعد سنوات من الاحتراق البطيء يدبّ التفاؤل في كيان نزار، ويسعد ـ كما سعد العرب جميعاً ـ بانتصارات تشرين فيخاطب حبيبته/ وطنه و(ملاحظات في زمن الحب والحرب):

ألاحظتِ كيفَ اكتشفنا طفولَتنا

بعدَ ستٍّ سنين؟

وكيفَ رجعنا أخيراً لمملكةِ العشقِ والعاشقينْ

ألاحستِ مثلي . . . بأنَّ رجالَ المظلاّتِ كانوا

يحطّونَ مثل الحَمامِ على راحتَيْنا

وأنَّ جنودَ المغاويرِ كانوا يمرّون فوقَ عروقِ يدينا

ألاحظتِ كيفَ نثرنا عليهمْ

عقودَ البنفسجِ والياسمينْ؟

وكيف ركضنا إليهمْ

وكيف انحنَينا

أمامَ بنادقهمْ خاشعينْ

ألاحظتِ كيفَ ضحكنا

وكيف بكَينا

وكيفَ عبرنا الجسورَ معَ العابرينْ

وفي (الوصية) يرفض نزار ميراث أبيه، ويحرق رسم أسرته، والأبجدية لأن من فلسطين، ومن صمودها، ومن طلقات النار في جرودها، من قمحها المغموس بالدمع، ومن ورودها يصنع أبجدية! ويخاطب «طويل العمر» أن يخرج إلى الشارع ويقرأ عن السويس، والأردن، والجولان، والمدائن السبيّة، عن الذين يعبرون النهر نحو الضفة الغربيّة:

قم يا طويل العمر...

من حجرتك الوردية

وافتح شبابيكك

للشمس وللعدل وللرعيه

فما رآك الشعب من آخر أيام بني أميه

هل أنت حقاً من بني أميه؟

أخرج إلى الشارع يا أميرنا

واقرأ ولو صحيفة يوميه

اقرأ

عن الـسويس، والأردن، والجولان، والمدائن الـسبيه. . .

عن الذين يعبرون النهر نحو الضفة الغربيّه. . .

هل يا طويل العمر في بلاطكم

خريطة صغيره

للضفة الغربية؟

ونلاحظ، فيما أسلفنا، أن نزاراً عبّر عن النكسة وآثارها بشكل مباشر وغير مباشر وأتى شعره مسربلاً بظلالها، ومشرقاً بوأدها بانتصارات تشرين.

وفي (حوار مع عربي أضاع فرسه) يقول:

لـو يُكتـبُ فـي يافـا الليمـونُ لأرسـلَ آلافَ القُـبلاتْ

لـو أنَّ القـدسَ لهـا شـفةٌ لاختنقت في فمها الصلواتْ

ومـا تُجـدي (لـو أنَّ. . .) ونحـنُ نـسافرُ فـي المأساةْ

ونمـدُّ إلـى الأرضَ المحتلّـةْ حـبْلاً شـعريَّ الكلمـاتْ

ويحزّ في نفس نزار الألم، ويسربله الحزن عندما يحتل اليهود

القدس، وينتهكون حرماتها فيركع ويصلي ويبكي على أعتابها المقدسة:

يا قدس، يا مدينة الأحزان

يا دمعةً كبيرةً تجول في الأجفان

من يوقف العدوان؟

عليك، يا لؤلؤة الأديان

من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟

من ينقذ الإنجيل؟

من ينقذ القرآن؟

من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟

من ينقذ الإنسان؟

ويسارع نزار ليطلب من (شعراء الأرض المحتلة) أن يعلموه، وغيره من الكتّاب: كيف يحولون القلم إلى سكين والوردة إلى لغم محدداً رسالة الشعر وغايته:

ما عاد لأعصابي أعصاب

مازال دراويش الكلمة

في الشرق، يكشون حماماً

لو أن الشعراء لدينا، يقفون أمام قصائدكم

لبدوا أقزاماً. . . أقزاماً

ويؤكد نزار مراراً أن لا خلاص إلا بالمقاومة وكسر شوكة المعتدي، ويتجلى ذلك في ـ فتح :

جاءت إلينا (فتح)

كوردة جميلة طالعة من جرح

كنبع ماء بارد يروي صحارى ملح

وفجأة . . . ثرنا على أكفاننا، وقمنا . . .

وفجأة، كالسيد المسيح . . . بعد موتنا نهضنا

وفي ـ عرس الخيول الفلسطينية :

بشارع (فردانَ) كانتْ تموتُ الخيولُ الأصيلَهْ

وكان رجالُ السياسة في الـ (دولتشي فيتا)

يعيشونَ كالحَلَزُونِ الكَسُولِ على فَضَلات الجرائدْ

وكان رجالُ العقيدةِ يستشهدونَ بأفكار (ماوْ)

ويحترفونَ النضالَ على عُلَبِ (المالبورو) الفارغَهْ

وكان الجواسيسُ يصطحبونَ النساءَ علانيةً،

ويرتشفونَ نبيذَ البقاعِ . . .

ويستمتعونَ بشمس شواطئنا الساحرَهْ

وكانتْ فلسطينُ بين المحيط . . . وبين الخليجْ . . .

تُفَتِّشُ عن غرفةٍ شاغرَهْ . . .

وفي منشورات فدائية على جدران إسرائيل:

أنا الفلسطينيُّ

بعد رحلة الضَياع والـسَرَابْ

أطْلَعُ كالعُشْب من الخَرابْ

أُضيءُ كالبرق على وجوهكُمْ

أهطُلُ كالسَحَابْ

أطْلَعُ كلَّ ليلةٍ...

من فُسْحَة الدار... ومن مقابض الأبوابْ

من وَرَق التُوت... ومن شجيرة اللبلابْ...

من بِرْكة الماءِ...

ومن ثَرْثَرة المِزْرابْ...

أطلعُ من صوت أبي...

من وجه أُمّي، الطّيبِ، الجذّابْ

أطلَعُ من كُلّ العيون السُود... والأهدابْ

ومن شبابيك الحبيبات...

ومن رسائل الأحبابْ

أَطلعُ من رائحة التُرابْ

أفتحُ بابَ منزلي...

أَدْخُلُهُ. من غير أن أنتظرَ الجوابْ

لأنّني أنا السؤالُ والجَوَابْ. . .

وفي طريق واحد:

يا أيُّها الثُّوَّارْ. . .

في القدسِ، في الخليلِ، في بيسانَ، في الأغوارْ

في بيت لَحْمٍ. . .

حيثُ كنتُمْ أيُّها الأحرارْ. . .

تقدَّمُوا. . .

تقدَّمُوا. . .

فقصَّةُ السلام مسرحيَّهْ. . .

والعَدْلُ مسرحيَّهْ

إلى فلسطينَ طريقٌ واحدٌ

يمرُّ من فَوْهةِ بُنْدُقيَّهْ. . .

ويستفز الخذلان العربي وخنوع الحكام العرب واستسلامهم نزاراً فيتجه إلى الجيل الجديد، جيل أطفال الحجارة فيباهي بهم، ويعترف بالقصور أمام بطولاتهم فقد جسدوا له المثل الأعلى، فهم آباء للرجال يتعلمون منهم القتال والنضال، فحق لهم أن يخصهم بديوانه (ثلاثية أطفال الحجارة) الذين كتبوه هم بأصابعهم الصغيرة، النحيلة، الدامية:

. . . ولم أكتبها أنا

هم الذين كتبوا

وهم الذين ألفوا

وهم الذين نزفوا

وهم الذين أمروني، فأطعت

وحرضوني فصرخت . . .

فهم أسياد الكلمة، وهم من اخترعوا نوعاً جديداً من الكتابة بأحجارهم الصغيرة وحبرهم كان دماؤهم، وهم من قرروا حل مشاكلهم دون الاعتماد على (سادة الخطابة) وهم من غيّروا تضاريس القصيدة العربية ونقلوها (من الثلاجة إلى الفرن):

بَهرُوا الدُنْيَا . . .

وما في يَدِهِمْ إلا الحِجَارَةْ . . .

وأَضَاؤوا كالقناديلِ، وجاؤوا كالبشَارَةْ

قَاوَمُوا . . . وانفَجَرُوا . . . واسْتُشْهِدُوا . . .

وبقينا دُبَباً قُطْبِيَّةً

صُفِّحْت أجسادُها ضدَّ الحرارَةْ . . .

* * *

قَاتَلُوا عنَّا . . . إلى أن قُتِلُوا . . .

وجلـنا في مقاهينا . . . كبَصَّاقِ المَحَارَةْ

واحدٌ . . . يبحثُ منّا عن تجارَةْ . . .

واحدٌ . . . يطلبُ ملياراً جديداً . . .

وزَوَاجاً رابعاً . . .

ونُهُوداً صَقَلَتْهُنَّ الحَضَارَةْ . . .

واحدٌ . . . يبحثُ في لندنَ عن قصرٍ مُنيفِ

واحدٌ . . . يعملُ سِمْسَارَ سلاحٍ . . .

واحدٌ . . . يطلبُ في البارات ثارَةْ . . .

واحدٌ . . . يبحثُ عن عرشٍ، وجيشٍ، وإمارَةْ . . .

* * *

آهِ . . . يا جيلَ الخياناتِ . . .

ويا جيلَ العُمُولاتِ . . .

ويا جيلَ النِفَايَاتِ . . .

ويا جيلَ الدعارَةْ . . .

سوفَ يجتاحُكَ ـ مهما أبطأَ التاريخُ . . .

أطفالُ الحجارَةْ . . .

وفي (الغاضبون) يناشد نزار تلاميذ غزة أن يعلموا الرجال أن يكونوا رجالاً، وأن يعلموا الناس كيف يتشبثون بالأرض:

يا تلاميذ غزة

علمونا

بعض ما عندكم

فنحن نسينا

علمونا

بأن نكون رجالاً

فلدينا الرجال

صاروا عجينا

اضربوا

بكل قواكم

واحزموا أمركم

ولا تسألونا

علمونا

فن التشبث بالأرض

ولا تتركوا

المسيح حزينا

من شقوق الأرض الخراب

طلعتم

وزرعتم جراحنا

نسرينا

إن هذا العصر اليهودي

وهم

سوف ينهار

لو ملكنا اليقينا

وأخيراً، وكما لاحظنا: اتسم موقف نزار قباني نحو القضية الفلسطينية بالمبدئية، فلم يتغيّر موقفه مع تغير الأحداث أو تغير الظروف أو تغيّر الرهانات!

❐❐❐

بديع حقي
بين الدبلوماسية والأدب

بديع حقي
بين الدبلوماسية والأدب

منذ زيارتـه في العام ١٩٥٣م لقبيـة، في فلسطين، حمل الراحل بديع حقي (١٩٢٢ ـ ٢٠٠٠م) الهم الفلسطيني بين جوانحه، وما برحت فلسطين تلح في خاطره وتظهر في معظم إبداعاته القصصية والروائية بدءاً من (التراب الحزيـن) التي فـازت بجائزة الدولـة التقديرية عام ١٩٦١م مروراً بـ (حين يورق الحجر) التي أهداها للشاعرة فدوى طوقان فـ (قوس قزح فوق بيت ساحور) وغيرهـا. . . وينعكس ذلك، جلياً، في سيرته الذاتيـة التي كتبهـا بعد أن تخطى الستين من العمر فقد (جاذبـه الشعور الخائب المضني الذي ألمّ بطفل فلسطيني صادفتـه ذات مرة، في سوق العتيق، وهو يبكي بحرقـة لأنـه بحث عن قبر أمـه في المقبرة ولم يعثر عليـه) فقد (انسـاقت آلام فلسطين الموجعة كلها وسرت في صوت ذاك الطفل الفلسطيني اليتيم الذي ضاع منه وطنه كما ضاع قبر أمه).

في سيرته الذاتية، التي أسماها (الشجرة التي غرستها أمي) وهذا الكتاب ـ كما يقول بديع ـ هو أحبُّ مؤلّفاتي إلى نفسي وأقربُها إلى حنايا قلبي ومنازعه، لأنـه منوطٌ، موصولٌ بذكرى أمي رحمها الله، مستجلياً

ملامحها، مصوِّراً طبعَها، نافضاً خيوطاً من سيرتها، المواكبة لمنبلج طفولتي وعُفْرة صباي، من دون أيّ تزويقٍ أو تزيُّدٍ في الوصف والتحليل.

إنه يتراءى، من بين مؤلفاتي كلِّها، شمساً دافئةً، متألِّقةً بين جميع الكواكب التي تدور في مناطها من السماء، لتُريقَ على حياتي كلِّها، فيضاً من أشعّتها السابغة، السَّخية، حاسرةً عن بعض مغالقها وأسرارها الخفيّة، وكذلك جاء الكتاب مفتاحاً ضرورياً لفهم أدبي كلِّه، في مختلف أنماطه التي بدا فيها، بين شعرٍ أو قصّةٍ أو روايةٍ أو مقال.

يسرد أديبنا الراحل مذكراته، التي تلقي ـ من خلال صاحبها ـ أضواء على نصف قرن من تاريخ دمشق. وتبدو دمشق القديمة ببيوتها العريقة، وغوطتها الغناء، وبرداها الخالد، وعلاقات أهلها وناسها وسكانها، أثيرة تضج حيوية وتألقاً.

ويسحرك بديع حقي بأسلوبه الماتع وكلماته المنتقاة وجمله التي تحاكي الشعر عذوبة وأناقة... يتحدث عن العنادل، وطيور اليمام، وأشجار النارنج والكباد والرمان والجوز والتفاح والتين والمشمش والتوت الشامي والكرمة، وأزاهير الشمشير والشاب الظريف والفل والتمرحنة والياسمين العراتلي... ويصف، ببراعة مشهودة، حارات دمشق وأزقتها ودورها ودهاليزها... ويروي ما اختزنته ذاكرته من قصص وحكايات عن هذه المعالم وشموخها وعنفوانها، من خلال دخوله الكتّاب، واحتفال ختم القرآن، وحلقات المولوية، وأغنيات سيد درويش ومنيرة

المهديـة وفتحيـة أحمد وأم كلثوم وعبـد الوهـاب التي كان يصدح بها الفونوغراف، وما يدور في (استقبالات) أمه المؤنسة الممتعة . . . ويصل، عبر سيرتـه، الماضي بالحاضر والجهود المبذولـة للحفاظ على (سوق ساروجة) الحي الدمشقي العريق، استانبول الصغيرة، الذي زاره ـ بعد أن اضطر لبيع بيت العائلة الكائن فيه ـ غير مرة يعتصر فؤاده الأسى مشفقاً ومتسائلاً: ماذا أبقى الشارع الجديد من معالم الدار القديمة!.

كانت دار الطفل قائمة في سوق ساروجة، تمضي إليها، لتضرب في متاهة زقاق البرج ـ وهو زقاق ضيق متفرّع عن حارة قولي ـ حتى إذا أفضيت إلى الدار العربية الدمشقيّة، أستقبلك دهليز طويل، يسلّمك إلى فناء رحب، تمرح فيه شمس لعوبٌ، وتتوزّع حوله أربع حجرات مؤنسة، وتتخطّر في منسرح نظرك إليه، ساقيةٌ غنوجٌ، طالما مخرت فيها زوارق الطفل الورقيّة، وتقبع، هناك، في الزوايا الرطبة وأسفل الجدران، أصص الشمشير، والشـاب الظريف والفلّ والتمرحنّه، متجاوزةً منسّقةً، كأنّما قد صُفّت، ثمة، لتؤدي لك التحية، بزهرها المونق وأريجها العبيق. فإذا حلا لك أن تذهب إلى الحديقة، انحرفت إلى اليمين، ونفضـت عيناك شجيرات الياسمين عراتلي والياسمين الأبيض، تتسلّق الجدار الترابيّ، لتطرّزه وتوشّيه، وتتساقط زهراتها، إمّا داعبها النسيم، زهرةً إثر زهرة، أمنيةً بيضاءَ تلاحق أمنية، وتتلامح براعمها الغضّة، بين الفروع المتمايلة، كعيـون تتسارق النظر، ويترجرج بياضهـا خلف نقاب أخضر، وتومئ لك، وأنت تهمُّ أن تفضي إلى مربع الحديقة الخضراء، الشجرةُ الكبيرة

المنتصبة المرحِّبة: شجرة النارنج.

وكان لشجرة النارنج لِداتٌ من غير جنسها جاورتها وعاشت إلى جانبها أعواماً مديدةً، ومنها ما داهمه الجفاف، فشظف ورقه وغاض نسغه، فيبس وفارق مجائمه على الأرض، حطباً مقطَّعاً، ليلتقمه شدق الكانون الجائع المضرم.

كانت هناك شجرة التوت الشاميّ، وكانت شجرة وافرة العطاءِ، شهيَّةً بثمراتها الحمر، المطلَّة كثغور قرمزيَّة متحفِّزة للقبل، وكانت أم الطفل تؤمن بما يزعمه بائع التوت في ندائه المألوف:

ـ هادا يللي يروِّق الدم يا شامي، بالهنا والشفا يا شامي.

وكانت تعتصر ثمرات التوت الشامي، وتذيب رحيقها بالسكر، بمقادير معلومةٍ، ثم تبسط للسماء، العصير الأحمر المحلَّى، في قدور واسعة، أيَّاماً معدودة، لتنضِجَهُ الشمس وتمزجه بلعباها الحامي، حتى إذا رضيت عنه أم الطفل، حبسته في قوارير، تُفَضُّ بين الحين والحين، ليتهلَّل شراباً في الكؤوس، قانياً أحمر لا أرطب ولا أطيب، شراباً مشعشعاً يطفئ الظمأ ويروِّق الدم ويهب العافية.

وكثيراً ما كان الطفل يتسلَّق شجرة التوت الشاميّ، ليقطف ثمارها الناضجة، ويلتهمها في شراهة متَّصلة، ثم يهبط من الشجرة، وقد تلوَّن ثوبه وأنامله وفمه وخدَّاه برحيقها الأرجوانيّ، ويتراءى كهر غدار، قد افترس فوق الشجرة، عصفوراً غافلاً واصطبغت أطرافه بدمه الأحمر.

وتضحك الأم من منظر ابنها وتؤنّبه تأنيباً رفيقاً، على تعريض قنازه لحمرة التوت التي لا تزول.

وتظل ثمرات التوت في ذرى الغصون التي لا تنالها اليد، مقصورة على طير اليمام والعصافير والعنادل، تفزع إليها مناقيرها الرشيقة، وتنقرها لتتحدَّر منها قطراتٌ حمرٌ ممزوجةً بالنغم الطلّي.

نبغ بديع حقي، في البداية، شاعراً رمزياً يقرزم الشعر ـ كما يقول ـ ولعله أول من نظم الشعر الحر في سورية عندما نشرت له (الصباح) ١٩٤٣م قصيدة (الأرق) وأصدرت له في العام ١٩٥٣م مجلة الأديب ديوانه (سِحْر) وقد جسّد الراحل أدهم إسماعيل (قصيدة ثلوج) لأديبنا عبر لوحة فنية رائعة تحاكي الشعر حياة ورواء:

هرب الظلُّ، فالتوت رعدةٌ، وانهدَّ صمت، وغلغلت أصداءُ
من بياض الثلوج، تنثر أحلام عروس، وتنثر الأفياءُ
الفراشاتُ، أُنسيت عهدها الأبيض، فانهلَّت دمعةٌ خرساءُ
حطَّمت منها أجنحاً فتهاوت، وتلاشى نثيرها المعطاءُ
نصلت من إكليلها البكر ألوانٌ وغامتْ في بردها الأضواءُ
شاقها قطف ياسمينٍ تلوّى ودعتها تعلَّةٌ بيضاءُ
في بياض العيون غابت ثلوج وتهادى في زرقتيها الفضاءُ
والجبين النقي، أصفى من الحلم وأحلى، إن جاذبته السماءُ
وترامت ضفيرةٌ، ضحك الشيب، وجُنَّتْ، في فرقها، خيلاءُ

نسجت من شعورها البيض، أكفاناً، فأوهت خيوطَها الظلماءُ

من بياض الثلوج تنثر أحلام عروسٍ، وتثر الأفياءُ

ويستوقفك في سيرة بديع حقي مشهد غاية في الشفافية برع أديبنا في وصفه ورسمه، وذلك عندما زار المؤسسة العامة للتأمين والمعاشات، التي نهضت مكان دار العائلة القديمة، ولكن ما تزال معالمها ماثلة أمام عينيه: فهناك كانت البحرة اللاغية الهازجة، المنسابة في فناء الدار، وهنا كانت تنتصب شجرة النارنج التي غرستها أمي، عند زواجها، والتي جندلت واقتلعت. وههنا، حيث أقف أمام المصعد الكهربائي في بناء المؤسسة، كانت ـ على الأرجح ـ تنتصب شجرة الجوز السامقة. . . أنا الآن في الطابق الثالث لعلي أجلس حيثما كانت تمتد أغصان شجرة الجوز الباسقة فوق فروع ثلاثة، ملتفة موطئة لي مجلساً مريحاً، وأنا فتى غرير لأطالع في كتاب ألف ليلة وليلة أو سيرة عنترة أو تغريبة بني هلال. . .

وكما عكست بعض قصصه ورواياته الهم الفلسطيني فقد عكس بعضها الآخر واقعية الحياة وظروفها الصعبة. فقد كان يجتث صوراً حية كما في (أحلام على الرصيف المجروح) التي ينبعث منها دقات الفرشاة على ظهر الصندوق، صندوق ماسح الأحذية، وتلونها شيات من صباغ الأحذية. . .

وفي رواية (همسات العكازة المسكينة) رسم معاناته، ومعاناة آخرين في سجن القلعة، إثر اعتقالهم عام ١٩٣٦م بسبب اضراب الستين

يوماً، والمظاهرات التي خرجت ضد الفرنسيين، والتي ستبقى من ذكراها وللذكرى حصاة صغيرة شاء خياله الرومانتيكي أن يحتفظ بها في محفظته، ذكرى أول النضال.

وقد كسب الفتى (بديع) من سجنه، إلى جانب تجربته الخصبة هناك، إعجاباً من رفاقه في مدرسة عنبر، بث في أعطافه فخراً واعتزازاً...

وتترادف الأيّام، ويكبر الشاب، ليدخل في السلك الدبلوماسي بعد أن نال شهادة الحقوق، وتستبد به الغربة البعيدة، تتخللها حُرقُ الوداع، وأفراح اللقاء، ويغادر الشاب أمه وحديقته الممرعة الخضراء، ثم يتزوج ويكوّن أسرةً صغيرةً، ويشعر ذات يوم ـ وكان يعمل في استانبول قنصلاً عاماً لبلده ـ يشعر بكآبة مضنيةٍ تهصر قلبه، ليمضي مسرعاً إلى دمشق، مشوقاً إلى أمه، فيجدها مريضة على فراش الموت.

وإنه ليذكر كلماتها الأخيرة ترددها بصوتها الواني الخفيض، وهي ترامق ابنها بنظراتٍ غائمةٍ مودعةٍ، حين قبّل قدمها وغطّاها باللحاف:

ـ الله في السماء والعرش، يرضى عنك يا بديع.

كانت هذه الكلمات، آخر ما فاهت به شفتاها، ثم فاضت روحها الطاهرة.

وهناك، هناك، تحت شجرة النارنج التي غرستها أمه الحبيبة، كان يلوب على طيف أمه، يناجيه، يبكيه، ويبثّه لواعج حزنه وأساه.

لقد كان بديع حقي، رحمه الله، شاعراً وقاصاً وروائياً، وكاتباً مجيداً وناقداً يتذوق حروف كلماته في إطار ما أسماه مغامرته الإبداعية.

وكما قال الدكتور عبد السلام العجيلي: لقد غرست أم بديع شجرتين: شجرة نارنج، عرفتها في الأيام الفائتة وتفيأت ظلها ومتعت نظرها بخضرة أوراقها، والشجرة الثانية هي بديع نفسه، الذي غرسته أمه في أرض الوطن، وفي حديقة الأدب وروضة الفن من هذا الوطن.

وكما نعم بديع حقي بشجرة النارنج التي غرستها أمه ونسج حولها ذكرياته وأبدع في ظلها بواكير نتاجه ننعم ـ نحن ـ بما خلّفه لنا من إبداعات أصيلة نتفيأ ظلالها ونتنسم عبقها وأريجها:

هذه الإبداعات المزروعة في حديقة الأدب، نرى من المفيد رصدها وفق تسلسل صدورها زمنياً بما يوحي المقال والمآل: ففي العام ١٩٥٣م كانت مجموعته الشعرية (سحر) ثم ترجمته لـ (معطف) غوغول في العام ١٩٥٥م، وبعد سنوات ثلاث (١٩٥٨م) لـ (لوحته) ليصدر في العام ١٩٦١م مجموعته القصصية (التراب الحزين) التي نالت جائزة الدولة للقصة، وقررت في المناهج المدرسية الثانوية في الأعوام ما بين ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨م. ويتبعها في العام نفسه بترجمة (ولا تزال الشمس تشرق) لهمنغواي.

وفي العام ١٩٦٨م يصدر روايته، التي أهداها للشاعر ألبير أديب (جفون تسحق الصور) لتليها في العام ١٩٧٣م (أحلام على الرصيف

المجروح) التي أهداها للشاعر شوقي بغدادي في رده على رسالة له. . .

ويلتفت حقي في العام نفسه (١٩٧٣م) للدراسات فيصدر (قمم في الأدب العالمي) وفي الوقت عينه يتابع جهوده في الترجمة فيصدر (روائع طاغور في الشعر والمسرح) متضمنة ستة إبداعات في مجلد واحد. . .

ويغني في العام ١٩٧٦م المكتبة العربية بترجمة (قصائد مناضلة) لأحمد سيكوتوري.

وفي العام ١٩٨٠م يصدر د. بديع حقي مجموعته القصصية (حين تتمزق الظلال) التي صدّر كل واحدة منها بقول أو أكثر لمفكرين عالميين.

وبعد سنوات ست (١٩٨٦م) يصدر (همسات العكازة المسكينة) ثم يصدر في العام ١٩٩٠م (حين يورق الحجر) لتليها بعد سنوات ثلاث (قوس قزح فوق بيت ساحور). ويتوج إبداعاته في العام نفسه (١٩٩٣م) بأحب تآليفه إلى نفسه وقلبه (الشجرة التي غرستها أمي).

إن الإبداع الذي قدمه أديبنا الكبير، كما يقول عبد العني العطري، في شتى فنون الأدب طوال أكثر من نصف قرن بأسلوبه المميز ولغته الأنيقة المموسقة، وإحساسه المرهف، يؤهله للوقوف بين الأدباء العالميين، الذين تزهو بهم بلادهم، وتصفق لهم شعوبهم.



عبد الغني العطري
بين صباحه ودنياه

عبد الغني العطري
بين صباحه ودنياه

إن عمر (الصباح) كان شبيهاً بعمر الأزهار، فقد تآمر عليها الحاسدون، وعز عليهم نجاحها الكبير، فذبحوها وهي في ربيع العمر...

في صيف العام ١٩٤١م بدأت تنضج لدى العطري، وهو في الثانية والعشرين من العمر (١٩١٩ ـ ٢٠٠٣م)، فكرة إصدار مجلة. ولكن كيف يكون ذلك ولمّا يزل على مقاعد الدراسة، وكيف يمكنه الحصول على ترخيصها؟ ومن أين يوفر المال لذلك؟ ومن أين يأتي بخبرات الإدارة والطباعة والتوزيع؟ فلجأ ـ كما يقول ـ لتبسيط الأمور، وتصنيف المصاعب، بدأت برخصة المجلة، وهي أساس المشروع وعماده، ففي الوسط الصحفي عدد من امتيازات الصحف ينوء أصحابها بعبء إصدارها بسبب ظروف الحرب، وخشية إلغائها إذا ما استمر توقفها أكثر من ثلاثة أشهر فوقع اختياري على صاحب امتياز جريدة (الصباح) فرحّب ووقعت معه عقداً لمدة سنتين لقاء أجر شهري قدره خمس وعشرون ليرة سورية أما المال فقد استطعت تأمينه من مصروفي، ومن بعض الأهل نحو مئتي

ليرة سورية، وهـذا المبلغ يكفي لإصـدار عدة أعداد ريثما تنفق المجلة من دخلهـا. وبعـد الاستعانة ببعض من أعرف مـن العاملين في مجال الطباعـة وإدارة العمل الصحفي أصبح مشروع المجلة جاهـزاً للتنفيذ. وفي مرحلة التحضير لإصـدار (الصـباح) وتنسيق أبوابها ومادتها، واختيار كتّابهـا استعنت بصديقي نزيـه الحكيم، واستعنا بمجموعة من الأدبـاء الشباب يومئذ: فؤاد الشايب، نسيب الاختيار، زكي المحاسني، هشام دياب، محمد روحي فيصل، خليل هنداوي، وغيرهم... ومن مصر محمود تيمور، ومن لبنان خليل تقـي الدين... فاستطاعت (الصـباح) أن تشق طريقها بعزم وثبات في أشد أيام الحرب العالمية حلكة وظلاماً. وكان عددها الأول قد صدر في السادس من تشرين الأول عام ١٩٤١م واستمرت بالصدور المنتظم عامين كاملين. ظهر على صفحاتها، إضافة لمن ذكرنا: نزار قباني، عبد السلام العجيلي، سهيل ادريس، بديع حقي، خليل مردم بك، عدنان مردم بك، سعد صائب، يحيى الشهابي، محمد البزم، زكي المحاسني، وداد سكاكيني، الصافي النجفي، محمد الفراتي، وغيرهم...

وأقامـت (الصباح) أول مسابقـة للقصـة في سوريـة فاز بجائزتها الأولى، خمسون ليرة سورية، عبد السلام العجيلي، وكانت الثانية من نصيب عزيز بشور، أما الثالثة ففاز بها بديع حقي.

وللأسف، و(الصباح) في أوج تألقها وانتصاراتها الأدبية كان عدد مـن الحاسدين والحاقدين يخططون لاغتيالهـا وذبحهـا فأوغروا صـدر

صاحبها ـ كما يقول العطري ـ وزعموا له أني أصبحت أربح من المجلة كثيراً ولا أعطيه سوى القليل فرفض تجديد العقد!

يقول هاشم عثمان[1]: . . . كان شهور (الصباح) حدثاً في الصحافة الأدبية والفكرية. . . وكان توقفها عن الصدور خسارة كبيرة لا تعوض.

لعبت الصباح دوراً كبيراً في نشر الثقافة الراقية، وأدق تصوير لها ما قاله منير الحمامي: عكست للملأ أشعة الهدى والثقافة ولمعات من غرر الأدب والعلم.

وهكذا انهار الحلم المجنح، وانهار البناء الشامخ الذي شيّده العطري بالسهر والعرق والدموع. . . ووافق العطري على رئاسة تحرير جريدة (الأخبار) واستطاع النهوض بها وجعلها تقف في الصف الأول من الصحف، وباتت مقروءة، بعد أن أدخل عليها أبواباً، وزوايا، وتحقيقات طريفة، لكنها لم تستطع ـ كما يقول العطري ـ أن تقف بين كبريات الصحف بسبب إصرار صاحبها على عدم دفع رواتب وتكاليف إضافية!

كان صدور (الدنيا) فتحاً جديداً في الصحافة السورية. فقد استطعت أن ادخل عليها الطباعة الملونة، والمادة الطريفة، والإخراج الجيد. . .

مستفيداً من نصيبه في بعض إرث والده، قرر العطري إنشاء مجلة

---

(١) الصحافة السورية، ماضيها وحاضرها ١٨٧٧ ـ ١٩٧٠م.

خاصة به لا مستأجرة فاشترى من المرحوم محمد الدالاتي جريدة (الوطن) التي كانت تصدر بشكل متقطع وهزيل، بمئة ليرة ذهبية إنكليزية، وسمّاها (الدنيا) لينسجم مع لونها الجديد: أسبوعية ـ مصورة ـ جامعة.

وفي السابع عشر من آذار عام ١٩٤٥م، والحرب ما تزال مشتعلة، وأسعار الورق ملتهبة، وتكاليف الطباعة مذهلة صدر العدد الأول من (الدنيا).

وكان صدورها فتحاً جديداً في الصحافة السورية فقد استطاع العطري أن يدخل عليها الطباعة الملونة، والمادة الطريفة، والإخراج الجيد، وكانت تكاليف النسخة الواحدة منها أضعاف مردودها فوقعت المجلة في عجز مالي، وأخذت تتعثر في مواعيد الصدور لسنوات ثلاث تقريباً، ولما حاولت أن تقيل عثراتها أوائل العام ١٩٤٩م أوشك حسني الزعيم أن يلغي امتيازها في إطار إلغاء امتيازات معظم الجرائد والمجلات السورية لولا تدخل أحد مستشاريه علي بوظو، صديق العطري، والحيلولة دون ذلك.

وهكذا نجت (الدنيا) من كارثة الإلغاء وأصبحت في تلك المرحلة ـ كما يقول العطري ـ المجلة الوحيدة في سورية، بالإضافة إلى (المضحك المبكي).

بعد إدخال أبواب جديدة، واستكتاب أقلام متمرسة في المجلة

قفزت المبيعات، وتضاعف الانتشار، وصارت (الدنيا) المجلة التي تدخل كل بيت، وتصل إلى كل مدينة وقرية سورية، وكانت توزع في العراق والأردن ولبنان وبعض البلاد الأوروبية. . . وباتت لها ـ أيضاً ـ مطابع خاصة مقابل مكاتبها استطاع العطري أن يشتريها بالتقسيط.

ولا ريب أن النجاح المذهل الذي حققته (الدنيا) دفع ثمنه العطري من صحته وشبابه، يقول: . . . كنت ليلة صدور العدد الجديد أقضي الليل كله متنقلاً بين مكاتب المجلة ومطابعها، أرقب سير العمل ساعة بعد أخرى، خشية أن يستغل بعض العمال فرصة غيابي، فيتقاعس في العمل، ويكون سبباً في تأخر صدور العدد ساعة أو ساعتين! وقد تعلمت ـ يضيف ـ أن المجلة الأسبوعية لا حق لها في الغياب أو العطلة، مهما كانت الأسباب والظروف. . .

وقد أصدرت المجلة أعداداً خاصة وممتازة عن: الحظ، الفن والجمال، الربيع والصيف، الشتاء، الحب، العيد، رفّه عن نفسك، الشباب، فلسطين، الصحافة، وغير ذلك من الموضوعات التي تهم القارئ وتثير اهتمامه. . .

كما أصدرت في العام ١٩٥٣م سلسلة كتب تحمل عنوان (كتاب الشهر) الذي كان يتناول بالترجمة والتلخيص واحداً من أحدث وأطرف الكتب التي تصدر في العالم. . .

وظلت (الدنيا) تزداد تألقاً وانتشاراً حتى قيام الوحدة السورية ـ

المصرية، عندما تم تصفية الصحف والمجلات السورية! ثم عاودت صدورها لحين ٨ آذار ١٩٦٣م.

وقد استقطبت (الدنيا) و(الدنيا الجديدة) أقلاماً في الشعر، والدراسة الأدبية، والنقد، والحوارات، والخواطر، . . . وغير ذلك نذكّر ببعضهم: زكي المبارك، عدنان الخطيب، بديع حقي، مراد السباعي، أحمد عويدات، غسان العائدي، عباس الحامض، سلمى الحفار، عبد الحكيم الدعاس، عبد المحسن القصاب، أنور الجندي، يوسف أحمد محمود، قمر لحام، عبد الغفور خريط، محمود عيسى، يحيى الشهابي، عبده مسوح، سعيد جزائري، ممتاز الركابي، علي الفراتي، أحمد الجندي، عايدة محرم، نسيب الاختيار، عبد الرحمن أبو قوس، أحمد علي حسن، صبري القباني، أمين الخالد، شوقي بغدادي، يعقوب سليم سيده، كمال فوزي (الشرابي)، توفيق الحكيم، عبد السلام العجيلي، سعد صائب، غانم النقاش، محمد حاج حسين، عادل البكري، عبدالله الثبلي، علي كنعان، محمد التونجي، أحمد نزار صالح، سهام الكيالي، أحمد الصافي النجفي، إبراهيم مرجانة، مصطفى هلال، محمود كلزي، محمد فاروق شريفة، نشأت التغلبي، محمد صبحي أبو غنيمة، حسن الحكيم، أمين نخلة، نصوح بابيل، غادة السمان، زكي المحاسني، وداد سكاكيني، محمد روحي فيصل، عادل قزيها، كوليت الخوري، نزار مؤيد العظم، عبد اللطيف يونس، ياسين رفاعية، اسكندر لوقا، نجاة قصاب حسن، نزار قباني، محمد الفرحاني، وجيه بيضون، قمر

كيلاني، كمال أبو ديب، وليد مدفعي، زهير ماردیني، عبد الحميد العلبي، الياس خريستو، محمد حاج حسين، سليم نظام الدين، صابر فلحوط، لوقا جميل لوقا، غازي الخالدي، فريال بعيرة، ليلى اليافي، عبد القادر عياش، خالد قطمة، نبيه الشعار، عدنان طه، . . .

وسهيل زنتوت، الشاعر الفلسطيني الذي التقى العطري في أحد مقاهي دمشق، فوجده منهمكاً (ببرتية طاولة) فقال:

أخـــي يـــا صـــاحب «الـــدنيا»

بربـــــك مـــــن يجافيهـــــا؟

أطاولـــــة أعـــــز عليـــــك

مـــن «الـــدنيا» ومـــا فيهـــا

أم النـــــرد الـــــذي تهـــــوا

ه أبهـــــى مـــــن مجاليهـــــا

لقـــد كـــذب الألـــى قـــالوا

«محاســـــنها مـــــساويها»

فمـــا الـــدنيا ســـوى أفعـــى

تعـــادي مـــن يعاديهـــا

إذن هيـــا بنـــا هيـــا

إلـــى الـــدنيا نوافيهـــا

فـــــإن تغـــــدر بنـــــا نقلـــــب

أســـــــــافلها أعاليهـــــــــا

وإن بـــــــرت بنـــــا نحمـــــــد

علـــــــى ســـــــعة أياديهـــــــا

ولكـــــــن أننـــــــي أخـــــــشى

علينـــــــا مـــــــن أهاليهـــــــا

فمـــــا ســـــاروا علـــــى ســـــنن

ســـــــواء فـــــــي نواحيهـــــــا

ويعد ثلاث سنوات ونصف من توقيفها، عادت (الدنيا) إلى الدنيا كما يقول العطري: بعد ١٨٢ أسبوعاً من التوقيف القسري، والاضطهاد المشين... عادت لتفقأ حصرماً في عيون من أرادوا لها الموت ولرسالتها الفناء. كان الحق أقوى من باطلهم، فزالت عروشها الكرتونية، وعادت (الدنيا) رافعة الرأس، نقية الجبين موفورة الكرامة.

وقد ابتهج كثيرون بعودتها، ومنهم غازي الجندلي، عندما قال:

ـ العود أحمد ـ، مرحبا... من مهجتي

أهـــــلا بـــــأغلى أمنيـــــات أحبتـــــي

أهـــــلا (بـــــدنيا) لا حـــــدود تحـــــدها

أهـــــلا بعـــــشاق الجمـــــال، بـــــإخوتي

أهـــلا بمدرســـتي التـــي أحبتهـــا . . .

فـي فجـر عمـري، فـي ربيـع قـصيدتي

الحـــرف يـــشرق صـــادقاً . . . مترفعـــا

والحـــرف يـــشمخ بالوفـــا، والعـــزة

(أســـاتذتي) للفكـــر عنـــدك حرمـــة

فتقبلـــي منـــي جميـــل تحيتـــي

(دنيـاي) أهـلا . . . مـن محـب صـادق

حفـــظ المـــودة، فـــاهنئي بمـــودتي

وغـــدا ســـيمرح فـــي رحابـــك شـــاعر

شـــق الطريـــق . . . بـــرغم أنـــف أعنـــت

* * *

. . . ولـو تصعلكت، أنـا وغيـري من حملة الأقلام، ومارسـنا التهريج، لكنـا من أصحاب الثروات، ولكنني آثرت العمل في خدمة الغد، وتوعية الأذهان. . . من أجل ذلك دخلت السجون مرات. . .

رغم أن مرسوم تصفية الصحف الصغيرة وضرورة دفع تعويضات لأصحابها الذي أصدره الرئيس جمال عبد الناصر، بوحي من عبد الحميد السراج، منح حق الاختيـار لمن يرغـب، ولم يرغم أحداً من أصحاب الصحف على التنـازل غيـر أن السراج جعل من الاختيـار ارغاماً، أما

أنـا ـ يقول العطري ـ فرفضت التنـازل بإصرار، وأكدت للمسؤولين في مديرية الدعايـة والأنباء أن مرسوم تصفية الصحف والمجلات واضح، وهـو لا يرغم أحداً على التنازل، بل يعطيـه حق الاختيار، وأنا أرفض التنـازل بأي ثمـن، وكيـف اتنـازل عن مجلتـي، وقـد اسستها بالعرق والدموع، وبـذلت فيهـا صحتي وشبابي؟ وحاول العاملون في مديرية الدعاية إقناعي، ترغيباً وترهيباً، وتوسطوا صديقي الأثير عباس الحامض ـ نقيب المحررين ـ فأكـد لي بعدم جدوى المقاومـة، ولاسيما في جو الإرهاب الذي كنا نعيشه، وقدم إلي ـ أخيراً ـ ورقة التنازل فوقعتها والدمع يكاد أن يخنقني!

بعد توقيف (الدنيا) في شباط ١٩٥٩م باتت مطابعها الضخمة عبئاً ثقيلاً على العطري، لم يعد لها عمل يغطي نفقاتها، ولم يعد قادراً على دفع رواتب عمالها الكثر فصرفهم، وباع آلاتها بسعر الحديد.

اضطر العطري أن يبحث عن عمل أو وظيفة، ولكن السراج ـ كما يقول ـ كان لي بالمرصاد ودائماً، يسد كل باب أطرقه، وينذر كل صحيفة بالإغلاق إذا فكرت بالتعـاون معـي... وذات مـرة ـ يضيف ـ حاولت الالتحاق بوظيفة متواضعة، وحيـن علم السراج بـذلك استعمل نفـوذه وحجب الوظيفة عني، وقال: لا يزال عنده سيارة فورد أمريكية، ومتى باعها وأنفق ثمنها، فسـأفكر بالسماح له بالعمل في إحدى الوظائف!

تجدر الإشارة إلى أن سبب العداوة بين العطري والسراج يعود ـ كما يقول العطري ـ للمذكرات والمعلومات التي نشرها في (الدنيا) الدكتور

صبري القباني، بغير اسمه الصريح عن مرحلة شهر العسل بين حسني الزعيم وأنطون سعادة، قبل تسليمه للأمن اللبناني. وصلته الوثيقة ـ أي العطري ـ بأركان الحزب، والمقالات التي توضح مبادئ الحزب وأهدافه. فتذرع السراج بمقال نشرته مركزاً هجومي يومئذ على الأستاذ أحمد قنبر، وزير الداخلية المستاء أصلاً من ممارسات السراج بالتضييق على الصحافة والصحفيين لم يعجبه فاعتقلني وألقى بي في سجن المزة ليصيب عصفورين بحجر واحد: السخرية من تصريح وزير الداخلية الذي يؤكد فيه على حرية المواطن، والانتقام من صحفي (وقح!)...

ويسهب العطري في (اعترافات شامي عتيق) في تفاصيل هذه الواقعة التي أوشكت الوزارة أن تستقيل بسببها...

في موقف ثان، يقول العطري: حمل إلي أحد الكتّاب مقالاً مترجماً نشرته إحدى المجلات الأمريكية، وهو يتضمن معلومات وأرقاماً عن تسلح إسرائيل، والمساعدات العسكرية التي تغدقها أميركا على دولة الأعداء. اعتبرت نشر هذه الأرقام، وكشف هذه الحقائق والمعلومات للعرب والمسؤولين العرب خدمة وطنية كبرى، وواجباً قومياً مقدساً، وقرعاً لناقوس الخطر. ولكن السراج أراد أن يعتبر نشر هذه الحقائق والأرقام «خيانة عظمى» يستحق فاعلها الإعدام، أو السجن المؤبد على الأقل! فبعث بكتاب رسمي إلى النيابة العامة طلب فيه تقديم المجلة وصاحبها إلى المحاكمة بهذه التهمة الرهيبة... وأدركت المحكمة ـ يومئذ ـ مبلغ الافتراء، والظلم، والتجني على الحقيقة لمّا تبين لها أن

المجلة الأميركية وصلت مديرية الدعاية والأنباء وأجازت دخولها وتوزيعها رسمياً . . .

وانتقاماً لخذلانه مرتين عمد السراج ـ بعد ذلك ـ بوسائله ونفوذه عرقلة طباعة أحد أغلفة المجلة بالألوان، فاكتشفت اللعبة ـ يقول العطري ـ وسارعت لطباعته بالأسود والأبيض وإصدار العدد بموعده!

أيضاً، حاول السراج مصادرة البريد الخارجي للمجلة وألحق بالمجلة خسائر فادحة!

ومن حكايات العطري والسراج حكاية الدب الروسي، فقد أنجبت إحدى الدببة العاملة في السيرك الروسي القادم إلى دمشق في العام ١٩٥٨م توءمين، أطلق مدير السيرك على أحدهما (محمد) وعلى الآخر (عزيز) دون حياء أو خجل، أو مراعاة لشعور المسلمين في بلادهم. فنشرت ـ يقول العطري ـ وقائع المؤتمر الصحفي لإطلاق السيرك، وأقوال رجال الدين تحت عنوان: دب روسي اسمه محمد!! وما إن صدر العدد ووزع في الأسواق حتى صدرت أوامر السراج بمصادرة المجلة واعتقالي، ووضعي في سجن القلعة مع كاتب التحقيق راتب الرواس نهارين وليلتين، ثم إحالتي لقاضي التحقيق بتهمة الافتراء والكذب وتحريض الرأي العام بما نشرته من (أكاذيب) حول موضوع الدب الروسي! فأثبت براءتي بشاهدين ممن حضروا المؤتمر كما طلب القاضي صلاح الدين الشاش. فاغتاظ السراج ـ بالطبع ـ لهذه النتيجة وأمر أن تصادر أعداد المجلة في كل مرة وهي على وشك التوزيع . . .

لم تجدِ رسالتي إلى الرئيس جمال عبد الناصر احيطه علماً بتفاصيل ما نشرت، وما أقدم عليه السراج من إجراءات تعسفية ظالمة، ولم تحقق زيارتي لمحمود رياض، السفير المصري السابق. فتراكمت الخسائر، وصارت المجلة تخسر كثيراً بعد أن كانت مزدهرة، فاقترح علي بعض الأصدقاء أن أقابل السراج، وأطلب وضع حد لهذه المعاملة، وقالوا إن الشكوى إليه خير من تكرار الشكوى عليه. وذهبت إلى مكتبه فالتقيت صدفة بالصديق القديم وزميل الدراسة في الكلية العلمية الوطنية العقيد تاج الدين خالد بك، فنصحني ـ بعد أن عرف سبب الزيارة ـ ألا أقابل السراج، وتعهد بإنهاء الموضوع لمصلحتي فوراً. وأبلغني ـ بعد ربع ساعة ـ بإلغاء جميع الإجراءات ضد المجلة لتستأنف صدورها النظامي في الثاني والعشرين من آب ١٩٥٨م...

ورغم كل ما حصل، يقول العطري: أحسب أني خرجت مرفوع الرأس، ناصع الجبين، مرتاح الضمير، لأني أؤمن بأن الحياة كفاح، وأن على الإنسان ـ كما يقول شوقي ـ أن يقف دون رأيه مدافعاً عنه، لأن الحياة عقيدة وجهاد...

❐❐❐

سلمى الحفار الكزبري
سفيرة الثقافة

سلمى الحفار الكزبري
سفيرة الثقافة

كم من مرةٍ يا دمشقُ نهب الطامعون كنوزك

وأحرقوا ـ حسداً منك ـ أوابدك :

وكم من مرةٍ يا دمشق، غدروا بك وأنت الواثقةُ المطمئنة

بيدَ أنكِ، وأنت المباركة الباسلةُ، صمدت لهم . . .

صمدتِ في وجه الغزاة، فضربتِ المثل في الإباء

ثم، ما فتئتِ أن عوّضتِ عن كنوزك، وثرواتك، وكبريائك بفضل همم أبنائِكِ وسواعدهم

أبنائِكِ ذوي الأفئدة المفعمة بالرجاء

* * *

ايه يا دمشقُ . . . إن نأيت عنك تضيق أنفاسي!

فكأن روحي تنساب من جسدي وحواسّي

ايهِ يا قاسيونُ . . . إن بعدتُ عنكَ شعرتُ باليتم

ايهِ بردى . . . إن غبتُ عنك تخور عزيمتي

ايهِ دمشق. . . إن تواريتُ عن مآذِنك تغدو الليالي قارسةً

وإن بارحتُ رياضَك الواسعةَ، فإن الرياضَ تفقد نكْهتها

وإن توليتُ عن سمائك، فإن البراري تخلو من حنانها وبهائها. . .

هـذا مقطع ترجمـة الأديـب سعد صائب عن الفرنسية من إحدى قصـائـد سلمى في مجموعتهـا (نفحات الأمس) الصادرة في باريس في العام ١٩٦٦م، والتـي كتـب مقدمتهـا (روجيـه لوكـان) واصفاً شعرها بأنـه «شعر إنسانـة مفتونة بالحياة، متقدة بالحيوية والنشاط، وبأنه شعر شاعرة في ربيع الحياة، شعر موسيقي يمتاز بطابع غنائي، قلّما نجده عند امرأة».

وكانت قـد أصدرت، شعراً، بالفرنسية أيضاً، في الأرجنتين قبله عام ١٩٥٨م: الوردة المنفردة (الوحيدة) وبعدهما (بوح) في العام ١٩٩٣م بدمشق، و(عشية الرحيل) في العام ١٩٩٤م بالاسـبانية.

وتبـدو سلمى في شعرهـا متأثـرة[١] بشعـراء القـرن التاسـع عشر الفرنسيين إبان وجودها تلميذة في معهد الفرنسيسكان، وقصائدها وجدانية وطنية أصّلها إتقانها للغة الفرنسية.

وقد وصف العطري[٢] شعرها بأنه نوع من الموسيقا الشفافة العذبة.

---

(١) وهبـه، محمـد محمـد بـدوي، أديبـات معاصرات ـ المنـارة ـ بيروت ط١ ١٩٩٦م.

(٢) العطري، عبد الغني، عبقريات، دار البشائر ـ دمشق ط١ ١٩٩٧م.

أما هي فتقول[1]: أحببت الشعر الفرنسي منذ بداية عهدي بمعرفته لعدة أسباب: منها سهولة بيانه، وعذوبة ألفاظه، ورقة موسيقاه التي تنبعث في جرس اللغة ذاتها. كما كنا ـ رفيقاتي وأنا ـ شغفنا به لبساطة معانيه العاطفية التي كانت تؤثر فينا، وتنفذ إلى أعماقنا فتهزنا وتحفزنا على حفظه، ومحاكاته أحياناً. . .

في حي الشاغور بدمشق أبصرت سلمى النور في الأول من أيار من العام ١٩٢٣م في أسرة محافظة منعمة لأبوين فاضلين، فوالدها لطفي الوطني المعروف، ووالدتها ابنة عبدالله السقطي وحفيدة الشيخ بكري العطار.

في العام ١٩٢٦م، وهي في الرابعة من عمرها رافقت والدها المنفي بفعل الانتداب الفرنسي، إلى لبنان، وتعلّمت القراءة والكتابة على يديه وصديقيه فارس الخوري وحسني البرازي.

وفي العام ١٩٢٨م عاد الجميع إلى سورية فتعلمت القرآن الكريم على يدي الشيخة عائشة في حي الشاغور، مسقط رأسها، قبل انتقالها في التاسعة من عمرها إلى معهد الفرنسيسكان (دار السلام) الذي قضت فيه تسع سنوات أتقنت خلالها الفرنسية والايطالية وبعض الإنكليزية، ثم درست الأدب العربي على يد أساتذة مختصين. ودرست ـ من بعد ـ الحقوق السياسية بالمراسلة مع الجامعة اليسوعية في بيروت.

---

(١) نويهض، ناديا الجردي، نساء من بلادي، دار الحداثة ـ بيروت ط١ ٢٠٠٠م.

في العام ١٩٤١م تزوجت من محمد كرامي، شقيق عبد الحميد كرامي، وأنجبا (نزيه).

في العام ١٩٤٣م الذي فقد والده، متأثراً بمحاولة اغتيال، ولمّا يبلغ الشهرين من عمره. فكان مصاباً أليماً جهدت سلمى وكابدت وراحت تعكف، بمزيد من الشغف، على الدرس والمطالعة ومتابعة التحصيل بمساعدة أبو الخير القواص...

تزوجت، ثانية، في العام ١٩٤٨م من الأستاذ الجامعي الدكتور نادر الكزبري وانجبا ندى ١٩٥١م ورشا ١٩٥٢م.

أفادت سلمى من الجو المعرفي الذي نشأت وترعرعت فيه، كما أفادت من أسفارها ومرافقة زوجها السفير إلى الأرجنتين وتشيلي واسبانيا فتعرّفت على الشعوب، وحضاراتها وعاداتها وتقاليدها، وأضافت إلى اللغات التي تعلمتها، إضافة للغتها الأم، اللغة الاسبانية، ما انعكس على إبداعاتها وكتاباتها... ومن يتتبع حياتها الأدبية ـ خارج سورية ـ يقف على الدور المميز الذي قامت به. فكانت بحق، سفيرة الثقافة السورية، تعرّف بحضارتها وتاريخها وأدبائها وشعرائها... ولاسيما في مجال الأندلسيات...

في بداياتها الإبداعية كتبت المقالة في العديد من المجلات، وكانت أول مقالاتها بعنوان: كيف يجب أن نستفيد من الزمن؟ في مجلة الأحد الدمشقية، ونشرت ـ أيضاً ـ في مجلة صوت المرأة (بيروت) وسواهما...

وكانت ـ إلى اهتماماتها الأدبية ـ تشارك في نشاطات اجتماعية لافتة فقد أسهمت ـ مع أخريات ـ في تأسيس (جمعية المبرة النسائية) بدمشق في العام ١٩٤٥م.

وفي العام ١٩٦٠م نزلت سيدة المجتمع الراقي إلى ميدان العمل الحر، واستطاعت التوفيق بين عملها كأديبة، وربة منزل، وصاحبة دار للأزياء. فكانت (بوكيه) أول دار للأزياء النسائية في دمشق. مؤكدة[١]: أن التنظيم أساس كل نجاح في الحياة. فأنا أوزع وقتي بين تدريس الأولاد، واستقبال الزوار، والكتابة. أحب العمل ليلاً وأسهر حتى ساعة متأخرة، وأحياناً اغتنم الفرصة في المشغل فأكتب، وقد استيقظ باكراً لاستئناف ما بدأت به ليلاً، وبالإجمال ليس للكتابة وقت معين...

ـ يوميات هالة وقد أهدتها (إلى روح الزعيم سعد الله الجابري) وتعالج من خلالها مشكلة الحجاب والسفور وزواج المصلحة وزواج العادة، ونضال والدها أيضاً.

صدرت في عام ١٩٥٠م ويجمع مؤرخو الأدب والنقاد أنها الرواية النسائية الأولى في سورية.

تعتمد[٢] «يوميات هالة» على أسلوب المذكرات، فهي يوميات

---

(١) في حوار أجراه عيسى فتوح، نشرته مجلة (دنيا المرأة) اللبنانية حزيران ١٩٦١م.

(٢) ضويحي، هيام، الرواية النسائية في سورية ـ ط٢ ١٩٩٣م دمشق.

من حياة فتاة أرستقراطية مترفة، تتحدث عن وسطها الاجتماعي ونشأتها وتربيتها، وتصف مجريات الأحداث حولها.

تبدأ بالحديث عن طفولتها في السابعة من عمرها عام ١٩٤٠م، وتقدم مشاهد مختلفة عائلية واجتماعية عن مدرستها وتعلمها وإتقانها اللغة العربية والفرنسية، وتقدم مشاهد عن مجالس والدها ذي المرتبة الاجتماعية البارزة، إلى أن تتحدث عن زواجها، ولا تنسى أن تذكر لمحات عن احتفائها وأهلها بنباهتها وبمواهبها الثقافية والشعرية.

والدها هو: (لطفي الحفار) أحد أعضاء الكتلة الوطنية الذين تسلموا رئاسة مجلس الوزراء وقتها. وقد أوردت سلمى الحفار في هذه المذكرات الكثير من المشاهد عنه، والمكائد التي دبرت له، والاتهامات التي ألصقت به، مما اضطره للهجرة. ومن ثم عودته إلى البلاد مما يدخل في الإطار الذاتي العائلي أي ما يختص بسيرة العائلة. بالإضافة إلى ذلك تحدثت عن الكثير من الشخصيات الوطنية مثل خليل مردم بك الشاعر السوري، وفارس الخوري رجل السياسة الذي تسلم عدة مناصب في السلك الداخلي والخارجي للسلطة، وفوزي الغزي أحد أقطاب السياسة أيام الانتداب الفرنسي على سورية، وبدوي الجبل الشاعر السوري المجيد الذي كتب الأشعار القومية وشارك في الثورة السورية... وغيرهم. وكانوا كما تقول قد عملوا لتحقيق الاستقلال من الاستعمار الفرنسي.

ومثلما ذكرت الدسائس الأجنبية حول والدها الذي اضطر للسفر إلى العراق. فإنها تذكر أيضاً تشجيع هؤلاء الأصدقاء والشعراء

والمفكرين لها وخاصة (بدوي الجبل) الذين شجعوها على قول الشعر ونظم القصائد. وهي تدخل مع والدها وأصدقائه في نقاشات حول بعض المسائل السياسية.

كما أنها تتحدث عن حبها لوالدها، والذي تعتبره المثل الأعلى وتهاجم خصومه. كل ذلك إلى جانب الحديث عن وقائع من حياتها الخاصة، ومشاركتها في الحفلات والمناسبات الاجتماعية.

إن (هالة) بطلة الرواية تتميز منذ صغرها بذكائها وفطنتها وحبها للشعر. وقد نالت أكثر من كتاب شكر لنبوغها الثقافي والشعري وكانت تقرض الشعر وتطلع الأصدقاء والأهل عليه. كما أنها عاشت أياماً حلوة ومرة، هي الأيام التي مرت على والدها مما هو باستمرار حديث عن أشياء شخصية، ذاتية، من سيرتها وسيرة والدها وأهلها.

الرواية على هذا هي عمل رومنتي، ذاتي، حاولت المؤلفة أن تبرزه بثوب روائي، ولكنه ظل سيرة ذاتية صريحة بعيدة عن الفن الروائي بالمعنى الصحيح، وأما ربط الأحداث بالزمان والمكان فإنه لم يخدم هذا العمل بل يؤكد نوعيته المتميزة عن الرواية، والتي عادة تكون لها عوالمها الخاصة وشخصياتها الخاصة وتواريخها الخاصة أيضاً. ويمكن أن يصح تسمية «يوميات هالة» ببساطة مذكرات كما هي في الجوهر. وهي تندرج تحت تسمية الأسلوبية التعليمية من حيث اتجاهها.

ـ وفي العام ١٩٥٢م أصدرت مجموعة قصصية بعنوان (حرمان)

أتبعتها في العام ١٩٥٥ بقصص[١] وحكايات بعنوان: (زوايا) أهدتها لجدتها (الجميلة في شبابها وشيبها، في خلقها وخلقها... التي ساهرتني وسامرتني في ليالي طفولتي الحالمة، ثم في الليالي الحالكات، وكثيراً ما تفرّغت لمحادثتي ومؤانستي إبان الهموم والأفراح، فعلمتني أن أحب الخير والحق والجمال، وعلّمتني أن أقابل الإساءة بالتسامح، والشدائد بالرويّة، كما أنها جعلتني أشغف ـ منذ نعومة أظافري ـ بمجالسة الناضجين من الناس، والإصغاء إليهم، والاستفادة من تمرّسهم بالحياة، ومغزى قصصهم وأحاديثهم...).

وقد تضمنت هذه المجموعة أحد عشر نصاً: غرام الجدة، سراب، افتراض، وفاء، خيط العنكبوت، أختي الصغيرة، فنان، شرطي السير، الخليقة، أم عزيز، وغفران.

ـ وفي العام ١٩٦١م أصدرت[٢]: نساء متفوقات، قدّم له الدكتور قسطنطين زريق، وأهدته (إلى الفتاة العربية المتحفزة، إيماناً بها، وبإمكاناتها للتفوق والإبداع. وقد ضم الكتاب اثنتي عشرة سيرة لنساء تفوقن في مجالات السياسة والأدب والشعر والفن والاكتشاف والاختراع والإبداع والوطنية والتمريض في الشرق والغرب: فيجايا لاكشيمي باندیت، سلمى لاجرلوف، مدام ريكاميه، زنوبيا ملكة تدمر، غبرييلا

---

(١) دار المعارف بمصر.

(٢) دار العلم للملايين ـ بيروت.

ميسترال، فلورانس نايتنجال، أم كلثوم إبراهيم، ماري كوري، اليزابيت باريت براوننغ، هيلن كيللر، أليزابيت بلاكويل، شجرة الدر. وأضافت لهن في الطبعة الثانية[1] كلاً من: جوليا دومنا، كاترين الثانية، هاريت بيتشر ستاو، سوزان برانول انتولي، دارين كارتيني.

يقول الدكتور زريق في تقديمه: لقد جهدت أديبتنا في تقصي هذه السير، وفي تلخيصها، وكشفت بذلك بعض الحجب عن شخصيات فريدة، وعن الحضارات والأزمنة التي تمثلها. إن بعض هذه الشخصيات متصل بتراثنا القومي الماضي والحاضر، وأخرى نبتت وازدهرت في مجتمعات وحضارات أخرى، ولكنها تنطوي على معان وقيم تهمنا قومياً وإنسانياً... وأهم مزايا هذه السير هو حس المؤلفة المرهف الذي نفذت به إلى هذه الشخصيات فجعلتهن ينبض بالحياة.

ـ أما (عينان من اشبيلية) فقد صدرت في طبعتها الأولى في العام ١٩٦٥[2] وتتوفر[3] فيها تقنيات الفن الروائي إلى حد ما. وموضوعها هو زواج أمير اسباني من عارضة أزياء اشبيلية، من أسرة متواضعة بعد حب متبادل، ينتهي إلى الزواج بعيداً عن الأزمات والمنغصات.

(كارمن) فتاة جميلة من اشبيلية، توفيت أمها وتركت لرحمة أبيها،

---

(١) ١٩٩٠م.

(٢) وفي طبعتها الثانية في العام ١٩٩٩م وقد أهدتها لأحفادها العشرة.

(٣) ضويحي، هيام، الرواية النسائية في سورية ـ ط٢ ١٩٩٣م دمشق.

والذي سرعان مـا يتـزوج من امرأة مهملة فاسدة الخلق. تخون زوجها بغيابه وتستقبل عشيقها في بيتها. زوجة الأب تعامل كارمن معاملة سيئة وقاسية، الأمر الذي كان يؤلمها كما كان يؤلم جارتها، والتي ظلت تحنو عليها مع ابنتها رفيقة كارمن. واثر محاولة من عشيق زوجة أبيها الاعتداء على عفافهـا، بينما كانت تأخذ الطعام لأبيها في عمله في إحدى ليالي عيد الميلاد، ولكنها نجت منه بصعوبة وبعد مقاومة عنيفة منها، فقررت السفر مع ابنة جارتها إلى مدريد، وتركت رسالة اعتذار لأبيها في مدريد سكنت ورفيقتها لدى سيدة عجوز، وعملت بائعة حاجيات في حانوت تجاري كبيـر، فتلفت إليهـا الأنظـار بجمالها ورقتهـا، كما أنها تلتحق بمدارس لتعليم اللغات وتـزور دار الموسيقى تسـتمع إلى المقطوعات العالمية. وإلى أن يعرض عليها أحد كبار الخياطين العمل عنده كعارضة أزيـاء. وتنتقل مـع صديقتهـا للعمل لديـه إلى أن تحضر السيدة النبيلة من أسرة (دل صول)، لتأميـن الملابس الفاخرة الثمينة لابنتهم بمناسبة زواجهـا، فتعجب السيدة بها وبجمالها وتهذيبها وتوجه لها الإرشادات وتتعرف على (روبيرتو) ابن هذه الأسرة. يعتزم الزواج منها بعد لقاءات متكررة في ديارهم، وفي الصالونات، ويعلن خطوبته عليها، وفي آخر لحظة عندما دخل المستشفى إثر سقوطه عن الحصان، يعرف أن الطبيب المشهور صديقـه النبيل هو خال كارمن. وهذا الخال من أسرة محترمة صديقـة لأسرة دل صـول، وكانـت الحرب الأهليـة الإسبانية قـد شتت شملها، وبذلك يتأكد حبه لها وتعلقه بها. ويحضر أبوها ويبارك الأمر،

ثم يعـود إلى إشبيلية ويلتئم شمل كارمن وروبيرتو، ويتمّ الزواج وتعمّ الفرحة.

الموضوع على بساطته استغلته المؤلفة في عملها الروائي، فرسمت جوانب للمجتمعين اللذين يتقابلان في هذه الروايـة، وهما: المجتمع الفقير الذي يكدُّ ويتعب ليكسب قوت يومه، ومجتمع النبلاء والإقطاع المترف الباذخ. مما أتـاح لها مجالات للسرد والتحليل والوصف، إلا أن الرواية في مجموعها، رواية حب، وتمجيد هـذه العاطفة الإنسـانية وتبـدو كلمـة (أنـا طول فرانس) التي افتتحت بهـا روايتهـا ذات معنـى ومعزى... يقول: «كل شيء في الدنيا باطل ما عدا الجمال لأن الجمال يصلنا بأسمى تجلي الخالق على قدر ما نستطيع الوصول إليه».

وهذه الرواية تصطنع الحوارات والوصف، ومن أوصافها لإحدى الجلسـات واللقاءات في المجتمع الأرستقراطي هذه الصورة لقارئة الكف: «خاطبتها بصوت خافـت وهي تشد على الكلمات وتـدل بإصبعها على خطوط الكف... وتقول: أرى يا ابنتي نجمة كبيرة واضـحة هنا في هذا المكان، إنهـا رمز ثابت للشهرة. ستصبحين بـدون شك امرأة شهيرة، يتحدث الناس عنك بإعجاب ويعرفونك أينما ذهبـت... وهذا الخط الطويل الصاعد هـلا ترينه؟ هـذا يعني أن آخر حياتـك أفضل بكثير من أولها؟؟ ستصعدين سلم المجد بخطوات واسعة بالمستقبل. المال قليل بين يديك الآن، ولكنه سيزداد بعد مدة وجيزة. ثم ماذا أرى؟ أظن أنك ستنتقلين بعد حين من مكان إلى مكان...».

والرواية تقدم مشاهد من مجتمع البطل، فهو أمير إسباني. . . عن أهله وأمه النبيلة التي تقدم المواعظ والنصائح في التربية والأخلاق، وتفتح دوراً للأيتام، وتعطف على الفقراء، في حين أن تحليلاتها لنفسية البطل روبيرتو وحبه لكارمن، جاءت مقننة بعدة صفحات. والسرد فيها يلتزم التسلسل الزمني بدءاً من انطلاق كارمن مع رفيقتها في القطار من إشبيلية، إلى مدريد، حتى زواجها وفوزها بمن تحب.

ومع ذلك فإن هنالك صفحات لأسلوب التداعيات والخواطر، وخاصة في رسم نفسية البطلة، وهي في القطار والتعريف بظروفها وحياتها السابقة وشقائها في البيت الذي هربت منه.

الحوارات في الرواية رشيقة، سواء بين الأبطال أو في الصالونات. وعلى الرغم من أن الرواية منقولة عن مجتمع غير المجتمع السوري وهو مجتمع النبلاء في إسبانيا والذي عرفته المؤلفة بحكم أسفارها مع زوجها الموظف في السلك الدبلوماسي السوري فاستفادت من ذلك كله. نقول رغم ذلك فإنها تبدو موفقة.

وتجدر الإشارة أن سلمى سجلت هذه الرواية بصوتها إلى محطة الإذاعة البريطانية في لندن بعد أن قسمتها إلى ثلاث عشرة حلقة إذاعية. وقد ذكرت في المقدمة أن لهذه الرواية التي شرعت بكتابتها أيام كنت مقيمةً في اسبانيا ما بين عامي ١٩٤٢ و١٩٦٣م مع زوجي الدكتور نادر كزبري الذي كان سفيراً لسورية فيها، قصة طريفة، وصلة وثيقة بصداقتنا

مع شاعرنا الكبير نزار قباني إذ كان مستشاراً في تلك البعثة الدبلوماسية السورية آنذاك. كنا نعرف نزاراً ونقدّره، وسعيدين بالتعاون معه في تفعيل النشاط الثقافي بين اسبانيا والأندلس خاصة وبين بلدنا، ولكننا عدنا إلى دمشق، وبقي هو في مدريد بضع سنوات فكنت أطلعه على سير عملي في هذه الرواية بالمراسلة وأطلب إليه معلومات عن إشبيلية ومدريد قد فاتني التدقيق بها، فأتسلّم منه رسائل ممتعة وشاعرية أعتزّ بها لأن الرابطة الوديّة بيننا ازدادت متانةً إبّان وجودنا معاً في اسبانيا. وذات يوم أعلمته باختياري لعنوانين للرواية لم أكن راضيةً عنهما فأقترح عليّ نزار أن يكون عنوانها: «عينان من إشبيلية»، فتبنّيته بلا تردّد، وبعثتُ إليه أول نسخة من الروايـة بعد نشرها، وهذا مطلع رسالته التي وجهها إليّ من مدريد المؤرخة في ٢١ ـ ٧ ـ ١٩٦٥م:

عزيزتي سلمى

بغبطةٍ لا توصف تسلّمت هديتك النفيسة «عينان من إشبيلية» وتأثرت كثيراً بالإهداء الرائع الذي خصصتني به. الواقع أنني شعرت بلمسة كبرياء حين رأيت العنوان الذي حلمتُ به يتألّق على غلاف الكتاب، وليس هذا غروراً ولكنه زهو الإنسان بلقاء أحلامه وقد اكتست جلداً ولحماً...

ليلتي مع «كارمن» كانت ليلةً شريفة جداً... وكيف لا تكون وقد جعلتها «مصحفاً مطوياً» لا تتعاطى إلا الفيتامينات بالإضافة إلى أنها كانت «طابِسَة» إلى «قراريط آذانها» بسيادة الماركيز «روبيرتو دِلْ صول»...

كانت رسالة الصديق الشاعر نزار طويلةً وظريفة للغاية، وهي إحدى رسائله الست عشرة إليّ التي سأنشرها قريباً في كتابٍ يتضمّن رسائل متعدّدة تلقيتها من شعراء وأدباء، ونقادٍ وقراء على مدى نصف قرنٍ من الزمان، أي منذ أن بدأت مسيرتي مع القلم والكتاب.

كما أنني انتقيت مقطعاً ثانياً من هذه الرسالة سيطلع عليه القراء منشوراً على ظهر غلاف هذه الرواية مما يوضّح لهم أن نثر نزار قباني لا يقلّ عن شعره جاذبيةً وجمالاً فلقد كان، رحمه الله، أديباً واسع الثقافة، مرهف الذوق، وإنساناً خفيف الظلّ، دقيق الملاحظة في كلّ ما جادت به موهبته الفذّة.

ـ وفي العام ١٩٦٦م أصدرت[1] مجموعتها القصصية (الغريبة) وأهدتها إلى ابنتها رشا، وصدّرتها بمقولة جي دوموباسان: الشعور بالوحدة الأبدية هو منشأ عذابنا في الوجود، وأن جميع ما نبذل من جهد، وغاية ما نصبوا إليه هو الفرار من هذه الوحدة. وقد تضمنت تسع عشر قصة، إحداها تحمل اسم المجموعة، والأخرى: الاسيران، أم البنات، الهدية، العاشقة الصغيرة، لعينيك يا دولورس، العودة، العمة فريدة، السنيورة أبيض، بطاقة البريد، الرسالة، ابن الرئيس، بطولة غير منتظرة، بينهما، البخيل، سر الحورات الثلاث، القصر المهجور، الضحكة اللاذعة، والرسائل الزرقاء.

---

(١) مكتبة أطلس بدمشق.

ـ و(عنبر ورماد) التي صدرت في العام ١٩٧٠م فهي[١] سيرة ذاتية ولكن ليست بأسلوب المذكرات، وإنما بأسلوب السرد المباشر. وهي تتضمن فصولاً من طفولة وحياة وبيئة الكاتبة، وتصور أهم الأحداث التي أثرت في تكوينها الخلقي والفكري وطبعتها بطابعها. وحرصت على تسجيل هذه الفصول بالصدق الذي لا قيمة لأثر يتجاوزه، وتعترف أن الشجون والحماسة سيطرا عليها في بعض المواقف العائلية والقومية وذلك لأنها استجابت لنداء الطبع: «ظل معشر من هم أكبر مني سناً يستهويني ويلذ لي في مختلف مراحل عمري، وقد ساعدت ظروف حياتي في تنمية ميل فطري للنضج المبكر، وأتاحت لي الفرصة تلو الفرصة للعيش في مع الناضجين والاستمتاع بصحبتهم، حتى أنه ندر حقاً أن صاحبت رفيقة في مثل سني طوال عهد الطفولة. فالبيئة التي نشأت فيها وترعرت طفلة ثم مراهقة ثم شابة فرضت عليَّ وعياً خاصاً، وتفتحاً مبكراً، لعدة عوامل منها كوني الفتاة المنطلقة التي تزج بنفسها في مجالس المسنين، ومنها تعلق جدتي لأمي بي وصحبتنا المتواصلة تقريباً. كما أن بيتنا كان بيت رجل سياسي تعقد فيه اجتماعات الوطنيين، مما جعلني ألتقي بهم وأحضر جلساتهم وأحظى باهتمامهم بي إلى أن أصبحت شابة، فأنّى لي بعد ذلك أن أحيا حياة الأطفال الطبيعية التي تدعوهم للهو، وتجنبهم التنبه للمشكلات التي لا يعانيها إلا الآباء؟».

---

(١) ضويحي، هيام، الرواية النسائية في سورية ـ ط٢ ١٩٩٣م دمشق.

وقد حددت زمناً لسردها بين عامي ١٩٢٢ و١٩٥٥م، حيث نجد التسجيل والرصد نفسه، بأسلوب شاعري. أيضاً، ولكن أكثر نضجاً من الأسلوب السابق. إلا أنه بقي في إطار السيرة الذاتية والتجارب الخاصة، حتى الرحلات التي قامت بها الكاتبة وما فيها من مقابلات ومشاهدات تدفع إلى المقارنة والتأمل، ولكن ذلك ظل بعيداً عن الإبداع الروائي ومنها: «تعرفت بزعيمة النهضة النسائية السيدة هدى شعراوي، وكنت قد سمعت عنها الكثير، فوجدت فيها المرأة الرائدة المتحمسة لبلادها، ولبنات جنسها، ولكني وجدت كذلك أن الأشواط التي لابد من اجتيازها لتحقيق النهضة المرتجاة طويلة جداً ووعرة جداً. كما أسعدني أن أتعرف بالأديبة السيدة أمينة السعيد وبالآنسة حواء إدريس، اللتين تكرمتا بزيارتي وبدعوتي إلى دار السيدة شعراوي، وسهلتا اطلاعي على مخططات العمل لتحقيق نهضة ثقافية وصحية واجتماعية في مصر».

ـ في العام ١٩٧١م جمعت سلمى بعض محاضراتها وأصدرتها تحت عنوان (في ظلال الأندلس)[1] وقدّم لها شاعر الشام شفيق جبري، ومما قاله: . . . لقد جمعت بيني وبين أهلها الأفاضل صداقة متينة من سنين طويلة، فتمكنتُ ـ بفضل هذه الصداقة ـ من الوقوف على جملة من فضائلها، وعلى رأس هذه الفضائل سلامة الذوق، وقوة الحس،

---

(١) وقد أعيد إصدارها، بعد حذف محاضرة: الأعياد والتقاليد في اسبانيا ضمن منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ودار البعث، الكتاب الشهري رقم ٥ باختيار وتقديم د. عبدالله أبو هيف.

ونضج الفكر، وحسن التميز، ونشاط الحياة، ولست أسهب في الكلام على كل هـذه المزايـا، وإنما اختصـر الكلام اختصاراً، فقد يتجلى لي ذوقهـا السليم في ترتيب بيتها وحديقتها، كما تتجلى لي قوة حسها في طربهـا إذا سمعت شيئاً من محاسن الشعر والموسيقى، وقـد يظهـر لي نضج فكرهـا وحسن تميزهـا في كثير من الأمور التي نخوض فيها في مجلس من المجالس. . .

وبعد أن يلخص جبري محاضرات سلمى الأربع: عاشقا قرطبة، أثرنـا في اسبانيا، المرأة العربيـة، الأعيـاد والتقاليد في اسبانيا، ويقف على مزاياهـا وخصائصها ومدلولاتها يختم: لن يفوتنـا في محاضرات سلمى إحيـاء الأندلس في خواطرنا وقلوبنا، وهذه مزية المحاضرات، ومزية الأندلسيات التي نقلتنا إليها بسـلامة ذوقها، ودقة شعورها، وقوة فكرها.

وكانت سـلمى قد استهلت كتابها قائلة: إن الهدف الذي أرمي إليه من وراء الكتابـة عن تلك الحضارة، ليس البكاء على الأطلال مطلقاً، وإنما هو استحضار ذاكرة تاريخنا المشرّف لتقوية ثقتنا بأنفسنا وإمكاناتنا الإبداعية، شـباباً وكهولاً وشيوخاً، واعتزازنا بهويتنا العربية، ولغتنا الجميلة التي كانت اسبانيا كلها تقريباً تتكلمها خلال ثمانية قرون مضت. . .

ـ البرتقال المر، صـدرت طبعتها الأولى[1] في العام ١٩٧٥م وقدّم

---

(١) الطبعة الثانية ١٩٩٩م ـ بيروت.

لها الدكتور جبرائيل جبّور. وقد أهدتها لزوجها نادر، وإلى كل مؤمن مثله بالحق والحرية. وصدرتها بثلاثة أبيات لبدوي الجبل:

يـــا شـــام عطـــر ســـريرتي

حـــبٌ لجمرتـــه التهـــاب

أنـــت اللبانـــة فـــي الجـــوا

نـــح، لا النـــوار ولا الربـــاب

لـــكِ مهجتـــي، وقبولهـــا

منـــك الهديّـــة والثـــواب

تتناول الرواية المأساة الفلسطينية التي آلمت العرب في كل مكان، وما زالت تقلقهم حتى اليوم... وتقصد سلمى بالبرتقال المر برتقال (يافا) وبياراتها، وتدور أحداثها حول الشبان الذين ولدوا في فلسطين، ثم غادروها قسراً، وهم يحملون في قلوبهم ذكرياتهم الأثيرة، وأحلام طفولتهم، والحنين إلى كل بقعة ترعرعوا فيها...

وقد عالجت سلمى، في روايتها، مشكلة هجرة الأدمغة، العلماء العرب الذين تخصصوا في الغرب وآثروا البقاء فيه لأن أوطانهم طغت عليها السياسة والجهالة، فحالت دون وصولهم إلى المراكز التي يجب أن يشغلوها بحكم تخصصهم وكفاءاتهم! ويشير نبيل سليمان[1] أن الرواية

---

(١) الرواية السورية، منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٨٢م.

(تنطعت إلى حرب حزيران وحرب تشرين، والمسألة الفلسطينية، ولكن همها الأكبر كان موقف البورجوازية من الوحدة السورية ـ المصرية، وتطورات السبعينات في مجتمعنا).

ـ وتحت عنوان جورج صاند (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦م) حب ونبوغ، صدر كتاب سلمى في العام ١٩٧٩م الذي أرّخ لهذه الشخصية المغامرة والتي باتت أسطورة ذائعة في كل مكان، وأضحى ذكرها مرتبطاً بعظيمين من معاصريها: ألفريد دي موسي وفريدريك شوبان اللذين هاما بها وهامت بهما. وهذا ما جعل أكثر الناس يتخيلونها امرأة متهتكة، ثائرة ومتمردة، كما تقول سلمى في مقدمة الكتاب، وتضيف: الواجب يحدوني إلى توضيح معالم هذه الشخصية الفذة، لأنها كانت ـ ومازالت ـ علماً من أعلام الفكر، ومجداً من أمجاده. وتستشهد بكتاب أندريه موروا (ليليا أو حياة جورج صاند)، الذي دحض اتهامات خصومها وتجنيهم عليها وعبر عشرين فصلاً، إضافة للمقدمة والمصادر، تناولت سلمى حياة جورج صاند من المهد إلى اللحد...

ـ أما كتابها: الشعلة الزرقاء (رسائل جبران إلى مي زيادة) الذي صدر في العام ١٩٧٩م، أيضاً، فكان باكورة اهتمامها وتركيزها على دراسة (مي زيادة) فقد اتبعته بكتابين ضخمين أولهما: مي وأعلام عصرها في العام ١٩٨٦م، و(مي ومأساة النبوغ) في العام ١٩٨٧م.

فالشعلة الزرقاء التي رسمها جبران لمي في أكثر من رسالة كانت

رمزاً للحب بينهما، وقد استطاعت سلمى أن تعثر، بمتابعة حثيثة، على أربع وثلاثين رسالة في منزل الدكتور جوزيف زيادة، ابن عم مي كانت مي قد حملتها من مصر إلى لبنان في أثناء محنتها، وحافظت عليها ـ كما يقول عيسى فتوح[1] ـ حفاظها على سر مقدس وكنز ثمين، فقد كانت تصر على أن يبقى حبها لجبران طي الكتمان، وكانت تعزيتها الوحيدة أن تستعيد قراءة هذه الرسائل الجميلة من حين لآخر في ساعات خلوتها ووحدتها، فهي ذكرى غالية لحب عاصف اجتاح قلبها فدمّره، لأنه كان حباً صوفياً ضبابياً لم يخرج إلى حيز الواقع. لكن مي اعترفت ـ بعد وفاة جبران ـ بوجود مراسلات طويلة بينهما!

ـ تأسيساً على مقولة عباس محمود العقاد (لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي، أو كتب إليها، لتمت بها ذخيرة لا نظير لها في آدابنا العربية، وربما قلّ نظيرها عند الأمم الأوروبية التي تصدّرت فيها المرأة المجالس الأدبية... وعند مي أنماط عديدة من هذه الرسائل التي تسلّلت في عداد الأدب الخاص، ولا ندري أين موضعها الآن، وإن كنّا نخشى أن تكون قد أحرقتها، أو ردّتها إلى أصحابها، لتسترد منهم رسائلها إليهم بعد وفاة والديها). سافرت سلمى أكثر من مرة إلى القاهرة وبيروت وعمّان والولايات المتحدة الأمريكية لهذه الغاية، ونقّبت في المتاحف ودور

---

(١) سلمى الحفار الكزبري: الأديبة المتفوقة، الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٤م.

الكتب، ودور الوثائق التاريخية، وقابلت كل من كان على صلة بمي، ولا يزال على قيد الحياة، وأولاد وأحفاد من رحل منهم عن هذه الدنيا. . . وكانت الثمرة اليانعة: مي وأعلام عصرها. أكثر من مئتي رسالة تبادلتها مي مع معاصريها من أعلام وأصدقاء في الشرق والغرب أمثال: جبران، يعقوب صروف، العقاد، باحثة البادية، القروي، خليل مردم بيك. . .

ـ وفي العام ١٩٨٧م تصدر سلمى في مجلدين كتابها (مي أو مأساة النبوغ) تحدثت فيه عن اهتمامها الشديد بمي منذ ولادتها في الناصرة بفلسطين، ودراستها في مدرسة راهبات الزيادة في عينطورة بلبنان، ثم انتقالها إلى مصر في العام ١٩٠٧م، حيث عملت في جريدة (المحروسة) التي أعاد والدها إصدارها في ١١/ ١/ ١٩٠٩م، وكانت من قبل للثري إدريس راغب. كما تحدثت عنها شاعرة وطالبة وكاتبة، وعن مؤلفاتها وخصائص أدبها وأسلوبها، وعن مي الخطيبة والمحاضرة، وعن ندوتها الأدبية التي كانت تعقد في منزلها مساء كل ثلاثاء، وعن حياتها العائلية، وأصدقائها ومحبيها، وحياتها العاطفية، وحبها لجبران، وعن أحزانها وبداية مرضها ومأساتها، وتآمر أقربائها عليها وطمعهم بثروتها، والحجز عليها وعلى أملاكها، ودخولها مشفى الأمراض العقلية في بيروت، وصولاً إلى عودتها إلى القاهرة ووفاتها في ١٩ ت١ ١٩٤١م، وتكريم الأدباء لها بعد موتها.

وقد أغنت كتابها القيّم بمجموعة من الصور، ونماذج من خط مي

الفارسي الجميل، وصور الأوسمة والميداليات التي قدمت لها . . .

ـ وتبقى دمشق والأندلس هواها العتيد الراسخ في الجوانح والوجدان، فتجمع في العام ١٩٨٣م بعض كلماتها ومحاضراتها في حبهما التي ألقتها في مناسبات مختلفة في كتاب (بصمات عربية ودمشقية في الأندلس) ماربيا ـ لؤلؤة الشاطئ الأندلسي، حب وحرب وهجرة، ابن زيدون[١]، ندوة الثلاثاء، الشاعرة اليزابيت باريت براوننغ، بين أعلام البيان والنابغة مي، حضارتنا في الأندلس (المعجزة العربية) المرأة في حياة تشايكوفسكي.

وفي طبعة الكتاب الثانية[٢] كتب على الغلاف الأخير: ثمرة حب كبير هو هذا الكتاب. فكل كلمة من كلماته تجعلكِ تحب عفوياً، الذين تحدثك عنهم سلمى الحفار الكزبري لأنها أحبتهم، عاشت معهم، عاشتهم في قلبها قبل أن تنقل حبها إلى الورق. . .

ـ وكانت قد صدرت في العام ١٩٨٦م مجموعة قصصية بعنوان (حزن الأشجار) لتصدر في العام ١٩٨٩م (الحب بعد الخمسين) ويتضمن اثنين وثلاثين مقالة: عاشقة ومعشوقة، الحب والحرب، الفراق، الحرب. . . لعبة الأطفال المفضلة، الهجرة الأولى، فرحة اللقاء، إلى أين تذهب الشمس، مهمة صعبة، الحب والشيخوخة،

---

(١) وقد نشرت مع محاضرتين أخريين في العدد ٥٨ من كتاب العربي ٢٠٠٤م.

(٢) وزارة الثقافة السورية ١٩٩٣م.

الياسمين والنخيل، مفاجأة سارة، ما هو الموت، الأميرة والسباحة، أميرتي تريد أخاً، احتدام الأزمة، حب الطيور وحب الحرية، حب الأرض وحب الله، الخوف من الظلام، أميرتي لا تحب اسمها[1]، النقود والجنة، أعياد الرعب وهجرة الربيع، هجرة ثانية، أنا والأرزة في الغربة، الموت البطيء في الغربة وفي الوطن، الصيف الحزين، الخصام والنقد الذاتي، سنة الأسفار، أميرتي والأمومة، النزوح النهائي عن بيروت، عندما شبّت حبيبتي، رسالة حبّ.

وقد صدّرت الكتاب بإهداء لوالدها:

إلى الرجل الذي أحبّني لدرجة الهيام،
إلى من طوّل عمري بحبه لي وأثراه
فحسبت أنني عشته دهوراً،
إلى من جعل حبّه فؤادي بصيراً
وملأ دنياي فخراً وحبورا،
إلى من علمني الصمود في وجه العواصف
وأنساني حدبّه طعم كؤوسي المرّة،
إلى من دلّني على إشراق الشمس
خلف الغيوم الداكنة، ومنعني من الانحناء

---

(١) نشرت في كتاب الجيب (القصة القصيرة في سورية) رقم ٣ الصادر عن اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٦م.

إلا للخالق والأم، والطفل والشيخ والبائس،

إلى من لقّنني تقديس الحرية والعدل والواجب والكلمة،

إلى من رحل إلى عالم أفضل من عالمنا وهو في كامل صحته وجماله،

وما زال ذكره عنبراً يفوح في الأجواء،

إلى أبي لطفي الحفار، طيب الله ثراه،

ـ لطفي الحفار (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨م) مذكراته، حياته وعصره، تؤرخ في هذا الكتاب الذي صدر في العام ١٩٩٧م ووشحته بإهداء إلى إخوتي: إلهام ولميس ورباب وبشر، سيرة والدها أحد أعلام الرعيل الوطني الأول في سورية، ونضاله في الحقلين السياسي والاقتصادي على مدى نصف قرن. حيث ضمّت الكاتبة مذكراته المخطوطة والوثائق التي تركها أمانة بين يديها حسب تدوينها وحدوثها.

عبر واحد وعشرين فصلاً تناولت سلمى نشأة لطفي الحفار، ودراسته، ومذكرات الصبا، وقصة زواجه، ونشاطه إبان الحرب العالمية الكبرى، والعهد الفيصلي، وفترة الانتداب الفرنسي. ونضال الحفار في الحقلين الاقتصادي والسياسي من خلال: مياه عين الفيجة، وحزب الشعب والثورة السورية، ومجابهة الكتلة الوطنية للسلطة الفرنسية، والإضراب الستين بدمشق، والمعاهدة السورية ـ الفرنسية. إضافة لجملة من الحوادث والأحداث: اغتيال عبد الرحمن الشهبندر، عدوان ٢٩ أيار على البرلمان، نكسة حزيران ١٩٦٧م، وكذلك ما يتعلق بالانقلابات العسكرية في سورية، والوحدة السورية ـ المصرية.

لتنهي كتابها بندوة الأربعاء التي كانت سلواه الكبرى، والحافز لنشاطه الفكري والصحي، والتي كان يدون فيها مراجعات لكتب التاريخ والأدب والشعر، ومناقشات ومساجلات حولها. ولم يتجاوز عدد رواد الندوة عشرة رجال: بدوي الجبل، ظافر نصوح الأيوبي، صبري العسلي، عفيف الصلح، سليم زركلي... وكان ينضم إليهم بعض زوار دمشق من الأدباء والعلماء: بنت الشاطئ، أبو سلمى، سامي الدهان.

ـ وكان (ذكريات إسبانية وأندلسية مع نزار قباني ورسائله)[1] خاتمة إبداعات سلمى الحفار الكزبري، وقد أهدته لحفيدها العاشر فادي كرامي وضمّنت الكتاب، إضافة لمقدمة المسهبة عن ذكرياتها الاسبانية، ست عشرة رسالة تبادلتها مع الشاعر نزار قباني الذي عمل مع زوجها السفير الدكتور نادر الكزبري في السفارة السورية بمدريد عام ١٩٦٢م. فقد التحق نزار بالبعثة الدبلوماسية السورية مستشاراً فيها، بعد سبعة أشهر على وصول سلمى وزوجها إلى مدريد. وكان الدكتور نادر يعرف نزاراً جيداً في كلية الحقوق بالجامعة السورية منذ كان أستاذاً للحقوق الجزائية، وكان نزار طالباً فيها.

تقول سلمى[2]: إنه لم يسبق لي أن التقيت نزاراً قبل قدومه إلى

---

(١) دار النهار ٢٠٠١م.

(٢) فتوح، عيسى ـ سلمى الحفار الكزبري (الأدبية المنفوقة) الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٤م.

مدريـد، ولكني قرأتـه، وعرفت والدتـه وشقيقته هيفاء. . . واكتشفت فيـه الإنسـان الكبير القلب والرجل الدمث الأخلاق، والشاعر المبدع، والدبلوماسي الأنيق في تصرفاته ولباسه، والصديق الوفي. . . لقد عشنا مع نزار عاماً هانئاً بطوله، كان بيتنا في أثنائه مفتوحاً دائماً للترحيب به، فكنا عائلة واحدة. . . في تلك السنة الغنية بالأحداث والذكريات، قمنا مع نزار بنشاطات ثقافية ورحلات إلى الأندلس، فتمكنت صلات صداقة عميقة بيننا وبينه وظلّت تنعش أنفسنا على مدى الأيام. . .

لقـد سلّطـت هـذه الرسائـل الأضـواء على نزار الأديب والشاعر والصـديق، وعلى ثقافته الواسعة، وظرفه الفطري، ومداعباته الرقيقة، وهـي سجل لنثره الرشيق الذي لا يقل جمالاً عن شعره المرسل ببراعة خاصة به. . .

وزمنيـاً تنحصر المراسلات في الفترة مـا بين ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٣م و١٥/ ٢/ ١٩٦٦م وقـد نشرتها سلمى، في كتابهـا، بخط نزار الدقيق المنمنم، دون أن تعمد إلى تنضيدها. . .

وغني عن القول، من خلال ما أوردناه ـ آنفاً ـ من نتاجات وإبداعات أديبتنا، أنها كانت غزيرة الإنتاج، متنوعة العطاء، وفي معظم ألوان الأدب وأجناسـه. . . ويمتاز أسـلوبها بالرشـاقـة والبسـاطة والوضـوح، فجملتها قصيـرة، وألفاظهـا منتقاة دون تكلف، وهي ـ إلى ذلك ـ تعزف البيانو والعود، الذي تعتبره ملك الطرب، وكان من هواياتها، التي تحرص على

ممارستها، السباحة وكرة المضرب، وكذلك التصوير الفوتوغرافي. . .

فازت سلمى في العام ١٩٩٥م بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي، وقبلها بجائزة البحر الأبيض المتوسط الأدبية من جامعة باليرمو في صقيلية عام ١٩٨٠م. وهي تحمل وسام (شريط السيدة) الاسباني.

قبيل رحيلها بسنوات ثلاث لبت دعوتنا للمشاركة في مهرجان دمشق للثقافة والتراث الذي ينظمه مجلس محافظ دمشق، وقد كرمت فيه. ففي رحاب ليلة دمشقية مقمرة ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٣م وفي مكتب عنبر ـ قصر الثقافة ـ حيث عطر الياسمين، وأريج الكبّاد والنارنج، اجتمعتُ والسيدين عصام الحلبي وعز الدين بدوي النجار بها ضمن ندوة (دمشق في شعر نزار قباني) ومما قالته في هذه الندوة: إن نزاراً حمل دمشق في شغاف قلبه أينما حلّ وارتحل، ومجّد النضال القومي في فلسطين والجزائر ولبنان و. . . وأكّدت أن شعر نزار العاطفي وليد خيال جامح لأنه ـ بحسب معرفتها القريبة له ـ كان خجولاً ومتكتماً في علاقاته النسائية.

وفي اسبانيا، تأثر بشعر الغربيين، وتفجّرت قريحته في رحاب الآثار العربية الشامية. وختمت مداخلتها في تلك الندوة: نزار الذي كان دائماً طفلاً كبيراً في شعره الرمزي، عرفناه بركاناً متفجراً في شعره النقدي كنداء سماوي يدعو للعدالة والحرية.

في الحادي عشر من شهر آب ٢٠٠٦م غيّب الموت في بيروت

الأديبة المتميزة سلمى الحفار الكزبري وكانت قد أوصت أولادها: أحبوا بعضكم، وأرجو أن تهدوا مكتبتي في بيروت إلى دار الكتب الوطنية في بيروت لكي ينتفع بها. وأطلب منكم ألاّ تلبسوا السواد، بعد موتي، لأنه لم يكن مشكوراً عند المسلمين المؤمنين في صدر الإسلام، وتأكدوا بأنني أغادر الحياة على الأرض شاكرة ربي العظيم على نعمه التي غمرني بها، وطالبة منه الرضى عليكم وعلى أولادكم ومن تحبون، والرحمة والمغفرة. وفقكم الله ورعاكم.



قتيبة الشهابي

رائد التوثيق في القرن العشرين

قتيبة الشهابي
رائد التوثيق في القرن العشرين

في كتابه[1] (مشاهير من دمشق) كتب الراحل عادل أبو شنب عن الحوار الذي أجراه مع د. قتيبة الشهابي: . . . أرسلت له مع جاره في دمر الفنان جورج عشي الأسئلة فسهر وكتب الأجوبة، وطبعها على الحاسوب، وأخرج CD لها وأرسلها من جديد مع جاره جورج، فعددت ذلك إنجازاً دالاً على همته التي حملته إلى المؤلفات التي أصدرها، وبعد أن اطمأن أنها وصلت، ذهب إلى المشفى ليأخذ جرعته من الدواء. . .

ويتساءل أبو شنب، رحمه الله، أليس هذا دليلاً على قوة الإرادة؟ دمشقي، أرفع له قبعتي احتراماً لأفعاله الثقافية الكبرى، والفنية، ولقوة إرادته. . .

● السيرة الذاتية:

ـ من مواليد دمشق ١٩٣٤م.

---

(١) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ـ وزارة الثقافة ٢٠٠٨م.

ـ المؤهل العلمي: دكتور في جراحة الأسنان ـ جامعة دمشق.

ـ دراسات عليا في طب الأسنان في لندن بإنكلترا.

ـ شهادة اختصاص في مداواة الأسنان.

ـ عضو الهيئة التعليمية في كلية طب الأسنان بجامعة دمشق، قسم مداواة الأسنان، خلال السنوات ١٩٦٣ ـ ١٩٩٤م.

ـ أستاذ سابق للتشريح الفني في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق في مطلع الستينات.

ـ عضو نقابة الفنون الجميلة بدمشق.

ـ عضو اتحاد الفنانين التشكيليين العرب.

ـ تخصص في لندن بالتصوير الضوئي (الفوتوغرافي) العلمي والمجهري والفني إضافة إلى مداواة الأسنان.

ـ أقام عدة معارض تشكيلية وضوئية علمية وفنية، داخل القطر وخارجه.

ـ باحث في التراث التاريخي والأثري لمدينة دمشق وسورية والتاريخ العربي والإسلامي.

ـ (١٧) كتاباً من مؤلفاته موجودة في مكتبة (الكونغرس) في أمريكا.

ـ عضو لجنة (تسميات الشوارع في مدينة دمشق) بالمشاركة مع الأستاذ هاني المبارك وضع فكرة ونصوص اللوحات الشارحة لكل اسم

وتم تنفيذها في شوارع دمشق أواخر عام ١٩٩٩م.

ـ شغل منصب (مستشار وزير السياحة) منذ ١/ ٨/ ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣م.

ـ خبير ثقافي في وزارة السياحة ٢٠٠٥م.

ـ عضو هيئة تحرير مجلة (دليل السائح) الصادرة عن دار المساعدة السورية بدمشق.

ـ توفي بتاريخ ١٧/ ٢/ ٢٠٠٨م.

من وحي السيرة الذاتية:

مارس د. الشهابي الفن التشكيلي فأبدع رسماً عشرات اللوحات الزيتية التي تنتمي لأكثر من مدرسة فنية في هذا الإطار، ولكن المدرسة التي شغفته (التكعيبية) فقد جسّد الكثير من الموضوعات التراثية والفلسفية، وركّز كثيراً على الوجوه (البورتريه) وحظيت المرأة في لوحاته بنصيب كبير...

ولوحات الشهابي بعضها محفوظ في أرشيف متحف دمشق الوطني، وبعضها الآخر في منازل بعض أصدقائه، وتعج جدران منزله، كما شاهدت، بعدد كبير منها... وكما حدثتني زوجه د. هالة حمامي الحواصلي أن هديته المفضلة لأصدقائه كانت لوحة، من أعماله، أو بعض مؤلفاته...

تخصصه في لندن بالتصوير الضوئي (الفوتوغرافي) ساعده كثيراً

في التوأمة بين الصورة والكتابة، فقد كانا بالنسبة له جزءان يكملان بعضهما لقناعته أن الصورة هي الصدق، ولا يمكنها أن تغالط الواقع أو الحقيقة. . . ولا ريب أن هذه القناعة برزت في مؤلفاته جميعاً سواء العلمية أو التراثية. . .

د. قتيبة الشهابي باحث في التراث التاريخي والأثري لمدينة دمشق، وسورية، والتاريخ العربي الإسلامي. وقد ترك للأجيال اثنين وعشرين كتاباً موسوعياً مطبوعاً. وصدر الكتاب الثالث والعشرون في ذكرى وفاته الثامنة. ويوجد كتابان مخطوطان لم يصدرا بعد!

● دمشق. . . تاريخ وصور:

كان كتابه الأول[1]، في مجال التراث والتاريخ، يقول في تمهيده:

لم أكن في حياتي مؤرخاً، ولا خطرت لي فكرة هذا العمل، فأنا ممن يمارس العلم والفن معاً، حتى أوحت إلي به السيدة الدكتورة نجاح العطار، وزيرة الثقافة[2]، فألقتني في محيط هادر وتداخلت فيه الأحداث والروايات، وتضاربت ـ من خلالها ـ الأرقام والتواريخ، وتناقضت المؤلفات والمراجع، فاتسم بعضها بالخوف من ذكر الحقيقة حيناً، وباللامسؤولية أحياناً أخرى. ولقد وجدت أن (الصورة) هي

---

(١) وزارة الثقافة ١٩٨٦م، ويقع في ٤١٥ صفحة من القطع الكبير، وصدر في طبعته الثانية عام ١٩٩٠م عن مؤسسة النوري.

(٢) آنئذ.

مصداق واقع بعيد عن مؤثرات الالتزام أو التعاطف أو الخوف، تلك العوامل التي طالما ألجمت في سابق الحقب والعهود كثيراً من كتبة التاريخ عن ذكر الوقائع من وجهة نظر الحقيقة، لذلك قلت: كتب التاريخ بالكلمات، وسأكتبه بالصور.

وكان لا بد، في سبيل الوصول إلى النتائج الصحيحة ضمن هذا الخضم المتلاطم، من حشد طاقات تعتمد أسس البحث العلمي كالافتراض واستخدام قوانين الاحتمالات، والتحليل والاستقراء، ثم الاستنتاج واستخلاص النتائج، وأخيراً تقاطع المعلومات واعتماد المنطق في تسلسل الحقب والأحداث، ولم يكن هذا بالأمر السهل، خصوصاً وأن غالبية المعلومات والمشيدات ضاعت نتيجة الإهمال، أو فقدت بسبب (التعتيم) الذي فرضه الاحتلال الافرنسي على الحقبة العثمانية وما قبلها، أو أزيلت في بدايات العهد الوطني، بعيد الجلاء مباشرة، للتخلص من آثار المستعمر، أو هدمت لترتفع مكانها عمارات تجارية تمثل (اللاطراز) في فن البناء...

ويضيف: تطلب مني العمل في بعض الأحيان الاستعانة بالمجهر لتفحص التفاصيل والكتابات الدقيقة بقدرات تكبير تتناسب والمساحة المدروسة، كما كنت ألجأ، أحياناً، إلى جهاز الإسقاط والمرشحات في محاولة لعزل لون معين يشوش بعضاً من تفاصيل المناطق الملونة الأخرى...

وقد تضمن الكتاب لمحة تاريخية عن دمشق والصور الملتقطة لها،

ومناظر عامة فيها، ومعلومات مشفوعة بالصور، بالطبع، عن شوارعها، وعن أسواقها، وعن جاداتها، وعن معالم وتاريخ السرايا، وضفة بردى، وفندق فكتوريا الكبير، ومحطة الحجاز، والجامعة السورية، والتكية السليمانية، والجامع الأموي، والربوة، والحريقة، وجامع التوريزي، وحديقة الصوفانية، وزاوية الشيخ رسلان، . . . وعن أحياء البحصة، والنوفرة، والقصاع، . . . وعن قصر العظم، وعن سور دمشق وقلعتها وأبوابها، وعن جبل قاسيون وسفوحه، ولم يفته الحديث المصوّر عن أول طائرة تهبط في دمشق. . .

* **هنا بدأت الحضارة ـ سورية. . . تاريخ وصور:**

وهو الكتاب الثاني الذي أصدره[1] د. الشهابي مؤكداً فيه على المنهج الذي اتبعه، ولم يحد عنه قط، في تأليفه جميعاً.

يقول: من هذا المنطلق بدأت محاولتي إخراج تاريخنا بقالب جديد، يغاير في مظهره ـ لا في مضمونه ـ ما كتبه الآخرون، قالب يربط بين المقولة والرؤية، بين الحدث والصورة، بين الشخصية والشكل، وكان أن ألقيت بنفسي ـ يضيف ـ في دوامة البحث عن الشواهد والأدلة والوثائق المصورة في بطون الكتب القديمة، وبطاقات البريد المبعثرة داخل القطر وخارجه، حتى تمكنت ـ بعد طول عناء ـ من أن أجمع ما مكنني من البدء في هذه المحاولة.

---

(١) دار الأبجدية طبعة أولى ١٩٨٨م ويقع في ٣٢٣ صفحة من القطع الكبير.

جعل د. الشهابي كتابه هذا في قسمين كبيرين تناول في الأول منهما الحضارات والشعوب والغزوات التي مرت فوق أرضنا العربية السورية منذ بداية التاريخ حتى الجلاء. وتحدّث في القسم الثاني عن نشوء المدن والمواقع الأثرية والتراثية، وتسمياتها القديمة والمحدثة، وما مر بها من عصور أو عهود حسب التسلسل الزمني والتاريخي لها.

ورتب د. الشهابي الوقائع منطلقاً من دمشق العاصمة صعوداً نحو الشمال حتى محافظة حلب، ثم غرباً باتجاه اللواء السليب، ونزولاً على طول الساحل، ثم انعطافاً نحو الجولان وحوران وجبل العرب، بعدها نحو الشمال الشرقي ومحافظات دير الزور والرقة والحسكة.

بهذا المنهج تمكن د. الشهابي أن يقدّم التاريخ بصيغة جديدة ومظهر يختلف عن المألوف، صيغة تعتمد ربط الخيال بالبصر، ومظهر يعطي ثماره الطيبة لكل الناس...

● أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية:

وهو الكتاب الثالث[1] في سلسلة مؤلفات د. الشهابي التاريخية، والأول، والبقية تأتي، في مؤلفات الشهابي الميدانية وبعدسته.

ومن خلال وضعه مخططين تصوريين لأسواق العهدين المملوكي والعثماني يستطيع الباحث أن يستخلص الوضع التعبوي لهذه الأسواق من حيث تجمعها وكثافتها وانتشارها وعددها وتوزعها وتسمياتها...

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠م ويقع في ٥٣٥ صفحة من القطع الكبير.

ذكر الشهابي الأسواق الشائعة على ألسنة الناس إلى جانب التسميات الرسمية والمتعارف عليها، أو التي كانت تطلق عليها في العهود السابقة.

وحفل الكتاب بمعلومات وافرة ووافية عن أسواق دمشق من خلال مخططات تاريخية، أو محدثة، وعن العملات المتداولة في العهد العثماني، ثم أيام الانتداب الفرنسي، وبعد الاستقلال، وعن وسائط النقل وفي الأسواق، وبالطبع، عن النسيج العمراني لها ومشيداتها...

* **مآذن دمشق ـ تاريخ وطراز:**

يأتي رابعاً[1] في مؤلفات د. قتيبة الشهابي هدف إلى إلقاء الضوء على شريحة عمرانية محددة لم تتوفر لها في السابق ظروف البحث بالشكل الذي قام به، وبالقدر الذي يغطي دراستها من أربعة اتجاهات: التاريخ، الطراز، نسبة التسمية، ثم الصورة.

ففي دمشق تنتشر اليوم أعداد كبيرة من المآذن القديمة والمعاصرة والحديثة، وتتوزع أساليب عمارتها في اتجاهات شتى كانتثار الضوء المنعكس من سطح كثير الانكسار، فمنها ما حافظت على الطابع الأصيل لخصائص العهد الذي أقيمت فيه، ومنها، ما تعرضت للتجديد أو الترميم أو حتى إعادة البناء، الأمر الذي أدى إلى تغيّر معالمها التاريخية كلياً أو جزئياً نتيجة تهجين عناصرها المعمارية، ومنها أيضاً ما شيد في الأصل بعمارة لا تلتزم بنهج معين مما أفقدها هويتها الطرازية المحددة، ويعود

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٣م ويقع في ٦٤٨ صفحة من القطع الكبير.

ذلك لأسباب متعددة. . .

ويحدثنا الشهابي في كتابه عن نشوء المئذنة وتطور أطرزتها العمرانية وتفاصيلها، وتسمية عناصرها، كل ذلك مدعم بنماذج من جذوعها وأقواسها ونوافذها وكواتها ومساقطها ورؤوسها وجواسقها ومقرنصاتها ودرابزونات شرفاتها. . .

● مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية:

وهو الكتاب الخامس[1] للشهابي ببحثه الميداني وعدسته، يرصد من خلاله ما ينتشر في ساحات دمشق، وفي حاراتها ودروبها، من مشيدات وأوابد تضم بين جنباتها أضرحة للعظماء ومقامات للصلحاء وقبوراً للبسطاء، ومن هذه المشيدات ما أقيم أصلاً للعبادة، ومنها ما انشئ للتدريس، ومنها ما شيّد تخليداً، وكثير من هذه الصروح زال، وقليلٌ منها ما يزال.

لقد وجد الشهابي أن عدداً كبيراً من هذه المشيدات ذات صبغة جمالية متميزة، تظهر خصائص العمارة الإسلامية بعناصرها الزخرفية والتزينية فبحث في تاريخها، وذكر تسمياتها باللغتين العربية والانكليزية، والترميمات التي أجريت عليها، والتبدلات التي طرأت على معالمها، والتوظيفات الحالية لها. . .

وأولى الشهابي أهمية خاصة للكتابات المؤرخة والوقفيات المنقوشة

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٥م ويقع في ٦٧٨ صفحة من القطع الكبير.

على سواكف الأبواب والنوافذ والجدران والأضرحة . . .

وكانت، كالعادة، الصورة الفوتوغرافية وثيقة حقيقية لا جدال فيها.

وقد دعّم الشهابي كل ذلك بمخططات للمشيدات تبين أمكنتها وتوضعها حسب العصور . . . وذيّل كتابه بكشاف أبجدي بأسمائها . . .

• معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدي حتى بدايات القرن العشرين:

ويأتي هذا المؤلف سادساً[1] في ترتيب كتب الشهابي المتعلقة بالتاريخ والتراث، وثانياً في العام ١٩٩٥م بعد (مشيدات دمشق) وكانت الغاية الرئيسة من تأليف الكتاب حل مشكلة تشابه ألقاب أرباب النفوذ من الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والوزراء وغيرهم، أو عند ذكر ألقابهم فقط أو ألقابهم ونعوتهم، أو ألقابهم والأسماء التي يكنون بها . . . ويعاني الباحثون والدارسون وهواة التاريخ من متاهات وإرباكات بعض المؤرخين في هذا المجال كأن يكتفون ـ إضافة لما ذكر ـ بالنعت أو بالكنية، وفي حالات أخرى يوردون أسماءهم فقط، الأمر الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى التباس الشخصية . . . وكم من مرة ورد ـ على سبيل المثال ـ ذكر (الملك الناصر) دون أية معلومة أخرى، فمن هو المقصود بالناصر؟ وما هو اسمه؟ هناك ستة عشر ملكاً ناصراً ـ كما يقول الشهابي ـ منهم ثمانية أيوبيين، وخمسة مماليك، وثلاثة من بني رسول

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٥م ويقع في ٣١١ صفحة من القطع المتوسط.

في اليمن. وفي بعض الأحيان يكتفون بالذكر (الناصر) بدلاً من الملك الناصر، وهناك ثلاثة يحملون هذا اللقب، واحد في المغرب، وآخر من دول الطوائف بالأندلس، والثالث في تونس...

وقد قسّم الشهابي معجمه إلى خمسة أقسام: الأول، ألقاب أرباب السلطان وترجماتهم وفق التسلسل الأبجدي، والثاني أسماء الشهرة والألقاب الشائعة على ألسنة الناس، والثالث أسماء أرباب السلطان، والرابع النعوت (التسميات المضافة إليها كلمة: الدين) والخامس الكنى (التسميات المضافة إليها كلمة: أبو).

● زخارف العمارة الإسلامية في دمشق:

واحد[1] من ثلاثة كتب أصدرها المؤلف الشهابي في العام ١٩٩٦م صدرّه بفصل عن (زخارف العمارة الإسلامية عبر العصور) وآخر خصصه للتعاريف الزخرفية: التخريم، التذهيب، الترخيم، التزهير، التشبيك، التشجير، التطعيم، التعشيق، التكفيت، التلبيس، التنزيل، التوريق.

ثم تناول بالبحث الميداني والصورة، هجائياً: الأبلق، ارابيسك، الجص، الحنية، الحشوة، الخط والخيط العربيين، الرقبة، الرنك، الزجاج المعشق، الساكف، الشريط، العجمي، الفسيفساء، القاشاني، القبة، القمرية، الكوة، المئذنة، المحراب، المشربية، المقرنص، وغيرها بالدرس والبحث وفق المنهج المشار إليه أعلاه مدعماً كل ذلك

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦م يقع في ٣٨٩ صفحة من القطع الكبير.

بالشواهد والصور والنسبة إلى العصر . . .

وقد ذيّل كتابه بمعجم التسميات الواردة في البحث باللغتين العربية والانكليزية . . .

* **أبواب دمشق وأحداثها التاريخية :**

وقد أخرج الشهابي هذا الكتاب[1]، كسابقه، من خلال عمل ميداني وبعدسته .

تحت عنوان : قبل البداية، يقول : . . . إشراقة الصمود هي أبواب دمشق، لم تستكن لحظة من لحظات تاريخها الطويل، وكعاشق يدفع الضيم عمن يحب، ويزود عن حياضه نوائب الزمن، صمدت صمود الميامين الأبطال، ودافعت دفاع الأشاوس من الرجال، وردّت عنها عثاة العلوج والطامعين، واستمرت في شموخها باعتزاز وفخار . . .

لم تنل هذه الأبواب حقها من التأريخ، وأهمل ذكرها كثير من الكتبة، ولم يعبأووا بأهمية دورها في الحفاظ على وجودهم أيام الشدائد والغزوات والحملات، تماماً كأهمية الهواء والماء والغذاء . . .

وبعد عشرات القرون من استمرارها وتجاهلها، رأيت أن الوفاء يدفعني لتقديمها بحلة جديدة كعروس حلوة فازت بمحبها فتزينت له بشفوف الاسطورة والرواية والحدث . . .

وبعد تناوله لتاريخ دمشق في المراحل الآرامية واليونانية والرومانية

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦م ويقع في ٣٦٧ صفحة من القطع المتوسط .

والبيزنطية، ومن بعد العربية الإسلامية تحدث عن نسبة الأبواب إلى الكواكب. ومن ثم فصّل في أبواب دمشق الأصلية وسورها وأبراجها، وأبوبها الإسلامية، وأبوابها داخل السور وخارجه (أبواب الأحياء وحاراتها وبواباتها) وتطرق للدارس منها، وأفرد فصولاً لأبواب معبد جوبتير، وأبواب الجامع لأموي، ناقلاً ما كتبه الرحالة والباحثون حول هذا الموضوع، وقد أغنى كل ذلك ودعّمه بالمخططات اللازمة. . .

● **معالم دمشق التاريخية:**

وبمشاركة الأستاذ أحمد الايبش صدر هذا الكتاب[1] متضمناً دراسة تاريخية ولغوية عن أحياء دمشق ومواقعها القديمة: تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها.

وتغلب على الكتاب صفة المعجم التاريخي، ويعد مصدراً جديداً وفريداً في أنه يضاف إلى المكتبة الدمشقية لأن مثل هذه الدراسة الاشتقاقية ـ وقد أفرد لها المؤلفان فصلاً وافياً ـ لأسماء الأماكن تلقي أضواء ايضاحية هامة على تاريخ نشوء هذه الأماكن ونسبتها وصفاتها، وتحمل في طياتها امتداداً تاريخياً وطرافة أدبية، فتقدم للقارئ ـ بذلك ـ المتعة والفائدة معاً.

وتجدر الإشارة أن المؤلفين ذيلا كل مادة وردت في الكتاب بالمراجع والمصادر التي تخصها، وهي طريقة اعتمدها د. قتيبة الشهابي

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦م ويقع في ٥٥٧ صفحة من القطع المتوسط.

في معظم تآليفه. . .

* النقوش الكتابية في أوابد دمشق:

وهـو الكتاب العاشر[1] للشهابي في توثيقه للتاريخ والتراث، فلا ريب أن النقوش الكتابيـة ونصوصها التأريخية المنتشرة في أوابد دمشق ومشيداتها الأثرية والتراثية تؤلف مجموعة لوحات أبدعتها يد فنان عريق عـرف كيف يحوّل جفاف مادتهـا إلى كتل تتصف بكل معاني التشكيل تاريخاً وعراقة، ويوظف أنماط الزخرفة العربية الإسلامية في تكوين بنائها لتخدم انسياب الخط، ويسخّر مخزون إبداعاته لسبك حروفهـا وربـط سطورها وكلماتها ضـمن قالب جمالي مميّز.

وإبرازاً لهـذه النقوش فقد أجرى د. الشهابي مسحاً ميـدانياً لعدد كبيـر من المشيدات والأوابد في دمشق، معتمداً على عنصري التصوير وقـراءة النص في الموقع. وقـد رجع ـ على سبيل ذلك ـ إلى المصادر العربية المطبوعة، على ندرتها، وإلى نصوص المستشرقين، على قلتها، مقارناً بينهما.

ويحدثنا الشهابي، على مدى صفحتين، عن الصعوبات والعقبات التي واجهها في عمله الرائد هذا كمكان النقش وتوضعه، أو ما أصاب بعض حروفه وكلماته من تشويه، وغيرها. . .

أفرد الشهابي في كتابـه فصلاً عن الكتابـة والأبجديـة، وآخر عن

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٧م ويقع في ٤٠٦ صفحات من القطع الكبير.

حساب الجُمّل أو التأريخ الشعري، وثالث عن معاني الألقاب الواردة في النصوص، ورابع عن نماذج الخطوط المستعملة، ثم تناولت الفصول تباعاً الكتابات المنقوشة على الأبراج والسور، وعلى الأبواب، وفي الأسواق، والبيمارستانات، وعلى الترب والأضرحة والمقامات والمشاهد، وفي التكايا والخوانق ودور القرآن والحديث والزوايا، وفي الخانات، وعلى السبلان، وفي قلعة دمشق، وعلى المآذن، وفي المدارس، وفي المساجد وعلى المنابر، وعلى النصب التذكارية، . . .

* **طريف النداء في دمشق الفيحاء:**

واحد[1] من ثلاثة كتب وضعها د. الشهابي في العام ١٩٩٨م يقع في جزأين كبيرين بحث فيهما الجذور العلمية والتاريخية والتراثية والشعبية واللغوية للسلع ونداءات الباعة. . .

ويشير في مستهل كتابه قائلاً: . . . وأذكر يوم كنا أطفالاً صغاراً نمد أيدينا الناحلة بنكلة أو بقرش (خرجيتنا) اليومية لنشتري به فرفيرة/ دولاب هواء. أو نقضم بتلذذ قطعة ملونة من (دبوسك يا ولد) أو نقرمش حلقة ملونة من (ليل تالله) أو نسف (النعومة) أو نقضم (تماري وكعك). . .

وبأسلوبه المتميز ومنهجيته المعتادة يدّعم المفردات التي تداولها السلع بالصور، وما أحوج هذا الموضوع للصور، وينهي كتابه بـ (معجم المصطلحات ـ العربية والانكليزية والفرنسية) ألفبائياً. . .

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٨م ويقع في ٦٤ صفحة من القطع الكبير.

* صمود دمشق أمام الحملات الصليبية:

الذي[1] راودته فكرته ـ كما يقول ـ منذ أمد بعيد، لكنني، وفي كل مرة كنت أحجم عن تنفيذها، فالغوص في متاهات المؤرخين، من العرب والمسلمين، ومن غيرهم أيضاً، ضرب من المغامرة المجنونة، فأنا ـ أولاً ـ لست بمؤرخ، وثانياً: سبقني الكثيرون إلى تدوين الكتب والمجلدات والتصانيف عن الحروب الصليبية، من مختلف الجنسيات، وما أكثرهم. غير أن أحداً منهم لم يركّز على ما قدمته دمشق، هذه المدينة الخالدة، من نضال وصمود، عبر تلك الحملات، وما عانته من أهوال وشدائد وويلات، وما بذلته من أرواح وأموال وتضحيات...

وقد تناول د. الشهابي في كتابه، من خلال تسعة فصول: الحملات الصليبية الأولى والثانية، أسلحة المسلمين والفرنج في الحملات الصليبية، تخطيط الهجوم على دمشق وحصارها، وختم بتراجم مؤرخي الحملات المسلمين والأجانب.

* دمشق الشام: في نصوص الرحالين والجغرفيين والبلدانيين العرب والمسلمين:

ويقع[2] في جزأين ألّفه بالمشاركة مع الأستاذ أحمد الإيبش تناولا

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٨م يقع في ٣٨٢ صفحة من القطع المتوسط.

(٢) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٨م ويقع في ٩٢٨ صفحة من القطع المتوسط في جزأين.

فيه كل ما أورده الرحالون والجغرفيون والبلدانيون والعرب والمسلمون من أوصاف لمدينة دمشق العتيدة العريقة الخالدة، أول عاصمة لهذه الدولة العظيمة، دمشق التي ما برحت تتوضأ بالعروبة خمس مرات في كل يوم والتي صنعت للعرب مجدهم، وخطّت بأحرف من نور باكورة تاريخهم. . .

وقد تضّمن الكتاب في مستهله فصلاً في الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات عند العرب، وأعمال أشهر الباحثين في هذا المجال، وتتوالى فصول الكتاب معرفة بهؤلاء الباحثين ونصوصهم، والذين تجاوزا عدداً السبعين. . .

وتضمن الكتاب قائمتين بالمؤلفات البلدانية المختصة بخطط دمشق والشام لمؤلفين دمشقيين وشاميين حتى الثلث الأول من القرن العشرين، ومؤلفات الرحالات التي تضم نصوصاً عن دمشق والشام لمؤلفين عرب في القرن الرابع عشر. . .

• معجم دمشق التاريخي ـ للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين:

الذي[1] أطلق عليه د. الشهابي (الباحث عن إبرة في كومة قش) فلا المصادر توضح ما كنت أبحث عنه إلا فيما ندر، وكذلك المراجع، فأسماء الأماكن والمواضع والمشيدات تائهة في ربع خال لا حدود له،

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٩م ويقع في ١١٠٠ صفحة من القطع المتوسط.

معلقة بالفراغ المطلق، الغالبية العظمى منها غير محددة المواضيع، الأمر الذي يخلق كثيراً من فراغات وأفضية تحقيق المخطوطات والكتب، ويضيع عدداً كبيراً من المعلومات الدقيقة. . .

لقد وثق د. الشهابي، في معجمه، كل تسمية وردت في هذا المعجم حتى يسهل الرجوع إلى الأصل عند الحاجة، ولم يتوسع في ترجمة التسميات وإلا احتاج الأمر إلى مجلدات كثيرة.

يتميز (معجم دمشق التاريخي) بالشمولية والبساطة وسهولة التوصل إلى التسمية. . . والتسميات، وإن تباينت أو تشابهت، توجه الباحث إلى الاسم الأصلي المعروف تاريخياً. . .

● الطيران وروّاده في التاريخ الإسلامي:

صدّر د. الشهابي كتابه[1] بقوله:

لعل من يدرس التاريخ بإمعان وعمق، ويقرأ تراث الشعوب وأبعاد الحضارات القديمة، ونتاج الفكر الإنساني الأول وأسسه، ويقارن بينه وبين ما تم اكتشافه وتحقيقه اليوم، لا بد وأن يتوصل إلى كون الأمر سلسلة مستمرة تبدأ بالحلم والتوق، وتمر بالتفكير والدراسة، وتنتهي بالفرضية، ثم بالتجربة والخطأ، وبالنجاح أو الفشل، بعدها تكتشف النظرية وتُعتمد، ويتم تحقيقها على أرض الواقع.

وهكذا كنا نحن العرب.

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٩م يقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط.

أغنينا العالم بفيض واسع من نتاج الفكر، ووضعنا اللبنة الأولى في صرح الحضارة العلمية المتميزة، في شتى المجالات، وكان لنا قصب السبق في المحاولات الأولى للطيران، فعلياً وعملياً، فأصبح لنا فخر الريادة فيها، والاعتزاز بأبطالها، والانحناء أمام تضحياتهم التي دفعوا حياتهم ثمناً غالياً لها.

وآن للغرب أن يعترف بعد طول إغفال، وتعمّد إهمال، بأننا وضعنا الأسس العلمية الأولى للطيران وجعلنا من فكرته فعلاً واقعاً، وأنهم لولا عباس بن فرناس، ولولا اسماعيل بن حماد الجوهري، ولولا العربي الثالث مجهول الاسم، لما وصلت دراساتهم وأبحاثهم وتجاربهم في حقل الطيران إلى ما وصلت إليه اليوم.

جاء الكتاب في ستة فصول تناولت مواضيع: الطيران بين الأسطورة والحقيقة بدءاً من اساطير العهدين الأكادي والبابلي، تاريخ الطيران، الطيران والقوى المؤثرة في الطائرة، رواد الطيران ابن فرناس والجوهري وثالث مجهول الاسم، أول طائرة في حلب ودمشق، وتضمن ـ أيضاً عرضاً موجزاً لأهم الطائرات وتاريخ صنعها في العالم الغربي، وتسميات أنواع الطائرات في اللغات، وبالطبع ـ كالعادة ـ كل ذلك مدعم بالرسوم الفوتوغرافية والتخطيطية والتوضيحية...

* **نقود الشام:**

وهو[1] دراسة تاريخية للعملات التي كانت متداولة في الشام،

---

(١) منشورات وزارة الثقافة ٢٠٠٠م ويقع في ٣١١ صفحة من القطع الكبير.

قدّمت عرضاً مقتضباً للعملات التي تداولها الناس في الشام خلال العهود والأزمنة والحضارات المختلفة التي تعاقبت عليها بأسلوب سهل مبسط، سواء كانت تلك العملات مسكوكات إلزامية ظهرت نتيجة الاحتلال أو فرض الهيمنة، أو كانت عملات رسمية ضربتها الدولة، أو سكّها ولاة الأمصار، أو في بعض الأحيان نقود وصلتنا بنتيجة التبادل التجاري بيننا وبين مختلف الأمم وتبادلها الناس فيما بينهم كما هو الحال في الليرات الذهبية الشائعة في كافة العصور.

ويشير د. الشهابي في مطلع كتابه: إن كل عهد مر على الشام لم يلغ نقود العهد الأسبق مباشرة، وإن كان يرغب في ذلك، بل ترك الناس يتداولونها إلى جانب العملة الرسمية الجديدة المفروضة، ثم عمل على إنهائها بالتدريج وذلك حفاظاً على الاقتصاد الوطني والأموال العامة والخاصة.

عبر فصول ثمانية تناول الشهابي، النقود والعملات في التاريخ القديم، نقود الشام في الحضارات العربية القديمة الفينيقية والنبطية والتدمرية والغسانية، في الجاهلية وصدر الإسلام والدولة الأموية، في العهود العباسية والبويهية والطولونية والاخشيدية والفاطمية والاتابكية والأيوبية والمملوكية، وفي المرحلة العثمانية. نقود الشام أيام الحكومة العربية والانتداب الفرنسي والاستقلال...

وختم، بالطبع، كتابه بجدول يتضمن أسماء عملات دول العالم وأغناه بالصور الفوتوغرافية.

* عباقرة وأباطرة من بلاد الشام:

وهو الكتاب[1] السابع عشر في مؤلفات د. الشهابي التاريخية والتراثية، تناول فيه جملة من الموضوعات التي تعبّر عن سورية بلد الحضارات، فتحدث عن المعمرات والامصار الكنعانية والقرطاجية، وعن أباطرة وملوك وأميرات، وأطباء ومهندسين وعلماء ومخترعين، وأنبياء وسلالات مقدسة، وباباوات، ورسل وقديسين ولاهوتيين، وفلاسفة، وكتّاب وشعراء، ومشرّعين، ومؤرخين وجغرافيين من بلاد الشام في العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية، مدعماً كل ذلك كعادته بصور الشخصيات المترجم لها...

ومما يلفت في كتابه هذا الفهارس التفصيلية التي ألحقها به للأعلام والأماكن في الأقوام والمراتب والألقاب والمذاهب والتي تجاوزت الستين صفحة مرتبة هجائياً.

* أديرة وكنائس دمشق وريفها[2]:

ويحمل هذا الكتاب[3] الذي وضعه بمشاركة الأب د. متري هاجي اثناسيو الصفة التوثيقية التاريخية الأثرية وبالطبع من خلال بحث ميداني

---

(١) منشورات دار المساعدة السورية ٢٠٠٤م.

(٢) الكتاب ثالثاً ضمن (موسوعة كنائس دمشق) لمؤلفها الأب د. متري هاجي اثناسيو.

(٣) إصدار على نفقة المؤلفين ٢٠٠٥م.

وشمل الكتاب مجموعة لافتة ونادرة من الصور لكنائس وأديرة دمشق وريفها. . .

وقدّم المؤلفان للكتاب بقولهما:

مسلم ومسيحي جمعت بينهما صدفة اللقاء،

وفي أعماقهما وحدة الإخاء،

واحترام المعتقد والانتماء،

فكان التفاهم والصفاء،

في بلد يؤمن بأن الدين لله والوطن لكل الشرفاء،

فتوحدا في هذا العمل المشترك،

كأمثولة تحتذى وسط ظلام المعترك،

خضم الضغوط والعولمة وصراع الحضارات،

ومماحكة الأفكار والمعتقدات،

وتكريس التفرقة والبغضاء لفرض المصير،

في هدير الأنواء والأعاصير،

وإحلال الشرخ محل الإخاء،

كي يهدموا البناء،

ويسودوا بعد تحقيق الفناء،

ويحلوا الشقاء محل السعادة والهناء،

غير أننا في سورية الإباء،

رمز العراقة والحضارة والنقاء،

أحكم من أن نسقط في مستنقعهم وفيما فخخوه،
وأوعى من أن نستجيب لما خططوه،
وأقدر على العيش بين الديانات بألفة وتلاحم وصفاء،
بمحبة تسمو على البغضاء،
وعطاء يفوق كل عطاء

* **أضرحة آل البيت والمقامات الشريفة في سورية:**

باللغتين العربية والفارسية[1]، استهله مؤلفه بمقدمة عن السياحة الدينية في سورية، ثم توالت فصوله: أضرحة ومقامات آل البيت في الجامع الأموي، وفي مقبرة الباب الصغير بدمشق، وفي حي العمارة الجوانية، وفي بلدة داريا، وفي بلدة عدرا، وفي قرية (عالقين) قرب الكسوة، وخارج مدينة حماه، وفي مدينة الرقة، وفي مدينة حلب، . . . وقد شفع كل ذلك بالصور والترجمات والمخططات والخرائط . . .

* **معجم المواقع الأثرية في سورية:**

وهو[2] قاموس جديد في مادته، يعتمد مسح المواقع الأثرية في سورية، ويرتبها حسب تسلسلها الأبجدي، ويرتكز إلى كثير من المصادر والمراجع والتصانيف المتوفرة، وغير المتوفرة، العربية منها والأجنبية،

---

(١) منشورات وزارة السياحة ٢٠٠٥م يقع في ٩٦ صفحة من القطع الكبير.

(٢) منشورات وزارة الثقافة ـ المديرية العامة للآثار والمتاحف ٢٠٠٦م في ٣٢٧ صفحة من القطع الكبير.

وإلى أبحاث ميدانية قام بها د. قتيبة الشهابي على مدى سنين طوال، وإلى صور فوتوغرافية التقطها، ولم ينشرها قبلاً، وقد ضمّن المعجم أسماء المواقع باللغة الأجنبية كما تلفظ بالعربية...

وصدّر معجمه بمقدمتين تحت عنوان: سورية بلد الحضارات، والعصور التاريخية في بلاد الشام وبلاد الرافدين...

● تأريخ ما أهمله التاريخ:

وقد تضمن الكتاب[1] أبحاثاً في الأرقام العربية، التأريخ الشعري، علم التعمية عند العرب، موكب الحج الشامي، السبحات، السيف العربي، العين الشريرة والتعويذة الزرقاء، الفتوة عند العرب، المجاعة في بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى، المراصد الفلكية في الحضارة العربية الإسلامية، النار الاغريقية، رواد الطيران في التاريخ الإسلامي، شهداء العرب في العصر العثماني، طبابة الأسنان عند العرب، مدلولات النجوم، والهلال، مع الأسطول العربي في فتوحاته، من قصص الثورة السورية،...

إنها أحداث وأبحاث أصبحت اليوم في أعماق التاريخ وجزءاً من مخزون ضميره الكبير، ولم تعد تطفو على السطح لتتعرف إليها الأجيال. صارت كغلالات مطبقة تستر ما حققه عظماء العرب من اكتشافات حضارية قدمت للإنسانية أروع الخدمات، ثم طواها النسيان أو التناسي،

---

(١) دار قتيبة ٢٠٠٦م ويقع في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط.

وغرقت في بطون الكتب والمصنفات فأهملت وضاعت. . .

* ساحة المرجة ومجاوراتها في دمشق:

تقول د. حنان قصاب حسن، الأمين العام لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨م، في تقديمها لهذا الكتاب[١]:

حين تم الاتفاق مع د. قتيبة الشهابي على أن يكون كتاب (ساحة المرجة ومجاوراتها) من بين إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨م، لم يكن الأمر يتعلق بلفتة وداع لصديق فقط، وإنما قناعة حقيقية بأنه لا يمكن أن تمر هذه المناسبة الثقافية المرتبطة بمدينة دمشق، دون أن يكون له حصة فيها، فقد عمل قتيبة الشهابي في السنوات الأخيرة على إصدار وتنسيق ونشر كل ما يملك من وثائق ومعلومات وصور جمعها طيلة سنوات عديدة حول دمشق، فكانت منبعاً للمعلومات التسجيلية عن تاريخ مدينة تفيض عن حدود التاريخ، ولا يكفيها كل ما كتب عنها حتى الآن.

وحين وقعنا الاتفاق ـ تضيف د. قصاب حسن ـ كنا نشعر في قرارة نفسنا، وهو المريض الذي يناكد المرض بالعمل والضحك والمزاح، أن الأمر ملح ولا يحتمل الانتظار، ورحل[٢] قتيبة قبل أن يصدر كتابه،

---

(١) إصدارات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨م ويقع في ١٦٢ صفحة من القطع الكبير.

(٢) في ١٧/ ٢/ ٢٠٠٨م.

وظلت أوراقه معنا مثل وديعة نحملها أمانة في أعناقنا.

وقد اعتمد وضع الكتاب على خمسة عناصر رئيسة:

البحث الميداني، الأبحاث التاريخية المطبوعة، الصور المحفورة، البطاقات البريدية، الصور الضوئية.

وتضمن الكتاب أبحاثاً عن: بدايات التصوير في دمشق، وتلوين الصور والبطاقات البريدية، وأبحاثاً عن ساحة الشهداء (المرجة) وما يتعلق بتسمياتها، وعمرانها، ووسائط النقل فيها، وأحداثها، ومشيداتها، وفنادقها، ودور السينما فيها، وساعتها، وغيرها... وأبحاثاً أخرى عن مجاوراتها من أسواق، وساحات، وجادات، وأزقة، ومبان، وغيرها...

* **الأعلام والشعارات والرنوك في الوطن العربي:**

وقد صدر هذا الكتاب[1] بمناسبة الذكرى الثامنة لرحيل د. قتيبة الشهابي مضمنه ستة فصول بحثت، مع الصور: أعلام الحضارات القديمة قبل الميلاد، وعند البابليين، والآشوريين، والصينيين، والهنود، والمغول، واليونان، والرومان، وتسمياتها ومصطلحاتها، ومدلولاتها، وتقاليدها، ...

كما تناولت الأعلام في العهود العربية والإسلامية، وتسمياتها، وألوانها، بما فيها أعلام الفرنجة...

---

(١) الأوس للنشر ٢٠١٦م ويقع في ٢٤٥ صفحة من القطع الصغير.

وتناولت، أيضاً، التأثير النفسي للألوان ومدلولاتها، ومقارنتها بالأعلام الأجنبية...

وكذلك أعلام الوطن العربي، بدءاً بعلم الثورة العربية الكبرى (١٩١٦م) مروراً بعلم ميسلون، والأعلام في بدايات الاحتلال الفرنسي لسورية...

كما تناول الكتاب شعارات الوطن العربي، ومدلولات النجوم في الأعلام العربية...

وختم الكتاب بالرنوك والشارات في التاريخ العربي مشفوعة بأشكال تخطيطية موضحة...

ويذكر أن د. الشهابي، كعادته ـ إضافة للمصادر والمراجع التي كان يذيل كل بحث من أبحاثه، أورد ثبتاً بالمراجع والمصادر ـ العربية والأجنبية في خاتمة كتابه/ مخطوطة.

وتجدر الإشارة أن الكتاب افتقر إلى فهرس كما في تآليف الشهابي جميعاً التي طبعت أثناء حياته، وبمتابعته الحثيثة والدقيقة فقد كان ـ رحمه الله ـ يحرص على الشكل حرصه على المضمون في كل ما يقدم أو ينتج...

وأخيراً، وقفت في مراجعاتي لنتاجات الشهابي في غير لقاء صحفي، أو دراسة أن هناك مخطوطين لمّا يريا النور بعد أحدهما بعنوان: تراجم الأعلام في أحياء دمشق الشام، والآخر بعنوان: معجم الأسماء

التاريخية للمدن والقرى والمواقع في الوطن العربي والإسلامي!

ونخلص الى أن:

١ ـ د. قتيبة الشهابي باحث منهجي متابع من الطراز الأول فهو يتمتع بالصبر والأناة وقوة الإرادة، يتملك ناصية موضوعه الذي يطرقه بقوة وثقافة ومعرفة...

٢ ـ يحرص على مواكبة تطورات معطيات التقانات لتكون في خدمته وخدمة البحث الذي يقوم عليه...

٣ ـ يعتبر العمل الميداني والتقصي والتنقيب ضرورة ماسة في البحث العلمي والمنهجي...

٤ ـ يضع اللغات الأجنبية التي يتقنها في خدمة المواضيع التي يبحثها أو يؤلف بها...

٥ ـ يغني أبحاثه وكتاباته بمزيد من التمهيدات والمقدمات والمداخل والتوطئات التي تضع المتلقي في صورة وافية عن آلية العمل ومضامينه...

٦ ـ يشير إلى الصعوبات والمعوقات التي تواجهه في أبحاثه، خاصة الميدانية...

٧ ـ ينتقد بشكل مباشر أو غير مباشر بعض المؤلفات والممارسات التي تشوّه عن قصد أو عن غير قصد متن الموضوع وأساسه...

٨ ـ يغني أبحاثه ومؤلفاته بجداول المصادر والمراجع، مطبوعة

أو مخطوطة، عربية أو أجنبية، قديمة أو حديثة، بترتيب أبجدي أو هجائي . . .

٩ ـ يغني مؤلفاته بصور وخرائط ومخططات ومسارات تساعد المتلقي على فهمها وتحقيق الغاية التي ألفت من أجلها . . .

١٠ ـ كما أسلفنا، أصدر الشهابي أول كتبه في مجال التاريخ والآثار والتراث في العام ١٩٨٦م، وتوفي ـ كما ذكرنا ـ في العام ٢٠٠٨م، وبين هذه الأعوام وضع ثلاثة وعشرين مؤلفاً، غير المخطوط، أي بمعدل أكثر من كتاب في العام الواحد . . .

١١ ـ تناولت مؤلفاته المتعلقة بالتراث، التراث بشقيّه المادي وغير المادي، واستطاعت أن تلخص وتوجز وتختصر العديد من المؤلفات التي لا تدخل سوى في اختصاصات الباحثين.

١٢ ـ ذكر، من خلال سرده للمؤلفات الأمهات القديمة بها، وأعاد إلى الأذهان أسماء المؤلفين والمصنفين القدامى الذين أثروا العالم بمخطوطاتهم وتآليفهم . . .

١٣ ـ كرّم الشهابي رسمياً وأهلياً أكثر من مرة وأطلق اسمه على أحد شوارع دمشق (في ضاحية الشام الجديدة) . . .

وأرى أن:

ـ توصي وزارة الثقافة، التي طبعت معظم كتبه، بإعادة إصدارها على شكل موسوعة.

ـ توصى المؤسسة العامة للبريد بإصدار طابع بريدي يحمل صورته واسمه.

ـ توصى وزارة التعليم العالي، وخاصة جامعة دمشق، بتكليف من يقوم بإعداد دراسات عليا عن منهجه ومؤلفاته.

❐❐❐

عوالم كمال فوزي الشرابي
الإبداعية

عوالم كمال فوزي الشرابي الإبداعية

في تقديمه لمجموعة «كمال فوزي الشرابي (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٩م) قصائد الحب والورد» يقول الدكتور شاكر مصطفى، رحمهما الله، أنه ـ أي شاعرنا ـ نهر خفي من العذاب يهدر في الضلوع، وعلى المحيا بسمة يا حسرة الورد عليه، ويا حسرة الياسمين والبنفسج وزهرة الرمان، الليل يطبق على حناياه في حين يضحك للقمر الأخضر ويغازل النجمة اللامعة بجواره.

أن من عرف الشاعر كمال فوزي الشرابي عن قرب يدرك بدقة ما ذهب إليه مصطفى، فشاعرنا كتلة دافقة من الأحاسيس والمشاعر والشفافية لا تتجلى في شعره فحسب بل هي معجونة في كيانه واهابه تظهر في ملامحه وحركة عينيه وتتبدى في كلامه وتبرز في علاقاته وارتباطاته، إنه فنان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان عميقة وأبعاد صوفية... يصوغ شعره من نزف جرحه متجاوزاً عضة العذاب والألم... لقد بنى لنفسه فوق ركام الآلام عرزالاً عرّش فيه الياسمين واللبلاب، وزرع ورداً وزنبق حب وادغال عشاق وشلال كرز، وترك لقيثارته أن تغني كما لم تغن العنادل ولا الشحارير.

في مجموعته الشعرية «قصائد الحب والورد». وهي الثالثة بعد: قبل لا تنتهي وحرية البنادق، يأخذنا الشاعر، عبر تسع وثلاثين قصيدة، إلى عوالم تشف إنسانية وتذوب حنيناً ووجداً، وهي قصائد مختارة على مدى أعوام كثيرة كانت أولها في العام ١٩٥٨م ـ مما ورد في المجموعة ـ في العام ١٩٩٢م وما بينهما قصائد متنوعة، ولكنها في أسيل واحد تعرب عن صاحبها وتدلل على الرسالة الخالدة التي يتمخض عنها فكره ووجدانه.

ويبقى الهم القومي والهاجس الوطني هم شاعرنا وديدنه يصوغه كلمات تحرك المشاعر وتستنهض النفوس طامحة إلى الكبرياء والاعتزاز والفخر، وتتصدر قصيدته «صبايا بلادي» قصائد مجموعته:

صبايا بلادي

رفيقاتنا في طريق الجهاد

يؤججن فينا لهيب البطولة

وينشرن عطر الفضيلة

وفي كل غيهب/ يضوّئن شعلة

ألم تك منهن «زينب»

ألم تك منهن «خوله»

. . . وينشئن جيلاً قوياً

مجداً، نبيلاً، أبياً

إنها براعة الشاعر في اختيار ألفاظ وكلمات قصيده: جهاد، بطولة، فضيلة، شعلة، مجد، نبل، إباء... يرصفها ليجعل منها بنياناً متماسكاً يشد العزيمة ويعكس من خلالها دوراً مهماً للمرأة في البناء والتحرير مشاركة الرجل لبلوغ العلاء:

سواعدنا السمر تبني مداها

وفي جبهة الشمس تعلي ذراها

وتتضافر الجهود وتتوحد الإمكانات لتبني صروح المجد:

لـــــنحن منـــــارة التـــــاريخ

نحـــــن مـــــسيرُهُ عطـــــرا

ونحـــــن العلـــــم والأخـــــلاق

صُـــــغنا منهمـــــا الـــــدهرا

إنه التاريخ... إنها أمجادنا الغابرة... إنها صفحات النور والنار التي أضاءت والهبت الحياة من أقصاها إلى أقصاها... إنها المعارك المشرّفة التي ما فتئت منارات هداية للأجيال... إنها ميسلون التي تحدث الجبروت والطغيان صادحة بأفواه رجالها: لن يمروا...

ســـــوف تبقـــــين للعـــــرب

كعبـــــة البـــــذل والفـــــدى

يـــــا ســـــنى يغمـــــر الحقـــــب

بـــــالبطولات والهـــــدى

بـــــــدمي أرضـــــــك التـــــــي

بـــــــشذا الخلـــــــد ترفـــــــلُ

هـــــــي للحـــــــق منبـــــــع

وهـــــــي للعـــــــز منهـــــــل

ويهـز استشهاد الطفل إيـاد عقل على يـد الصهاينة الغادرين كيان شاعرنا فيطلق صيحة مدوية تدين البطش والغدر وتحرض النفوس:

ملقىً هنالكَ في العَراءْ،

وجراحُكَ الحمرُ العماقُ

تُشعُّ ياقوتاً حزيناً

مثلَ مِجْمَرةِ المـــاءْ،

ونسائمُ الليل الثكالى

يتحبن مع الـــماءْ،

والطلُّ يسقطُ

فوق وجهك كالدموعْ،

والعِطرُ يزفُرُ وهو يرشحُ

من جراحِكَ أو يضوعْ

ويبقى الأمل متجدداً من خلال أطفال الحجارة الذين قضّوا مضجع العدو واثبتوا ببطولاتهم أن الحق منتصر لا محاله:

صـــــامد مثلنـــــا الحجـــــر

مـــــا تـــــوانى ولا انكـــــر

هـــــو أقـــــوى مـــــن اللظـــــى

ومـــــن الـــــيل إن هـــــدر

آل صـــــــهيون لـــــــيلكم

قـــــادم دونمـــــا ســـــحر

نـــــاركم ســـــوف تنطفـــــي

هكـــــذا الله قـــــد أمـــــر

وإذا انتقلنا إلى القصيد الغزلي في مجموعة كمال فوزي الشرابي نقف على عدد غير قليل منها، وتأتي هذه القصائد، من حيث المنهج والسلوب، امتداداً لغزلياته في (قبل لا نتهي) سمتها العامة الكلمة الموحية والعبارة الشفافة والصورة الدافقة والموضوع المعبّر والتي ترسم بمجملها لوحات غاية في الروعة والاتقان.

يقول في إحدى قصائده مخاطباً مليكته الدمشقية من بلاد الغربة:

يـــا ابنـــة الـــشام، ويـــا ســـت الغـــوى

بـــك مـــا بالـــشام مـــن حـــسن يغنـــي

زدت بالرقـــــة نجـــــوى بـــــردى

وشـــذا الغوطـــة والـــوادي الاغـــن

يـــا ابنـــة الخمـــر هبينـــي رشـــفة

فلـــدى كرمـــك منهـــا ألـــف دن

تـــصلب الغربـــة روحـــي كلمـــا

خطرت شـامي ولمـا لمحـاً بجفني. . .

ولا يخفى التطابق الآسر الذي ابدعه شاعرنا بين حبيبين مستذكراً محاسن الشام وجمالهـا. . . برداها وغوطتهـا. . . ويركّز على المعنى نفسه عندما يحيي من غربته مسقط رأسه «اللاذقية» في الوردة والحرف والسيف. . .

يا وردة الفردوس، يا قيثارة الضياء

يا مركب الحضارة البهيهْ

يا أيام السيف الذي لا ينام

يا لاذقيهْ. . .

أما في «وردة الحب» فتمنى شاعرنا. . .

لو أني أملك بستاناً في أرض الشام

لزرعت لعينيك وروداً/ بيضا حمرا، صفرا

تختال على مر الأيام

ووهبت جميع الفقراء المقهورين/ جميع العشاق المحرومين

جميع اباة الأقلام/ ضمات منها تفرحهم/ وتؤانسهم

وتشاطرهم صبر الأيام

والحبيبة، عند شاعرنا الشرابي، عطاء دائم وإشراق مستمر تكسو حياته بالزهر وتسبغ عليها كل معاني السرور والبشر:

كل يوم في حياتي تزهر

مثلما تزهر في داري نجوم الياسمين

كل يوم تحملين/ لي هدايا من هناء/ وكنوزاً من حنين

وأنا أمنح منها العاشقين/ كما افرغت كفى

امتلأت منك بالضوء على مر السنين

ولابد من الإشارة، في إطار الإلماح عن شعر شاعرنا الغزلي، إلى الجانب الاجتماعي الممزوج بأخلاقيات مثالية، فانظر إليه في «الحسناء والذئاب» كيف يروي على لسان حسناء أحاط بها قطيع من ذئاب البشر قائلاً:

حسناء لكني فوق الظنون/ ما أروع الحسن الذي لا يهون

تغوونني بالماس والخز/ كنوزكم لن تشتري كنزي

كنزي أنا رصد وراء الضباع

فقيرة، لكنني كاليراع/ في يد حرٍ فكره لا يباع

ما أنبل الحسن الذي لا يباع

أصون حسني رغم أنف الزمان/ ما أحقر الحسن الذي لا يصان

في الجزء الأخير من قراءتنا السريعة لمجموعة شاعرنا الشرابي، أود التوقف عند جانب مهم لم ألمحه ولم أقف عليه في مجموعتيه السابقتين اللتين أشرت إليهما آنفاً، أعني به الجانب الذي يقارب به الصوفية ـ إن صح التعبير ـ إنه في أكثر من قصيدة وفي ثنايا الكثير من القصائد شف إلى روحانية خاصة يحاكي من خلالها ابن الفارض وعمر الخيام وسواهما. . . الذين كانت السماء ملاذهم وكان في صفائها ونقائها راحتهم وسرورهم.

في خاتمة قصائد مجموعته «صلاة» يضرع شاعرنا إلى الله ويسأله أن يمنحه الراحة الأبدية:

ربي. . . سألتك بالصباح
يهل من شرف السماء
إن تسكب الوحي البهيج
على جبيني والصفاء
فأسير إن ران الضباب
وجنّ إعصار الشتاء
وأعيش لا أشدُ بغير
الحب أو نغم الرجاء

وفي القصيدة نفسها يحاكي ايليا أبو ماضي في (طلاسمه) قائلاً:

ماذا أنا/ قلب يثور/ يحب من غير انطفاء

ماذا أنا/ عقل يفتش/ عنك في حجب الخفاء

ابداً إلى المجهول/ ظمآن. . . إلى سر السماء

ويختمها بالطلب من الله أن يسكب على روحه ندى الإيمان ويهديه سبل الضياء لينعم بالصفاء ويمتلئ فؤاده بالمحبة. . .

وتتجسد هذه النغمات الصوفية، مجدداً، في الأبيات الثلاثة الأخيرة من قصيدته (اماه) عندما يقول:

هـــــذي الحيـــــاة مهـــــازل

والمـــــوت مهزلـــــة اليقـــــين

امـــــــاه إن أزف الفـــــــراق

المـــــر واحترقـــــت جفـــــوني

فتـــشجعي، فـــي النـــور موعـــدنا

المقـــــدس بعـــــد حـــــينِ

ويعبّر شاعرنا صراحة في قصيدته (حولك حسن) التي أهداها لعمر الخيام عن هـذه المعاني التي أشرنا إليها في المضمار الصوفي ولاسيما بقوله:

حـــدّق تـــرَ الكـــون وذراتـــه

فينـــا وفيمـــا حولنـــا جاريـــه

وجودنـــا حلـــم وأقـــدارنا

رائحـــة فـــي غيبهـــا غاديـــه

وأيضاً في قصيدته (مساء صوفي):

آه لو أستطيع أن انفك/ من أسر الجماد

ثم اسمو في الدجى ضلعاً فضلعا/ والنجوم الصفر تسعى

خلف مجهول الرماد/ وأحاسيسي صلاه

تشتهي/ لو تنتهي/ عند الاله

على مدى حياته الأدبية، عاش شاعرنا كمال فوزي الشرابي وعايش محورين أساسيين: الوطن والمرأة، وقد أعطاهما من ذاته وروحه الشيء الكثير... لقد أدمن شاعرنا عشق الوطن وجسّده قصائد مفعمة بالصدق من خلال (الحرية والبنادق) واحتلت المرأة كيانه فرسمها لوحة، بل لوحات رائعة، في (قبل لا تنتهي) وبين مجموعتيه نظم أشعاراً غنائية شدت بها أصوات: نجيب السراج وسحر وأنعام صالح وأحلام ونازك وعبد الرزاق محمد زادتها شفافية وأصالة.

في (الحرية والبنادق) الذي صدر عام ١٩٧٢م غنّى شاعرنا الوطن ورسم بالكلمات عشقه الكبير للوطن وحرية الوطن... وفي استهلاله لمجموعته هذه ـ الذي يعتبر جزءاً من تكوين الشاعر وثقافته وإيمانه المطلق بالحرية ـ يورد مجموعة من الأقوال المأثورة لأحرار العالم الذين نادوا بالحرية وتغنّوا بها وقضى بعضهم شهيداً في سبيلها بدءاً من كنفوشيوس ومروراً بعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطاغور وعبد الرحمن الكواكبي وليس آخرهم سلامة موسى وخالد محمد خالد... ويهدي مجموعته (إلى كل إنسان يؤمن بأن حريته هي حرية

الآخرين) وهو يعيش في منفاه على طيب الذكرى لوطنه ويعتلج الشوق في نفسه توقاً للقياها:

أعـيـش نفيـي علـى أطيـاب ذكراهـا

وأشـعل البعـد مـن شـوقي للقياهـا

بـلادي الخلـد كـان الخلـد لعبتهـا

وكـان كـل جمـال مـن هـداياها

وفي مواضع كثيرة من مجموعته يعرب عن حبه الأبدي اللامتناهي لدمشق الحبيبة، دمشق الخالدة مهوى الأفئدة... يتغنى بنسيم غوطتها ويتنقل في أزقتها وحواريها يتنسم روح الحياة ويجثو على ركبتيه مقبلاً ترابها الندي الطاهر متمسكاً بقاسيونها العتيد ممجداً حريتها وكرامتها:

حب قسيون ودمر

مصحف في القلب يحفر

أترى بالشام أسمر

قبل أن يأزف حيني

وفي (قبل لا تنتهي) الذي صدر عام ١٩٦١م يرسم شاعرنا بأسلوب رمزي أحياناً وواقعي في أحيان أخرى صوراً لعلاقة الرجل بالمرأة، تلك العلاقة الإنسانية التي تزكو مع الأيام وتتجدد في إطار من العشق الأبدي... إن قصائده في هذه المجموعة لوحات تضج حيوية وعطراً وتلألأ إشراقاً وزهواً فالمرأة عنده هي الأم والحبيبة والأخت ونبع العطاء

الذي لا ينتهي معبرة عن الإعجاب والحب والتقدير . . . فالسويعات تطيب بلقياها ويثني عليها مرحباً بقدومها مستبشراً لمجيئها:

. . . وحين تجيئن، يا حلوتي

يجيء الربيع إلى غرفتي

وتغزل روحيَ في فرحتي

بأشواقيَ الحمر أغنيتي

وفي (رسالة إلى أمي) والتي لا يخص بها أمه فحسب بل يهديها إلى كل أم في بلاده يقول:

أأماه ما زال يمثل في خاطري

وفي مرتمى النور من ناظري

رحيلي الأخير

وكيف شعرت بأني تركت لديك

على كل قبله، على وجنتيك، وملء يديك وجودي كله

كعادته كان يتتبع ما يجري في غزة لحظة بلحظة، وكان يؤلمه كما آلمنا جميعاً، ذلك الاعتداء السافر، الاعتداء الصارخ على الطفولة والأمومة ومقدرات الحياة. . . كانت تسحق كيانه تلك الغارات الإسرائيلية الشرسة التي لم يكن هدفها إلا اغتيال الأمن والسلام بآلة صماء قذرة صمّت آذان العالم منها. ولم تلق تنديداً إلا من أحراره وشرفائه.

تمادى العدو بصلفه وهمجيته وبغيه فأتبع هجماته الجوية بقوات

برية حصدت المزيد من أرواح الأبرياء، حتى ضاقت المشافي بهم وقصّرت مستلزماتها عن تضميد جراحهم الثائرة ونفوسهم الأبية. . .

آلمه تلك المشاهد المروعة والصور النازية التي نالت من أجساد النساء والأطفال فجعلتها أشلاء، ولكنها تنبض بالمقاومة والكبرياء.

كمال فوزي الشرابي المرهف الإحساس الذي غنّى الجمال والحرية على مدى سبعة عقود من عمره، والذي نظم قصائد الحب والورد للإنسان، لم يحتمل قلبه تلك المجازر التي تغتال الأمل وتقتل الحرية فضاق صدره وتوقف قلبه عن الخفقان، الذي طالما خفق بحب الوطن وعزته وكبريائه. . .

على الفور حضرت في ذاكرتي تلك الرسالة التي بعث بها منذ ثمان سنوات إلى صلاح الدين:

أطلت عنا غيابك

متى تعود أجبنا

صهيون داست رحابك

والغرب يثأر منّا

يا فارساً لا يُارى

يا عبقري زمانك

تظل أنت المنارة

فجد ببعض أمانك

المآذن تبكي والنواقيس تشتكي

ونحن في كف العدو ألعوبة

يـومنا سوء العذاب

النفط يسرق

والحق يغرق

فأين أنت يا صلاح الدين

أدعوك باسم الطفولة

باسم النساء الثكالى

أجج لهيب البطولة

إننا نموت اغتيالاً

إنهـا ومضات وإضاءات استوقفتني مع شاعرنا الكبير، أو شاعرنا الأثير، كما كان يخاطبه وينديه الشاعر الكبير نزار قباني.

ويلاحظ المتتبع لشعر كمال فوزي الشرابي، الذي تلقى علومه في الكلية العلمية الوطنية، اهتمامـه بالمبنى والمعنى فألفاظه رقيقة مختارة ومعانيه جميلة منتقاة وجمله تصويرية تشع عذوبة وسلاسة، ولا ريب أن ثقافته الإفرنسية، إضافة للعربية، أفادته في كل ذلك، وقد تبلور كل ذلك من خلال نشاطـه الصحفي عبر مجلات ساهم في إصدارها كالصرخـة والقيثارة...

❐❐❐

عادل أبو شنب

حكواتي الفن

عادل أبو شنب
حكواتي الفن

ولد عـادل أبـو شنب في دمشق عام ١٩٣١م من أب سعودي وأم دمشقية، ودرس مراحله التعليمية جميعها في سورية. وترعرع في كنف أخواله بحي القيمرية، هذا الحي الذي يتوسط عدة أحياء بدمشق، والذي كان معبراً من باب توما إلى سوق الحميدية مروراً بالجامع الأموي.

وفي إشارة إلى العوامل التي دفعت بـه إلى عالم الأدب والكتابـة يتساءل[1]:

هل السبب أنني نشأت في بيئة تجد القراءة واحدة من المتع المتوفرة للفقراء؟ ربما... ! ولكن هناك سبب آخر، فعلى مدى عام كامل انتظرت شقيقي التوأم ليحصل على الشهادة الابتدائية، وخلال هذه السنة، ربما بسـبب الفقر، وربما بسـبب قتـل الوقـت، عملت لدى المحامـي فؤاد الخيـاط، الذي كـان يقرأ كثيراً، وكـان يأتـي بمجلات وصحـف رائعة (الرسالة، الثقافة، أخبار اليوم...) ولعل اطلاعي على هذه المجلات،

---

(١) في حوار مفتوح في (جمعية الشبان السريانية) ١٩٩٥م وآخر في ندوة كاتب وموقف ٢٠٠٣م.

إضافة لارتيادي المكتبة الظاهرية، التي قرأت فيها شوامخ الأدب العربي والمترجم، مكنني من التعرف على أنماط من الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية. . .

وعن الأسباب التي حدت به ليمارس أنواعاً متعددة في الكتابة تتراوح بين القصة والرواية والدراما والصحافة وإعداد البرامج، يقول: في بداية الخمسينات وجدني الأمير يحيى الشهابي مهتماً بالأدب، واكتب القصة فشجعني ودفعني للصحافة، ومنذ ذلك الوقت ترافقت دراستي مع عملي، وانصب اهتمامي على أنواع متعددة من الكتابة فكتبت القصة القصيرة، وأذعتها، وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة من عمري، وكتبت للإذاعة، ومن ثم للتلفزيون وللصحافة، وكتبت في الفلكلور والتاريخ الفني، وكتبت للأطفال. . .

كانت البداية، صحفياً، مع جريدة (الوحدة) التي رئس فيها القسم الثقافي. فكانت الصفحة الثقافية مجلة في صفحة فأفاد من هذه التجربة كثيراً وكررها، لاحقاً، في جريدة (الثورة) ومن ثم في (تشرين) التي شارك في تأسيسها. ويذكر أنه اسهم منذ العام ١٩٦٨م في تأسيس مجلة (أسامة) وألف، في إطار أدب الأطفال، مسرحية (الفصل الجميل).

في إطار إعداد البرامج، طلب منه د. صباح قباني أن يعد مجلة التلفزيون فتملك، من خلال ذلك، أدوات الكتابة فكان مسلسل (حكاية حارة القصر) الذي كان محلياً في كل شيء: تأليفاً وتمثيلاً وإخراجاً.

ومـن بعد، كـان مسلسل (فوزيـة) و(هـذا الرجل في خطـر) و(وضاح اليمن).

إذاعياً، وبتشجيع ممتاز الركابي، كتب أبـو شنب أكثـر من مائتي تمثيلية وخمسة وعشريـن مسلسلاً: أهـل الكهف، الزيـر سالم، حمزة البهلوان، وردة الصباح، أشهر الحضارات في التاريخ... بث بعضها على أثير الكويت، السعودية، ولندن...

وكنت قد أجريت في ت١ من العام ١٩٩٥م حواراً مع الراحل أبو شنب[1]، تساءل بقوله: من أين أتتني هذه الموهبة لأكون معداً لبرنامج تلفزيوني. ويروي القصة التالية: جاءني د. صباح قباني وقال اخترناك لتكون أول معد لبرنامج محلي في التلفزيون، يكتب البرامج كما يلي: ثلث الورقة إلى اليمين للصورة وثلثاها للنص والحوار... ولا أكتمكم ـ يضيف الأستاذ أبو شنب معلقاً ـ إنها كانت محاولات ساذجة في البداية ولكن الناس في غمرة الحماس الهائل لإنشاء تلفزيون وطني كانوا يتقبلونها ولاسيما أن البث ـ كما هو معروف ـ كان على الهواء مباشرة، وتمكنت من هـذه الحرفة واسميها حرفة، فطلب إليّ كتابـة مسلسل محلي فكان (حكايـة حارة القصر) الذي كان في الحقيقة محليـاً في كل شيء تأليفاً وتمثيلاً وإخراجاً... ومن طريف ما يروى أن المخرج كان بانتظار الحلقة لأنتهي من كتابتها فيدفع بها إلى الممثلين... يا لها من ذكريات جميلة

---

(١) جريدة تشرين.

تنطوي على نـوع من الجموح والتحدي. . . ثم كـان مسلسل (فوزيـة) و(هذا الرجل في خطر) . . . وغيرها كـ (افتح يا سمسم) و(وضاح اليمن) ويفيض أديبنـا بأسباب هـذه التعدديـة الثقافيـة ـ إن صح التعبير ـ بأنهـا كانـت وليدة الحاجـة وهـي ليست مسألة جيـدة في عصـر الاختصاص ولكن الظروف فرضـتها فأديـنا ـ كما يقول عن نفسه ـ حاد المزاج نزق، عنـده إحساس بكرامتـه إلى درجـة كبيرة وبالتالي فهو كان يحرد عندما يتضايـق، ينحسر في فن أدبي ليجد نفسـه في آخر وهو في كل الأحوال ـ والحمد لله ـ مجوّد في النوع الذي يعمل.

وعن الهاجس الذي عاش في صـدر أديبنـا منذ حمل القلم يقول: آليت على نفسي أن أساهم في الحركة الأدبيـة ـ الفنيـة وأطوع إدراكي، حتى لا أقول مواهبي في خدمة الفكر والثقافة والأدب بشكل عام، وعلى الآخرين أن يقولوا رأيهم فاحترمه وعليهم في الوقت نفسـه، أن يحترموا رأيي.

وعن صراع الأجيال في الأدب والثقافـة، يقول الأستاذ عادل أبو شنب يجب أن يكون هناك صراع بنّاء وخلاّق ويجب أن لا ينقطع الحوار بين الأجيال وأنـا لا أدعوا إلى المصالحة وعلى كـلا الجانبين أن يتفهم الجانب الآخر، وصراع الأجيال ظاهرة صحية ولا ريب أن لها آثاراً فعالة ومنتجة.

وعن الزاوية التي يكتبها الأستاذ أبو شنب في جريدة تشرين قال:

أحاول من خلال زاويتي رصد المتغيرات التي تحدث في المجتمع باستمرار، الزاوية بشكل من الأشكال، هي امتداد لـ (دمشق أيام زمان).

في كتابه (ملامح في الرواية السورية)[1] يتناول سمر روحي الفيصل بالتحليل رواية (وردة الصباح)[2] لعادل أبو شنب مشيراً بأنها تحتل منزلة خاصة في أثناء الحديث عن مجتمع الروايات السورية كونها حققت المعادلة الصعبة بين المضمون والشكل. ومن الواضح أن بساطتها تجعل المرء يفكر مرتين قبل الولوج في تحليلها، لأن البساطة مطلب فني عسير يكمن وراءه جهد من العقل والخيال، وهو في أقل تقدير دليل على فنية الرواية، وفي الظن أن عادل أبو شنب حريص على مسألة إيصال عمله إلى الناس بمقدار حرصه على التأثير الفني فيهم، ومن هنا راح يدقق في عمله، ويغذيه بأسباب النمو، حتى استطاع تحقيق هذه الرواية...

تنصرف رواية (وردة الصباح) إلى تصوير شقاء ماسحي الأحذية، على أنهم فئة مستفكة تتوضع في الدرجات السفلى للسلم الاجتماعي في المدينة، وتروح، من خلال هذا التصوير، رسم صورة بانورامية لمدينة دمشق...

يخيل للمرء أن الرواية، كما يقول الفيصل، تؤمن بأن الإنسان خيّر

---

(١) منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٩م.

(٢) منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٦م.

بطبيعته، وأن الشر طبقة تتوضع على السطح بفعل عوامل اقتصادية أو اجتماعية معينة، ولعل امتلاك (أسعد) لصندوق بويا خاص به هو الدليل على إيمان الرواية بالخير الكامن في وجدانات الناس. . .

إن الأجزاء الحوارية التي استخدمها عادل أبو شنب في الفصول التي اصطنعت ضمير المخاطب كانت أجزاء محكمة مدروسة بعناية مما يجعلها نموذجاً صالحاً لتطوير الحوار الروائي وقدرته، في أحايين كثيرة، على الانتقال من كونه وسيلة فنية مساعدة إلى كونه وسيلة فنية أساسية. . .

في مجال الدراسات أصدر عادل أبو شنب (بواكير التأليف المسرحي في سورية)[1] والذي دفعه إلى ذلك: إعادة الاعتبار إلى المسرح كفن أدبي، وتقديم بواكير النصوص المسرحية والمحاولات المبذولة في التأليف للمسرح، وتسليط الأضواء على نصوص أدبية كتبت للمسرح، وساهمت ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ في تطوير فن الكتابة المسرحية في سورية. . .

وقد استطاع أبو شنب، متكئاً على جملة من المصادر والدوريات، بيان هوية المسرح في سورية من خلال رصد تاريخي موثق، والتأريخ لبواكير التأليف المحلي المسرحي، مفنداً القول في (خليل الهنداوي) الذي يعتبر واحداً من رواد التأليف المسرحي في سورية، ملقياً الضوء

---

(١) منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٨م.

على المسابقة الأولى في التأليف المسرحي التي أطلقتها مجلة (النقاد) الدمشقية. . .

وتجدر الإشارة أن المؤلف ضمّن كتابه نصوص أربع مسرحيات هي: تتويج فيصل لعبد الوهاب أبو السعود، الشيخ تاج لأحمد تقي الدين، المتمرد لمحمد حاج حسين، ومشكلة راتب لمراد السباعي.

في عام ١٩٩٠م أصدر عادل أبو شنب كتابه (دمشق أيام زمان ـ ذكريات وصور من الدمشقة)[١] وقد حفل الكتاب، إضافة لموضوعاته التي تعتبر مرجعاً توثيقياً للعادات والتقاليد الدمشقية، بعدد من الصور الضوئية التي أغنته وزادته تألقاً. ويهدي المؤلف كتابه لروح شقيقه التوأم محمد، الذي رقد بعيداً عن دمشق على الرغم منه، وكالعادة، يحدد في الصفحات الأولى لكتابه دوافع التأليف في هذا الموضوع في إطار حواره مع دليلته الهنغارية، التي سألته: من أين؟ فأجابها: من منطقة حافلة بالحضارة والفن، تاريخها قديم، أقدم من كل تاريخ، وناسها اليوم هم أحفاد أولئك الذين شبوا على العالم علماً وفناً ومعتقداً وثقافة، دمشق أقدم مدن العالم المأهولة. . . قصة (دمشق أيام زمان)، ولّدت في خاطري، كما يقول أبو شنب، التغيير الذي حدث في المدينة، واكتشفت أن المدن العظيمة هي المدن التي تتغير. هي المدن التي تشيخ ولا تموت، أن دمشق باقية لأنها قادرة على تغيير أثوابها بما يلائم روح

---

(١) الشام للدراسات والنشر.

كل عصر، وأن هذه من خاصيات مدن قليلة في هذا العالم الواسع المملوء بالمدن الميتة. إن مدينتنا الخالدة خالدة بنهوض أبنائها، بين حين وآخر، لرصد متغيراتها، والتاريخ لما كان فيها من أقوال وأفعال وسلوكيات وعادات وأدوات...

في كتابه (دمشق أيام زمان) يرصد الحياة الدمشقية بأوجهها المختلفة والملونة بدءاً من العادات والتقاليد، مروراً بالتعبيرات والمصطلحات والكنايات والطب والكتّاب والمندل والأسواق والمقاهي والموسيقا ورمضان والعيد والحكواتي والحمامات ووسائل التواصل والمواصلات... وإذا أشرنا أن المؤلف افتتح كتابه بكيفية توثيق المواليد[1]، تأريخاً، على صفحات القرآن الكريم، توقعنا إلى أي مدى يبحر بنا عبر صفحات كتابه...

ولعله من المفيد الإشارة أن المؤلف أهداني بتاريخ ٢٢/ ٩/ ١٩٩٥م كتابه وشرفني بما خطه يراعه: ... محبة متدمشق إلى دمشق ودمشقي.

على امتداد عمره التقط عادل أبو شنب مشاهد وأقوالاً وحالات ضاحكة فيها سخرية ظرف جمعها في كتابه (شوام ظرفاء)[2] وقد أهداه إلى جميع الشوام الظرفاء الذين حملوا البسمة إلى شفاه الناس...

---

(١) ولد في ٣٠ تموز ١٩٣١م.

(٢) دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ٢٠٠١م.

ويأتي ثبت الأعلام والأماكن الذي ذيّل به كتابه ليعطي الكتاب غنى إضافياً يفيد القارئ ويوثق لقرن من الزمن تقريباً.

سبق مميز يسجل للمنتدى الاجتماعي بدمشق الذي دعا لحوار مع الأديب عادل أبو شنب مع صدور كتابه (كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام)[1] الذي حققه لمؤلف مجهول يدعى محمد الكردي ـ خادم أموي حلب ١٨٩٣م. ويبدو أن هذا المؤلف، القادم من حلب، كان في مهمتين، مهمة خاصة لم يفصح عنها ومهمة (كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام) التي فجّرت قريحته فكتب مقولة بهذا العنوان عنها، عدت فريدة عصرها في القدح بدمشق وذمها، وسب أهلها، ولكن ـ سامحه الله ـ فكر أنه أتاح لنفسه أن يقيم في دمشق مدة كافية لينقلب رأيه فيها من الضد إلى الضد. . . يبدو أن رجلنا الحلبي تعهد ألا يقيم طويلاً في دمشق خوفاً من أن تدمشقه فيغدو من أسراها، مقيماً ومجاوراً، ناسياً أهله وبلده. والدمشقة ـ هنا ـ ليست تدمشق وعالحيط تعمشق بل هي انتماء إلى دمشق بكل الجوارح، هي حب خارق يعرفه المتصوفة الذين على باب الله. . .

ويفنّد أبو شنب، من بعد، أسباب حمل الرجل على دمشق والدماشقة.

وفي العام ٢٠٠٤م يصدر أديبنا عادل أبو شنب كتاباً يحمل عنوان

---

(١) دار الشموس ٢٠٠٣م.

(أدعوك إلى الإسلام ـ رسالة محمد ﷺ إلى هرقل ملك الروم)[1]. ويسرد ذلك بأسلوب قصصي. وقد اعتمد في ذلك على مراجع تنهض بتاريخ الرسالة، لكن المخيلة سدت الثغرات التي كانت في تلك المراجع ليجذب القارئ بما لا يتنافى مع الأمانة المتوخاة في الوثيقة. وقد أهدى كتابه هذا إلى زوجه (نادية السمان) التي ساعدته، دائماً، في النهوض إلى مهمة الكتابة...

وعندما أصدر أبو شنب دراسته (أحمد أبو خليل القباني ـ رائد المسرح الغنائي العربي)[2] هدف إلى وضع القباني في مكانه الصحيح رائداً مسرحياً، وخالقاً فذاً من أشكال التعبير المسرحي العربي. حيث تناول، إضافة إلى الظواهر المسرحية، الولادة والظهور والنجاح والانتشار وأفعال القباني ورحلاته إلى مصر وأمريكا، والثورة التي نشبت ضده، كل ذلك من خلال شهادات ووثائق لا يرقى إليها الشك...

وبعد كلمة شكر للدكتور صباح قباني، الذي قدّم وثائق هامة أغنت الكتاب، يهدي عمله للدكتور الراحل إبراهيم الكيلاني، الذي زوّده بالرسالة المكثفة بخط أبي خليل القباني.

بتاريخ ٢/ ٣/ ٢٠٠٥م في مقهى الروضة، قدّم لي الأستاذ عادل أبو شنب أحدث نتاجاته المطبوعة رواية (ذكر السلحفاة) ووشحها بإهدائه

---

(١) دار الشموس ٢٠٠٤م.

(٢) دار الشموس ٢٠٠٥م.

التالي: إن معاناتك هي جزء من معاناتي في حمل آلام الوطن والشعب، وضوء القبس مني ومنك.

يقول الأديب ياسين رفاعية: (ذكر السلحفاة) رواية جريئة بكل ما فيها من هم اجتماعي واقتصادي وسياسي، وهي الرواية الثالثة للكاتب وكان قد بدأ حياته في الخمسينات كاتباً للقصة القصيرة، وأول مجموعة أصدرها عام ١٩٥٦م بعنوان (عالم ولكنه صغير) كانت منعطفاً كبيراً لمسيرة القصة القصيرة في سورية. وتجيء رواية (ذكر السلحفاة) تتويجاً لكل إبداعاته، مجسدة آلام الناس وهمومهم، وتناقضات المجتمع والأعراف التقليدية الصارمة، التي كانت تقف سداً في وجه تحقيق الأحلام، من أجل سمعة العائلة أو القرية أو المدينة. رواية ممتعة وحزينة في آن استخدم فيها عادل أبو شنب تقنية جديدة عالية القيمة، وبأسلوب مختلف عن كل ما نقرأ في الرواية السورية، وبلغة قد تبدو، في سردها، بسيطة، لكنها توحي بعمق شديد التأثر والإيقاع...

بقي أن نشير إلى جملة من إصدارات أدبنا، على مدى حياته الحافلة: زهرة استوائية في القطب، الثوار مروا ببيتنا، أحلام ساعة الصفر، الآس الجميل، مسرح عربي قديم، حياة الفنان عبد الوهاب أبو السعود، كان يا ما كان، من معارك النقد الأدبي في سورية في الخمسينات، صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية، الأول والأخير، اغتيال ملك الجان، معطف الإخفاء، الطفل الشجاع، هالوليا...

ويلاحظ المرء تنوع إبداعات الراحل وتعددها، ويذكرني بسؤال طرحته عليه: هل يمكن فهم التعددية الثقافية لديك استجابة لمتطلبات السوق؟ فكان جوابه: لا ريب بأن التعددية تعطي نوعاً من الشخصية المتميزة، وهي لا تحصر الإنسان بالتخصص الضيق، وأنا في تركيبي الشخصي لا أستطيع مطلقاً أن أعرض نتاجي على أحد. . . أنا لم أحمل أي نص وأذهب به إلى أية مؤسسة إعلامية أو ثقافية. . . لقد صانتني التعددية من تقديم نفسي. . .

وقد أكد، في غير مرة، على علاقة إبداعاته بشخصه، وكان يردد قول الصافي النجفي:

قلت شعري مرآة روحي

فإن كان قبيحاً فهل أغيّر روحي

وأود الإشارة إلى شيء مهم ونوعي، بصدد مجموعته (الثوار مروا ببيتنا) فقد تصدّرت كل قصة من قصص المجموعة لوحة فنية لفنانين كبار: نعيم إسماعيل، إلياس الزيات، هشام زمريق، فاتح المدرس، لؤي كيالي، محمود حمّاد، وعبد القادر أرناؤوط الذي صمم غلاف المجموعة وكتب خطوطها!

وعبر دكتاتورية الذاكرة[1]، بجزأيها، دوّن أبو شنب ذكرياته في الفن والسفر، ونقتطف بعضاً مما قاله في مقدمتيهما:

---

(١) دار الشموس ٢٠٠٦ و٢٠٠٨م.

مارست الفن ممارستي للأدب والصحافة. كانت مسيرتي واحدة في الأنواع الثلاثة، فرض عليّ أن أنهض للفن منذ نعومة أظفاري، كان كل شيء في بداية الثلث الثاني من القرن العشرين موحياً وجاذباً لي لأرى وأتعلم وأحاكي، وكانت ندرة الذين ينهضون للفن والكتابة وللأدب في زماني الأول حافزه لي أن أتعدد فأمارسها جميعاً، إما لموهبة دفينة ولدت معي، أو لأن الظروف قادتني إلى ممارستها، أو لأنني وجدت فيها مجالاً للعيش، فصارت كاراً، كما هي الحال مع الصحافة، أو أن ديكتاتورية الذاكرة ألحت أن أكتب فكتبت هذه الذكريات لأنني تذكرت، وأتذكر ولا أنس قط إلا قليلاً. . .

لم تكن رحلاتي وأسفاري إلى اليابان والصين وسنغافورة وباكستان ومعظم الدول العربية، والأمريكيتين، وأفريقيا، وأوروبا رحلات استكشاف جغرافية فحسب، بل كانت رحلات بحث عن العلم والثقافة والمعرفة وحضارات الشعوب أيضاً. . .

أواخر العام ٢٠١١م دعاني، أثناء إجازتي في سورية الحبيبة، للقائه في مقهى الروضة، ومن ثم في منزله قرب حديقة الجاحظ، حيث أجرى معي حواراً، في إطار الحوارات التي يجريها مع الأدباء والفنانين وينشرها في مجلة المعرفة السورية منذ فترة طويلة. . .

ويوم السبت ٢٦/ ٥/ ٢٠١٢م هتفت لمنزله للاطمئنان عن صحته وتحديد موعد لعيادته يوم الاثنين ٢٨/ ٥/ ٢٠١٢م ولكن يد الموت كانت إليه أسبق عندما نعاه اتحاد الكتاب العرب، في الهزيع الأخير من

ليل ٢٧/ ٥/ ٢٠١٢م، على شاشة التلفزيون العربي السوري بقنواته . . .

ونحن في رحاب جامع بدر عصر الاثنين ٢٨/ ٥ للمشاركة بتشييع الراحل الكبير كانت أحاديثنا، الدكاترة راتب سكر، نزار بني المرجة، منير الجبان، ومأمون السمان، ممزوجة بالحزن والألم والاعتزاز بما تركه الراحل الكبير من إرث ثقافي إبداعي متنوع ستنهل من معينه الأجيال، كما نهلنا، على مر السنين . . .

❐❐❐

ليلى الصباغ

منهجية الدراسات التاريخية

ليلى الصباغ
منهجية الدراسات التاريخية

لقد أعملت أ. د. ليلى الصباغ فكرها التاريخي الذي اتصف بلمحات مجتمعية، وأخرى اقتصادية، إلى جانب دراسات في الأدب العربي، وفي الحضارة العربية الإسلامية، كما أنها أعطت للمرأة العربية حقها تاريخياً ومعاصرة، وكانت نظرتُها عصريةً فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة وبين مسارات المؤرخين العرب القدامى. كما درست أحداثاً هامة لم يتطرق إليها كثير من المؤرخين. ولا ريب أن نتاجاتها تتسم بالعمق والتنوع، مضافاً إلى تميزها في المستويات التدريسية المختلفة التي تولت مسؤوليتها، وانفتاحها الثقافي الواسع... وقد كان ذلك كله مشفوعاً ومنطلِقاً من همة عالية حملت لواء الإخلاص للعلم، وتجرد في خدمة ثقافتنا العريقة...

كانت أ. د. ليلى الصباغ تسعى جاهدة لتصحيح مسار التاريخ، وسرد الحقائق، ودفع الشبهات، حفاظاً على تاريخ الأمة وحرصاً على منهجية البحث العلمي، وهذا ما جعلها تتربع على عرش العلم، ويقرُ لها بالفضل من عرفها أو تناهت إلى سمعه سمعتها الطيبة...

كانت أ. د. الصباغ، وستبقى، علاّمة وعلامة بارزة في الريادة الفكرية، جمعت بين الأدب والتاريخ، بمنهجية علمية صارمة تأريخياً وتحقيقياً، لا تتوانى عن البحث في أدق التفاصيل، متعمقة فيها غير عابئة بالصعوبات التي تعترض طريقها، حريصة على مواكبة العصر غير مبتعدة عن الجذور. . . وقد جعلت التاريخ لا ينفصل عن المؤرخ، فهو مكتوب بجهد المؤرخ ويبرز صفاته الفكرية والخلقية، ولكن يجب أن يضاف إلى ثقافة المؤرخ ذكاؤه ومقدرته على التخيّل، وسلامة المحاكمة لديه، والفكر النقدي السليم لاكتشاف الزيف والخطأ والكذب. . .

ولدت ليلى الصباغ في دمشق عام ١٩٢٤م، وتوفي والدها في رحلة الحج وهي لمّا تزل جنينة في أحشاء والدتها فأمضت سني طفولتها الأولى مع شقيقها فيصل وشقيقتها حياة في بيت جدها لأمها أحمد الأبرش.

حصلت على القسم الأول من بكالوريا التعليم الثانوي عام ١٩٤٢م، وعلى القسم الثاني منها (فرع الفلسفة) عام ١٩٤٣م، وحصلت على الليسانس بالتاريخ بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة (فؤاد الأول) عام ١٩٤٧م موفدة. وعلى الماجستير بتاريخ العرب الحديث بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٦١م. وعلى الدكتوراه بتاريخ العرب الحديث، أيضاً، بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٦٦م.

وكانت قد درّست التاريخ في المدارس الثانوية ودور المعلمات بدمشق في الفترة ما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥٤م. وتولت إدارة العديد من

المدارس الثانوية بدمشق (منها ثانوية البنات الأولى، والثانية) في الفترة ما بين ١٩٥٤ ـ ١٩٦٣م وفي غضون ذلك ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠م ألقت أحاديث عن الثقافة العربية والتاريخ ومقومات الشخصية العربية في الإذاعة السورية. إضافة إلى المحاضرات والندوات في الجمعيات الثقافية.

ومن أبرز الموضوعات التي تناولتها في أحاديثها الإذاعية أو في محاضراتها أو كلماتها التي ألقتها بمناسبات مختلفة:

ـ عظماؤنا
ـ الأعياد في حياتنا
ـ المرأة والتعليم
ـ مسؤولية الأسرة في تعليم الفرد
ـ ولد أم بنت
ـ عالم المثل عن أفلاطون
ـ تعليمنا الخاص
ـ مفهوم الوجود في الشرق الآسيوي
ـ دور المرأة الجديد في تثبيت أركان الاستقلال الوطني
ـ مشكلة الطالبة في المرحلة الثانوية
ـ أعدي طفلك للذهاب إلى المدرسة
ـ الجيل القديم
ـ أوراق العشب
ـ رفاهنا المادي
ـ عرب ومؤمنون
ـ ركودنا الحياتي
ـ ماض وحاضر
ـ حرب وسلام
ـ في الذكرى الخامسة لاغتيال عدنان المالكي
ـ في ذمة التاريخ
ـ المرأة في صقلية العربية

أوفدت إبانهـا لمدة سنة إلى القاهرة للإطلاع على أوضاع التعليم فيها بعد إتمام الوحدة عام ١٩٥٨م.

ومما قالته في كلمة وداعها بمناسبة مغادرتها ثانوية البنات الثانية:

. . . يبلغ الثقل العاطفي لدى الفرد أحياناً مده الأعظمي فيستغرق ذاته، ويغرق مآقيه بالدموع بل ويخدر حركته. وإنني لأشعر اليوم بمثل ذلك الثقل العاطفي، الذي لن تخفف منه الدموع مهما فاضت، أو الكلمات مهما فصحت. . . وما كنت يوماً ـ أي إخوتي ـ بمؤمنة أن الكلمات ـ مهما حُمّلت من معانٍ يمكنها أن تعبر بصدق عن سعة إحساسات الفرد أو عمقهـا، ولذا فإنني لاعتذر إليكم لأقول: إن كلماتي المقتضبة هذه تبدو في الواقع ذابلة أمام توهج عواطفي وثقل نفسي، وأمام ما أغدقتموه عليّ من صفات، لا أعتقد أنها تميز ذاتي عن غيري، وإنما هي صفاتكم الطيبة ألبستوني إياها، وذابلة أيضاً أمام هذه الحفاوة الواسعة بي، التي أراها فضفاضة على شخصي.

في الفترة ما بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م سمّيت المفتشة الأولى للتاريخ والجغرافية في وزارة التربية.

وفي الفترة ما بين ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨م اعيرت أستاذة للتاريخ في جامعة الجزائر.

في الفترة ما بين ١٩٦٨ ـ ١٩٧١م تولّت عضويـة مديرية البحوث في وزارة التربية.

في مـدارج التدريس الجامعي، عينـت في الفترة ما بين ١٩٧١ ـ

١٩٧٦م مدرّسة في جامعة دمشق، ثم أستاذة مساعدة في قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة دمشق في الفترة ما بين ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨م، فأستاذة في القسم نفسه في الفترة ما بين ١٩٧٨ ـ ١٩٩٣م. . . ومن بعد أستاذة زائرة في قسم التاريخ بجامعة الإمارات العربية المتحدة (العين).

في الشهر التاسع من العام ١٩٨٤م وقع الاختيار على أ. د. ليلى الصباغ لتكون أول رئيس لقسم الحضارة العربية في هيئة الموسوعة العربية، واستمرت لغاية العام ١٩٨٨م حيث طلبت إعفاءها من العمل في الموسوعة لتتفرغ لإنجاز مشروعات كثيرة في ذهنها، وإنهاء نشر عدة كتب من تأليفها، لأن العمل في هيئة الموسوعة يشغل الكثير من وقتها. . .

وبتاريخ ١٠/ ٨/ ٢٠٠٠م صدر المرسوم الجمهوري رقم ١٥٤ بتعيينها عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق بعد انتخابها لهذا الموقع بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٩٨م.

وفي السادس من شهر شباط ٢٠١٣م اختارها الله إلى جواره بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء المتنوع.

* مؤلفات أ. د. ليلى الصباغ:

١ ـ «الفتح» العثماني لسورية، ومطلع العهد العثماني فيها. وهي رسالتها في الماجستير في جامعة القاهرة عام ١٩٦٠م بإشراف الأستاذين الدكتورين محمد فؤاد شكري ومحمد أحمد أنيس، وقد تناولت

فيها، إضافة للمقدمة والخاتمة وأربعة ملاحق وعدد من المصورات والمخططات، ثمانية فصول بحثت فيها: سورية قبل «الفتح» العثماني، أسباب ونتائج «الفتح»، تنظيمات السلطان سليم في سورية، الأوضاع الداخلية في بلاد الشام ١٥١٦ ـ ١٥٦٦ وتنظيمات السلطان سليمان القانوني فيها، الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في سورية.

٢ ـ الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر (العاشر والحادي عشر الهجريين) على امتداد أكثر من ألف صفحة، وعبر ثمانية فصول؛ إضافة للمقدمة والخاتمة، بحثت د. ليلى الصباغ هذا الموضوع، موضوع: الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه من قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة القاهرة تحت إشراف أ. د. محمد أحمد أنيس.

وقد ذكرت د. الصباغ في مقدمة أطروحتها أسباب اختيارها هذا الموضوع: في سبيل إزالة الغبار العالق بالدور الذي قام به شرقي البحر المتوسط، وخصوصاً في بلاد الشام في التطورات التي رأتها مطالع العصور الحديثة، حتى بدا هذا الدور ضعيفاً ومهلهلاً. ومن أسباب الاختيار، أيضاً، الكشف عن الجذور العميقة للاستعمار الغربي الذي بدأ يسيطر بشكل واضح على أجزاء الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين. وأيضاً، إظهار تحول الفكرة الصليبية من مفهومها الحربي الذي سيطر على أذهان الغرب طيلة العصور الوسيطة، إلى مفهومها

الثقافي والفكري. وأيضاً، دراسة ما أسمي في التاريخ بـ (الامتيازات) فهي الوثائق التي استندت إليها الدول في تثبيت جالياتها على أرض بلاد الشام، والتي اعتمدت عليها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية. والتأكيد، أيضاً، أن الاتصال بين سورية والغرب لم ينقطع، فإذا لم يخرج السوريون إلى أوربة فإن أوربة وفدت إليهم عن طريق العديد من مواطنيها بجاليات مقيمة أو سياح أو حجاج أو رجال دين مبشرين. وأخيراً، من أسباب اختيار هذا البحث، تفنيد اندفاع السياح والبحاثة، وهواة التحف والمستشرقون يجوبون أرض بلاد الشام، باحثين وفاحصين ومنقبين، والتي كان بعضها يهدف العلم للعلم، ولكن بعضها الآخر، أو معظمها، كان يمهد لاستقرار دولة فيها، أو لاستثمار خيراتها.

وقد تناولت د. الصباغ في الفصل الأول من بحثها: الأصول التاريخية للجاليات الأوربية في سورية، وفي الفصلين الثاني والثالث: الجاليات الأوربية والامتيازات منذ ضم العثمانيين لبلاد الشام، أما في الفصل الرابع فقد تناولت اسكالات الشام، وهي الموانئ والمدن الشامية التي أقام فيها الأجانب، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكانت محطاً لتجارتهم ونشاطهم. وتناولت في الفصول الخامس والسادس والسابع، بالتتابع، الحياة الاقتصادية والإدارية والاجتماعية للجاليات، وخصصت الفصل الثامن للجاليات الدينية.

وتجدر الإشارة أن د. الصباغ خلصت في نهاية بحثها إلى جملة من نتائج إقامة الجاليات الأوربية في الأطر الاقتصادية والاجتماعية

والفكرية والسياسية. . . وغني عن القول أن هذه الأطروحة التي تضمنت ثبتاً مفصلاً بالمراجع والوثائق والخرائط. وهذا ديدن د. الصباغ بالتوثيق مستفيدة من تمكنها من اللغتين الفرنسية والإنكليزية. قد صدرت في العام ١٩٨٩م في كتاب من جزأين عن مؤسسة الرسالة استهلته أ. د. الصباغ قائلة: . . . وقد يكون بعض ما جاء في هذه الدراسة قد تقاوم، أو سبق باحثون آخرون إلى نشر بعض دراسات حول نقاط محددة من هذا الموضوع، أو بعض مستحدث في ميدانه، إلا أنه مع ذلك فقد رؤي أن نشر هذه الدراسة، وكما أتت، يبقى مفيداً للقارئ والباحث العربيين في تاريخ العرب الحديث، لأنها تعالج موضوعاً هاماً، وتوضح فيه قضايا كثيرة درست متكاملة مع بعضها بعضاً، وفي الوقت ذاته تستثير أبحاثاً أبعد مدى، وأعمق تخصصاً. وتجدر الإشارة إلى الإهداء الموحي الذي صدّرت فيه رسالتها لوالدتها: إلى سيدتي الكاملة أمي.

٣ ـ تاريخ العالم المعاصر (عصر الثورات في أوربة والعالم الغربي ١٧٧٠ ـ ١٨٧١م) وكان مقرراً على طلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ في جامعة دمشق. معرفة، من خلاله، بالعالم المعاصر ومصادره، والحركة الثورة السياسية الأولى (١٧٧٠ ـ ١٨١٥م) والثورة الفرنسية وعهد نابليون بونابرت ومؤتمر فينا وقضية السلام في أوربة مروراً بالثورة الاقتصادية والديموغرافية والاجتماعية والحركة الفكرية فالحركة الثورية السياسية الثانية (١٨١٥ ـ ١٨٧١م) كل تفاصيلها وأبعادها ونتائجها. . .

٤ ـ ملامح التاريخ الإسلامي، وكان مقرراً على طلاب السنة

الثالثة ـ قسم الآثار في جامعة دمشق. ويتناول تاريخ العرب قبل الإسلام، وعصر الرسول، والملامح الكبرى لعهد الخلفاء الراشدين، ومعالم العصر الأموي، ومعالم العصر العباسي العراقي، والنمو والتألق فيه. . .

٥ ـ معالم عصر الخلفاء الراشدين، وكان مقرراً على طلاب السنة الثانية من قسم اللغة العربية. وقد استهلته بمقدمة وافية تناولت فيها أساليب المؤرخين في دراسة التاريخ وتقسيماته وفق وحدات زمنية، أو مكانية، أو بحسب السلالات الحاكمة، أو وفق التقسيم التقليدي العام السائد في دراسة التاريخ الإسلامي عامة؛ والتاريخ العربي الإسلامي منه خاصة، مبينة خصائص كل منها. . .

٦ ـ معالم العصر العباسي، وكان مقرراً على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية، مشيرة في المقدمة، أيضاً، إلى اعتياد المؤرخين ـ عند دراستهم للتاريخ الإسلامي ـ أن يبحثوا فيه تجزيئاً على أساس السلطة السياسية العليا الحاكمة، أو بتعبير أخص: على أساس السلالات الحاكمة، لا التطورات النوعية المختلفة في المجتمع العربي أو الإسلامي كالتطورات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية. . .

٧ ـ تاريخ العالم في العصر الحديث، وكان مقرراً على طلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ. والعصور الحديثة هي قطاع من حياة الإنسانية على سطح الأرض تبتدئ بعام ١٤٩٢م وتمتد حتى الوقت الحاضر. وقد سميت كذلك تمييزاً لها عن العصور التي سبقتها مباشرة وهي العصور الوسطى. أي أن أوربة خاصة، والعالم عامة، قد خرجا من حقبة زمنية

لها خصائصها المعينة في جميع الميادين ليدخلا حقبة جديدة من التاريخ تحمل من الصفات كل (حديث) أو (جديد) وإن كان بعض المؤرخين، إبان الثورة الفرنسية، قد قسّموا العصور الحديثة إلى العصر الحديث، الحقبة المعاصرة. . .

٨ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر، وكان مقرراً على طلاب السنة الرابعة من قسم اللغة العربية. وتفرّق أ. د. الصباغ بين نظرتين لدرس هذا التاريخ:

ـ من زاوية تطورية، أي من زاوية التطور الحديث في المجتمع العربي، أي من مطلع القرن الثالث عشر للهجرة/ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد وحتى الوقت الحاضر. . .

ـ من زاوية زمنية بحتة، دون الالتفات إلى نوعية تطور المجتمع العربي ومداه، أو بتعبير آخر: أن هذا التاريخ العربي الحديث هو مرحلة زمنية تواكب مرحلة العصور الحديثة، باصطلاح المؤرخين الغربيين، ولا تحمل في طياتها بالنسبة لذلك التاريخ أياً من الخصائص التي يضيفها المؤرخون الغربيون على تاريخهم، خلال تلك العصور. وبذلك يتدئ تاريخ العرب الحديث مع بداية تاريخ العصور الحديثة في أوربة، ويمتد حتى الوقت الحاضر، مع تعديل زمني بسيط في هذه البداية يتلاءم مع أحداث التاريخ العربي. . .

وقد تناول الكتاب ـ المقرر في بابين كبيرين: أحوال البلاد العربية

والعالم الإسلامي بين سقوط بغداد ومطلع العصر الحديث، الدولة العثمانية وإمبراطوريتها ونظمها، الأحوال السياسية للبلاد العربية، الاقتصاد العربي، المجتمع العربي، الحياة الثقافية في العصر الحديث. . . ومن ثم: النهضة العربية وسماتها من خلال اليقظة العربية، وضعف الدولة العثمانية، والتحدي الأوربي، وحركة الإصلاح في الدولة العثمانية. . .

٩ ـ دراسة في منهجية البحث التاريخي، وتستهل أ. د. ليلى الصباغ كتابها هذا، وهو من أبرز مؤلفاتها، بمقدمة وافية تستغرق عشر صفحات بدأتها بقولها: إن موضوع (منهج البحث التاريخي) هو جزء من (علم الطرائق) أو (علم المنهجية) الميتودولوجيا. وهذا العلم بدوره فرع من (المنطق) الذي يدرس طرائق مختلف أنواع المعارف، ولاسيما منها طرائق العلوم، ويطلق عليه، أيضاً، اسم (منطق العلوم).

ويمكن تعريف (منهج البحث التاريخي) بأنه مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي، والمؤرخ، للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل دقائقه وزواياه، وكما كان عليه في زمانه، ومكانه، وبجميع تفاعلات الحياة فيه. وهذه الطرائق قابلة ـ دوماً ـ للتطور، والتكامل، مع تطور مجموع المعرفة الإنسانية وتكاملها، ونهج اكتسابها.

وقد تناول الكتاب، عبر فصوله السبعة: التاريخ وتطوره عبر العصور؛ ومنهج البحث التاريخي عند العرب، والعلوم المساعدة للتاريخ، واختيار موضوع البحث، وجمع المصادر، ونقدها، والتركيب

التاريخي، وأخيراً: إنشاء البحث التاريخي.

١٠ ـ المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وهو الشق الثاني من رسالتها لنيل درجة الماجستير، ويبحث في التركيز العثماني على الأرض السورية والأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي رافقته. ويستغرق هذا الجانب أربعة فصول تتعلق بالتنظيم الإداري العثماني لسورية، والحياة الاقتصادية في الفترة ما بين ١٥١٦ ـ ١٥٦٦م، والحياة الاجتماعية، والثقافية. ويؤكد الناشر أن: هناك ثغرات في تاريخ الوطن العربي بعامة، وسورية بخاصة، لم يعمل المؤرخون العرب على سدّها بالدراسة والتحميص. ومن أبرز هذه الثغرات تاريخ سورية في مطلع العصور الحديثة، أو في النصف الأول من القرن السادس عشر، عندما انتقلت هذه البلاد من سلطة المماليك لتقع في قبضة الأتراك العثمانيين وتأقلم بتنظيم لأربعة قرون كاملة.

١١ ـ المرأة في التاريخ العربي/ في تاريخ العرب قبل الإسلام. تقول أ. د. ليلى الصباغ في مقدمتها لهذا الكتاب: قد يتبادر إلى ذهن القارئ، وعيناه تتفحصان عنوان هذا الكتاب، مضمونان أساسيان له، أولهما: ما كتبه التأريخ العربي في محتواه، أو بتعبير آخر: ما تضمنته كتب التاريخ العربي، قديمها وحديثها، عن المرأة. وثانيهما: دور المرأة في التاريخ العربي، أو بتعبير أصح (وجود المرأة) في حياة المجتمع العربي، وإسهامها في بنائه السياسي والحضاري.

والمضمونان في الحقيقة ـ تضيف ـ متلاحمان، ويكمل واحدهما

الآخر، ولكنهما ـ في الواقع ـ غير متطابقين. فقد تكون كتب التاريخ العربي بما دونته عن المرأة، وتحركها، قد قلّصت الحقيقة أو ضخمتها، أو جمّلتها أو شوهتها، أو قد تكون مرت على وجود المرأة مر الكرام، كما هو شأن كتب التاريخ العالمي مع المرأة عموماً.

وتؤكد أ. د. الصباغ: إن بحثاً من هذا النوع واسع جداً، سعة التاريخ العربي نفسه، وامتداده. ولابد أن يستوفى بالاستقصاء، والتحليل، والتركيب، والموازنة مع نظيره في تاريخ العالم. فالدراسة العلمية المطلوبة لـ (المرأة في التاريخ العربي) دراسة موسوعية إذاً، قد تضم عدة مجلدات، تحيط بهذا الموضوع متسلسلاً وتوفيه حقه من التمحيص. ولابد أن يتعاون في إنشائه عديد من الباحثات والباحثين. فهذا (الكتيب!) المتواضع أصغر من أن يتضمن بمحتواه سفر المرأة في التاريخ العربي، أو حتى في الحقبة الصغيرة منه وهي (العصر الجاهلي) فهو لن يقدم سوى معالم (منهجية بحث) في موضوع المرأة يرجى أن تستكمل، وتسد نواقصها. فما هو إلا إطلالة سريعة على وجود المرأة في الحركة الحضارية للمجتمع العربي خلال تلك المرحلة المحدودة، دافعة لها ومندفعة فيها، دون نفوذ كبير نحو الأعماق. إنه كوة صغيرة تفتح الباب لأبحاث أوسع في المستقبل...

يتناول الكتاب، عبر فصوله الخمسة: المرأة العربية القديمة في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والفكرية، والفنية.

١٢ ـ من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، وقد

تناولت فيه محمد الأمين المحبي المؤرخ، وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٦٥١ ـ ١٦٩٩) بمعطياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية. مفصلة القول في القيمة التاريخية العلمية لهذا الكتاب. وأفردت المؤلفة ـ من بعد ـ صفحات لوجيز تاريخ العالم الإسلامي في بلاد الهند، وبلاد ما وراء النهر وخوارزم، وبلاد العجم، وبلاد الأكراد...

١٣ ـ وفي العام ١٩٩٥م صدر بتقديمها وتحقيقها وتعليقها كتاب (المنح الرحمانية في الدولة العثمانية) وذيله (اللطائف الربانية على المنح الرحمانية) لمؤلفه محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، وقد تصدّره: إلى الطبيب الأديب والمعلم والإنسان، الأسمى عرفاناً وعلماً وخلقاً وحكمة أخي الدكتور محمد فيصل الصباغ.

١٤ ـ نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع، وقد تناولت فيه شخصيات: طاغور، عبد الملك بن مروان، هارون الرشيد، نور الدين زنكي، سميرأميس، ماري ستيورات، فلورنس نايتينغل، كاترين برشكوفسكي، فرانسيس فيلار، سوزان أنطوني، جين أدامز، إيفانجلين بُوث.

والكتاب مجموعة من أحاديث ومحاضرات ألقي معظمها في دمشق، وقلة منها في مدن عربية أخرى كالجزائر والقاهرة خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وكان لها مناسباتها، ورابطها مع الموضوع الملقى. وقد تم القاؤها إما عبر الإذاعة، أو من على منصة بعض

المؤسسات والجمعيات الثقافية، وقد أدخلتها المؤلفة في (أدب الإلقاء) الذي يختلف قليلاً عن (أدب المطالعة) في حجمه وبنيته وأسلوبه، فهو بهذا التحويل سيفقد بعض عناصره، ومن أهمها: الصوت بانفعالات صاحبه المختلفة، وتموجاته المتنوعة، التي قد تدعم القدرة على التعبير والتأثير، أو تضعفها، ولاسيما إذا كان المطروح في الحديث، أو المحاضرة، شعراً. . .

وقد وصّف الأديب فاضل السباعي الكتاب بقوله: . . . هو كتاب متنوع تاريخي أدبي تربوي، قد كتبت فصوله بفكر نيّر، وديباجة مشرقة، وحس عربي إسلامي إنساني. . . وهو لذلك كله يمتع قارئه ويغني النفس التواقة إلى قيم الحق والخير والجمال. . .

وقد صدّرت الكتاب بإهداء تقدير معبر، قالت فيه: إلى مؤسسات جمعية الندوة الثقافية النسائية اللائي كن أول من عمل من نساء دمشق، وبثقة بالنفس وشجاعة وإيمان على إنشاء جمعية نسائية ثقافية هدفها الارتقاء بفكر الإنسان العربي والمرأة بصفة خاصة، واللائي لا يزلن مثابرات على خطوهن المبارك بإخلاص ونشاط.

١٥ ـ من الأدب النسائي المعاصر، العربي والغربي. وقد تصدره إهداء تقول فيه: إلى جميع أعضاء الهيئتين التدريسية والإدارية الأفاضل، وإلى جميع الطالبات الغوالي، فيما كان يُسمى سابقاً (ثانويتي البنات الأولى والثانية بدمشق). إذ عشت معهم ومعهن، ومع تفانيهم وتفانيهن في اكتساب المعرفة، وفي عطائهم وعطائهن التربوي والعلمي،

المخلص، والأمين، أزهى الأيام وأحلاها في الخمسينات والستينات من هذا القرن.

ويضم هذا الكتيب! فيما ذكرت أ. د. ليلى الصباغ في مقدمة كتابها، سير كوكبة من النساء، لمعن في ميدان الأدب، نثره وشعره، خلال القرن الذي خلا، والقرن الذي نعيش. أي خلال المرحلة التي أخذت فيها المرأة، إن في عالم الغرب أو في عالمنا العربي، تمزق حجب العزلة التي فرضت عليها، وتحطم القيود التي حبست فكرها وصوتها، فانطلقت تعبر بحرية عن ذاتها ومجتمعها، فكراً وأحاسيس وتسعى بثقة وكفاح عنيد لتتبوأ موقعها الطبيعي في مسيرة الحضارة الإنسانية المعاصرة. واستمعت الإنسانية ـ هذه المرة، وبعد لأي ـ لفكرها ومشاعرها، فأفسحت المجال لها لتأخذ مكانها في جميع مجالات الحياة، ولتحقق وجودها الإنساني الخصب جنباً إلى جنب الرجل، صنوها في الإنسانية...

وقد تمحورت فصول الكتاب الستة حول: فدوى طوقان، ونازك الملائكة، واليزابيت باريت براوننغ، وشارلوت برونتي، وهيلين كيلر، وبيرل سيدنستريكر باك.

ومن أبرز الدراسات والأبحاث التي قدمتها أ. د. ليلى الصباغ في المؤتمرات والملتقيات التي شاركت بها أو نشرتها في الصحافة:

ـ ثورة مسلمي غرناطة والدولة العثمانية منذ عام ٩٧٦ ولغاية عام ١٥٦٨، في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي المنعقد في تلمسان في الفترة

ما بين ١٠ ـ ١٩ تموز ١٩٧٥م.

ـ المرأة في صقلية العربية بين السياسة والحضارة، في المؤتمر الصقلي العربي، قطانيا ١٠ يوليو ١٩٧٨م.

ـ عنابة بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي نشر في مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة الخامسة، جمادى الثانية ـ رجب ١٣٩٦هـ، يونيو ـ يوليو ١٩٧٦م عدد خاص ٣٤ ـ ٣٥.

ـ الجديد في العسكر الجديد (الانكشارية = فرق المشاة النظامية في الجيش التركي العثماني).

نشر في مجلة الفكر العسكري، دمشق، في العددين ٣ و٤ من السنة الرابعة ١٩٧٦م.

ـ الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث.

نشر في المجلة التاريخية المغربية، عدد خاص تكريماً للأستاذ مرسال امريت، تونس، جانفي/ يناير ١٩٧٧م.

ـ المدرسة الفارسية في دمشق.

نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٨٢ والمجلد ٨٣.

ـ ساطع الحصري المؤرخ.

نشر في مجلة المعلم العربي دمشق العددان الثاني والثالث شباط وآذار ١٩٧٧م.

ـ الدور التاريخي للجامعة.

نشر في مجلة المجاهد الثقافي ـ الجزائر مارس ١٩٦٨م.

ـ عبد الملك بن مروان أصالة عربية إسلامية.

نشر في مجلة الأصالة الجزائر السنة الرابعة مارس ١٩٧٥م.

ـ الوثائق الايطالية والاسبانية في تاريخ العرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

نشر في (ندوة الدراسات العليا ـ جامعة عين شمس) القاهرة أيار ١٩٧٧م.

ـ ست سنوات من كفاح ساطع الحصري في العراق.

نشر في كتاب (ساطع الحصري في كفاحه القومي والتربوي) دمشق، المجلس الأعلى للعلوم ١٩٧٧م.

ـ إفريقية الشرقية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

نشر في مجموعة (ملتقى الفكر الإسلامي) في تافرا سيت الجزائر ١٩٧٩م.

ـ وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي عن الصناعة النسيجية والنساج لمحمد بن طولون الدمشقي.

نشر في كتاب: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، دمشق ١٩٧٩م.

ـ بين جامع الزيتونة في تونس وجامع بني أمية في دمشق.

ملتقى جامع الزيتونة، تونس ١٥ ك١ ١٩٧٩م.

ـ فلسطين في مذكرات الفارس دايو.

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان نيسان ١٩٨٠م.

ـ نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني.

مجلة أوراق ـ المعهد العربي الاسباني للثقافة، مدريد ١٩٨٠م.

ـ دين الغرباء (الموريسكوس).

بالفرنسية (ندوة الموريسكوس وعصرهم في مونبليه) فرنسة تموز ١٩٨١م.

ـ الحضارة العربية الإسلامية والتاريخ في كتاب (وقائع ومحاضرات المؤتمر العالمي للحضارة العربية الإسلامية) دمشق ١٩٨٣م.

ـ الفعاليات الاقتصادية في فلسطين في أواخر العقد السابع وحتى منتصف الثامن من القرن الحادي عشر الهجري/ أواخر العقد السادس وحتى السابع من القرن السابع عشر الميلادي من خلال مذكرات الفارس دايو.

في كتاب (الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني) تونس ١٩٨٤م.

ـ ملاحظات حول دراسة الاقتصاد العربي في العصر العثماني.

المجلة التاريخية المغربية، العدد ٣٧ ـ ٣٨ جوان ١٩٨٥م.

ـ صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة/ النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد.

في كتاب (الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني) زغوان ١٩٨٨م.

ـ الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية في القرن السادس عشر.

في كتاب (ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي) العين ١٩٩١م.

ـ التجار الدمشقيون الأخيار بين العلم والإعمار.

النشرة الاقتصادية لغرفة تجارة دمشق، العدد الثاني ١٩٩٢م.

ـ بين ماض وحاضر.

مجلة (آفاق الثقافة والتراث) السنة الأولى العدد الأول ١٩٩٣م.

ـ علم الوثائق.

مجلة (آفاق الثقافة والتراث) السنة الأولى العدد الثاني ١٩٩٣م.

ـ الأدب العربي في المرحلة ما بعد التقليدية، من القرن السادس إلى الثاني عشر للهجرة.

في كتاب (الثقافة والتعليم في الإسلام) اليونسكو ١٩٩٠م (ترجمة للإنكليزية).

ـ جولة في موسوعة عربية إسلامية من العصر العثماني لطاشكبري زاده.

كلية الإلهيات، جامعة مرمرة، تركية ٦ ت٢ ١٩٩٧م.

ـ عدة بحوث في (الموسوعة الفلسطينية) و(الموسوعة العربية).

● **المؤتمرات والملتقيات:**

ـ مؤتمر سيقر، فرنسة ١٩٦٣م.

ـ ملتقى الفكر الإسلامي، بجايه ـ الجزائر ١٩٧٤م.

ـ ملتقى الفكر الإسلامي، تلمسان ـ الجزائر ١٩٧٥م.

ـ ندوة الدراسات العليا، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٧م.

ـ المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، دمشق ١٩٧٨م.

ـ ملتقى الفكر الإسلامي، تافراسيت الجزائر ١٩٧٩م.

ـ ملتقى جامع الزيتونة، تونس ١٩٧٩م.

ـ مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية، دمشق ١٩٨١م.

ـ ندوة (الموريسكيون وعصرهم) فرنسة، مونبيليه ١٩٨١م.

ـ المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والعهد العثماني، تونس ١٩٨٢م.

ـ المؤتمر العالمي الأول للجنة العليا للدراسات العثمانية، تونس ١٩٨٤م.

ـ المؤتمر العالمي الثاني للجنة العليا للدراسات العثمانية، تونس ١٩٨٦م.

ـ ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي، العين ١٩٩٠م.

ـ ندوة توزيع الجوائز على المتفوقين بالبحث في مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول (منظمة المؤتمر الإسلامي) ٤ ـ ٨ ت٢ ١٩٩٧م، تسلمت الجائزة التقديرية (التميز في البحث).

* * *

أ. د. ليلى الصباغ المجمعية

بجلسته الخامسة المنعقدة بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٩٨م انتخب مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق أ. د. ليلى الصباغ عضواً عاملاً في مجمع الخالدين. وقد أقام المجمع حفل استقبال لها، كعادته، بدأه أ. د. شاكر الفحام، رئيس المجمع، بكلمة هنأ في مستهلها أ. د. الصباغ بثقة زملائها المجمعيين بها، واختيارهم لها، تشدُّ أزرهم في مسيرتهم، وتعضد مسعاهم، فيتعاونون معاً صفاً واحداً، ويمضون بالعربية المبينة صُعداً، حتى تبلغ مكانتها الرفيعة. وأضاف: لقد أمضت أ. الصباغ حياة ملؤها الجد والعمل، فكانت المبرزة أبداً في دراستها، وكانت المتفوقة أبداً فيما اسند إليها من أعمال نهضت بأعبائها على خير وجه. وقامت بالتدريس الجامعي زهاء خمس وعشرين سنة، فكانت الأستاذة المثالية التي أفادت طلابها وخرّجتهم فأحسنت تخريجهم.

وأذكر، يضيف أ. د. الفحام: أنها أعيرت إلى الجزائر الشقيقة للعمل في الجامعة، وقضت سنتين فيها ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨م، وعزمت على العودة تعلق بها طلابها، وزملاؤها الأساتذة، وتسارع كثيرون إلى السفارة السورية يرغبون إليّ أن اقنعها بالبقاء.

ووفق الأعراف المجمعية، ألقى أ. د. عبد الحليم سويدان كلمة المجمع، استهلها بقوله: يسعد مجمع اللغة العربية أن تكون أ. د. ليلى الصباغ أول سيدة تنتظم جوهرة ثمينة في عقده. وتحدث عن سيرتها العلمية، التي ألمحنا إليها آنفاً. . .

ووفق الأعراف المجمعية، أيضاً تحدثت أ. د. ليلى الصباغ، في حفل استقبالها وإسهاب، عن سلفها أ. د. حسني سبح الذي شغر مكانه بالوفاة مؤكدة أنه نذر نفسه للعمل الجاد في المجالات التي دخلها، متبعاً النهج ذاته في المجمع مع إخوانه، فسعى بكل أمانة وإخلاص إلى تحقيق أهداف هذا المجمع. . .

في العاشر من تموز ٢٠١٣م أقام مجمع اللغة العربية بدمشق حفل تأبين حضره لفيف من الشخصيات الرسمية والأدبية والثقافية وجمهور غفير ممن عرفوا أ. د. ليلى الصباغ وقد افتتح الحفل التأبيني أ. د. مروان المحاسني، رئيس المجمع، قائلاً: حين يصاب مجمعنا بفقد عضو كان يملأ حيزاً فكرياً محدداً، فإننا نسارع إلى إبراز ما نعتقد أنه كان متميزاً به من نتاج فكري، أو مواقف جريئة في كفاحه لإثبات حقائق كانت غائبة عن الفكر المجتمعي، وبخاصة ما يتعلق بالحداثة، وذلك سعياً وراء

إعادة اللغة العربية إلى بريقها المعهود محملة بعلوم جديدة لا تضيق عن احتوائها. . . وأرى لزاماً عليّ الإصرار على ما كان يمثله وجود أ. د. ليلى الصباغ في المجمع. . .

وقد تناول أ. د. المحاسني جوانب من سيرة الراحلة العلمية، وتحدث عن بعض تأليفها وتحقيقاتها وأبحاثها، وأن كتابها عن منهج البحث التاريخي هو الألصق باختصاصها ذلك أن الحاجة إلى نظرة عصرية فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة، وبين مسارات المؤرخين العرب القدامى، كانت حاجةً ملحة لإظهار سبق أن خلدون إلى معظم المسالك التي يسلكها المؤرخون المعاصرون كبروديل، وتوينبي، وجورج دوبي، وكذلك هيغل في دروسه عن فلسفة التاريخ. . . فكتابها دراسة عصرية تقدّم منهجية نقدية علمية تجيب عن بعض التساؤلات عن حقائق كتابة التاريخ، وذلك من قبل باحثة مثقفة ثقافة معرفية تراكمية عالية. . .

وفي كلمته، ممثلاً لجامعة دمشق، قال أ. د. خالد حلبوني: أ. د. ليلى الصباغ من الذين فتحوا نوافذ الفكر، وشمخوا بجبهة التاريخ العربي، حيث سارت سيرتها وحققت مكانتها على سنن علم التاريخ منهجاً وضاءً يشعّ في القرّاء وطلاب العلم قوى عميقة تتجلى في خصوبة عرض الحقائق، وفاعلية التعبير. وأضاف: كانت ذات أسلوب سهل، وعطاء متدفق، وذكاء حاد، وخاطر سريع، وفهم دقيق، وهذا ما أهلها لتحوز مرتبة هيهات أن يصل إليها الكثيرون.

وفي كلمتـه، ممثلاً لهيئة الموسوعة العربية، فقد اعتبر أ. محمد وليد الجلاد فقدها خسارة كبيرة لصرح الثقافة في سورية، فهي معلم من معالم دمشق في الفكر والأدب والتربيـة والتاريخ، وجزء لا ينفصم من تاريـخ الشام الحديث، تركت بصماتها واضحة في كل المجالات التي طرقتها، واستحقت التكريم أينما وجدت. . .

أما أ. د. أحمد طربيـن، الذي ألقى كلمـة أصدقاء الفقيدة، فقد أشار إلى ملامح من سيرتها الذاتية والعلمية، وتوقف ـ مطولاً ـ عند كتابها (منهجيـة البحث التاريخي) وأنـه يشكّل نبراسـاً متألقاً ينيـر السبيل أمام العاملين في مجالات التاريخ، وإن منهجية البحث التي بسطتها في كتابها تتطور على الدوام، إضافـةً إلى جهود جميع رواد المعرفـة التي تساعد حاملها على الوصـول للحقيقة، فالتعاون بين المؤرخ ومختلف العاملين في شتى حقـول المعرفـة واجب حتمـي، إذا صمم الجميـع على بلوغ الحقيقة الخالصة. . .

وفي مستهل كلمتها، أعربت أ. د. نجاح محمد، التي ألقت كلمة تلامذة الفقيدة، عن شعورها بالأسى، ولكن ما يعزيها قليلاً أنه كان لها شرف الإسهام في تكريمها في حياتها. وأشارت إلى فخرها بأنها تتلمذت على يديهـا وأخذت منهـا وعنها الكثير من الدروس بشكل مباشر وغير مباشر. وأنها حصّلـت فوائـد جمة من خلال قراءتها المتعمقة لمؤلفاتها القيّمة سواء على الصعيد التاريخي المعرفي، أو على الصعيد التاريخي المنهجي، وختمت بقولها: إن أ. د. ليلى الصباغ هي المرأة البرزة النادرة

التي نحتاج إلى مزيد منها اليوم. . .

واختتم حفل التأبين بكلمة ابن شقيها م. عامر الصباغ، والتي أعرب في بدايتها عن اشتياقه إليها، وعرض ذكريات طفولته ويفاعته معها، وفي رحابها، وأنها كانت تستمع لكل من قصدها بعناية الأم وانتباه المعلم وصلابة المربي، موجهة الحديث باللغة العربية الفصحى، كعادتها، حتى في البيت. وهذا ما ترك لدى طالباتها وطلابها أثراً عميقاً تجلى في تلك السمعة التي بلغت آذان حتى الذين لم يعاصروها، إذ كثيراً ما امتدح معارفي عمتي ذاكرين مناقبها وسجاياها، ولو لم يكونوا قد التقوا بها. . .

تنويه: كما هو معروف أ. د. ليلى الصباغ متخصصة بتاريخ العرب الحديث والمعاصر، وعناوين كتبها وأبحاثها ودراساتها ومصطلحاتها وتعابيرها جاءت في البحث كما وردت خلال إعدادها من قبلها في أربعينات وخمسينات وستينات القرن الماضي.

❐❐❐

ياسين رفاعية
بين الوهم والحياة

ياسين رفاعية
بين الوهم والحياة

في عام ١٩٦٠م أصدر ياسين رفاعية (١٩٣٤ ـ ٢٠١٦م): الحزن في كل مكان، وهي مجموعة قصصية. وفي العام نفسه أصدر نصوصاً شعرية تحت عنوان (جراح) وهي رسائل بوح. وفي عام ١٩٩٠م، ضمن مذكراته، أصدر (رفاق سبقوا) ويتوّج نتاجاته في العام ٢٠٠٦م برواية (الحياة عندما تصبح وهماً).

وبالطبع ليست هذه فقط إبداعات رفاعية على مدى خمسين عاماً، وإنما في رصيده ما يزيد عن ثلاثة وعشرين عنواناً، ولكن ما أشرنا إليه في البداية يلتئم في سياق واحد ويندرج تحت عنوان واحد، وإن تعددت أجناسه الأدبية، ألا وهو الحزن الذي يظهر في كل مكان عبر قصصه الاثني عشر فيتنامى، في السنة نفسها، ومن خلال رسائل بوح، ليخلّف جراحاً عميقة في النفس والوجدان، تستثير الذاكرة، بعد سنوات، في ومضات عن رفاق الدرب والحياة.

ولكن لا تلبث هذه الأحزان، وحسب نزار قباني، أن تكبر حتى تصبح أشجاراً بفقدان الأمل وتغدو الحياة وهماً وسراباً.

فمنذ الإهداء الذي يتصدّر رواية (الحياة عندما تصبح وهماً) والموجّه للدكتور غازي القصيبي تطالعك كلمة (الرحيل) التي تختصر، من خلال المهدي والمُهدى له وما بينهما، سنوات من الحميمية والذكريات في لندن.

وكعادته يشدك ياسين ليس من الصفحات الأولى بل من أسطر الرواية الأولى في وصف تصويري معبر:

«... فانفجر الماء محدثاً ثقباً في سرتها، وراح يتدفق كما لو أن طفلاً صغيراً ينبثق بوله...».

وتعيش مع الكاتب قلقه وحيرته وذهوله فالوقت منتصف الليل، والمصعد معطل، واضطراره للذهاب إلى المشفى سريعاً عكس خط السير، وقلب الحبيبة معطوب، وتبرز /صباح/ الجارة الوفية لتكون العون والسند على امتداد أحداث الرواية مؤصّلة الوفاء وأهميته في العلاقات على اختلافها.

«... ليس هناك أروع من الوفاء، لولا الصداقات لخلت الدنيا من المودة والحب، وربما كانت الصداقة أهم من الحب لأنها تدوم أكثر، إنها ملاذ آمن للبشر».

ومن خلال كلمات ثلاث في جملة مفيدة «خفت أن أفقدها».

يرسم ياسين حالة من الرعب والفزع المشفوعة بالمحبة وعمق الارتباط.

وكالعادة في مثل هذه الحالات والملمات يحضر شريط الذكريات

بحلوه ومره، فيستذكر اكتشاف الطبيب مع ولادة أمل بكرها بسام أن قلبها معطوب، ورغم التوصية بعدم الحمل ثانية تدفعها غريزة الأمومة وحاجتها لأخت لبسام أن تغافل زوجها وتراوغه وتحمل بلينا.

ويضيق الأمل بالانفراج بعد هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧م كما يضيق صمام قلب أمل بعد ولادتها الثانية، إلى حد بعيد لم يعد الدم يمشي جيداً في العروق وأصبحت بحاجة إلى جراحة عاجلة لتوسيع هذا الصمام.

ويتبين، فيما بعد، أن هذه المداخلة الجراحية التي أشار فيها طبيب ألماني زائر كانت وبالاً على أمل.

وقد أبرز ياسين، من خلالها، ما يسمى بأخطاء الطب والتشخيص التي تؤلم المرء وتباغته فجأةً.

ولكن في غمرة هذه الصعوبات والمشاق برزت بارقة أمل من خلال مبادرة وزارة الإعلام، حيث كان يعمل ياسين، بتحمل نفقات سفر وعلاج أمل في لايبزغ، ويشير ياسين، بحسرة شديدة، أنه لم يستطع مرافقتها لأسباب مادية.

ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى النقاط التالية:

استطاع ياسين رفاعية، الروائي المبدع، ومن خلال ثلاثة أسطر فقط، أن يعرب عن الأسى العربي أبان هزيمة حزيران، التي وصفها بالشنيعة:

«. . . كان يوماً أسود بالنسبة لكلينا عندما صارت الطائرات الإسرائيلية

تحلّق في سماء دمشق على علو منخفض تحدياً واستهتاراً بمشاعر الناس، كنا في حالة لا تطاق. . .».

معظم الأسماء التي أوردها الروائي في روايته أتت كاملة مع ألقابها وصفاتها ومواقفها، مما يدعم مصداقية الرواية ويجعل منها، في هذا الجانب، وثيقة لها أهميتها.

ضيق ذات يد معظم أصحاب القلم فهم لا يستطيعون مرافقة من يحبون ومؤازرتهم في محنهم.

تطعيم الرواية، وبعفوية، بحكايات وأمثال من التراث الشعبي وقد جاءت في مواضع شتى بلغتها ولهجتها المحكية:

برضاي عليك عاملها دائماً معاملة حسنة، دير بالك على حالك.

ما بتبطل عاداتك يا نسونجي.

ويثمّن ياسين دور جريدة النهار، التي كانت تنشر شعر أمل، عندما فتحت باب الاكتتاب على صفحتها الأولى لجمع تكاليف العمل الجراحي الذي سيجرى لها، ويصفه بالنبيل، والذي تكرّس في نبله من خلال أشخاص كانت لهم مواقفهم التي سجلت لهم «كانت أمل تجد دائماً من يساعدها. . .».

وتطل الحرب الأهلية اللبنانية برأسها متزامنة مع آلام أمل وآلامه، بل محنتهما، فقد خرّبت هذه الحرب العبثية ـ كل شيء، وكانت تداعياتها على الناس قاسية جداً، ولكنها كانت على أمل أقسى من كل شيء، فقد

تعطلت الحياة تماماً، لا ماء، ولا كهرباء، ولا غاز، فارتبكت حياتنا مثل بقية الناس، إن لم يكن أكثر، وخصوصاً عندما تشتد الحرب ويجري تبادل قذائف المدفعية بين الجانبين فتضطر أمل إلى النزول إلى القبو مع ولديها، ثم تهدأ الحالة فتصعد من جديد، وهكذا على مدار الساعة، صعوداً ونزولاً، نزولاً وصعوداً، ما أرهقها وأرهق صمامها الاصطناعي أيضاً.

لقد أخذت حرب لبنان مساحات واسعة في كتابات ياسين رفاعية فقد برزت في (الممر) ١٩٧٨م كأول انعكاس للحرب اللبنانية في الرواية السورية من موقع الأحداث، وهذا يمنحه كما يقول سمر روحي الفيصل ـ ميزة معايشة الحرب والاكتواء بنارها. وفي (دماء بالألوان) ١٩٨٣م وفي (امرأة غامضة) ١٩٩٣م وغيرها.

تشكّل رواية (الحياة عندما تصبح وهماً) في أبرز معالمها سيرة ذاتية ليس لياسين رفاعية وأمل جرّاح فحسب، بل لكليهما، في إطار علاقتهما الزوجية، ولهم، مع ولديها وبعض الأقارب والأصدقاء، في إطار السرة. وفي مواضع كثيرة يذكر ياسين، إن تلميحاً أو تصريحاً، كثيراً من الوقائع والمواقف المباشرة وغير المباشرة.

ولا ريب أن ذلك أضفى على الرواية رونقاً خاصاً، وإن كان مشوباً بل مسربلاً بالحزن، ولكنه جعلها أكثر غنى وواقعية كان أساسها الصدق وسنامها الجرأة.

«. . . وإن كنت مقصراً في واجباتي، حيث تركت لها الاهتمام بكل

شيء، وحملّتها ـ من دون قصد ـ مسؤولية حياتنا جميعاً. . .».

«. . . تذكرت الآن كيف دخلت هذه المرأة حياتي مصادفة، وتزوجت بها مصادفة، وتآلفتُ وإياها إلى حد عجيب، تآلفاً أصبح فيما بعد أعمق بكثير من الحب. كنت بحاجة إلى الاستقرار بعدما عانيت تجارب حب فاشلة. . .».

«. . . كانت خجولة دائماً، حتى في أدق اللحظات الحميمة في غرفة النوم، تخبئ عينيها بساعديها وهي تتأوه منتعشة بين يدي. . .».

ويفسح لموضوع الغيرة مساحات في روايته:

«. . . ابتسمت، وقالت: أنت تغار!

. . . لاحظت نظراتي التي زاغت حول الطبيبة الجميلة. . . حدجتني بنظرة غاضبة قائلة: ما بتغيّر عاداتك. . .».

«. . . تذكرت مريضة السرطان التي عشقت طبيبها المعالج. . .».

وبصراحته المعهودة يقول ياسين: في الحقيقة لم يخطر ببالي الموت منذ فترة طويلة. . . ويضيف، في موضع آخر، على المرء في اللحظات الصعبة أن يترك أمره لله. . .

«. . . كم هذه الحياة مجرد وهم كبير، مجرد حلم نستيقظ منه على هذه اللحظة، لحظة الموت الذي لا يرحم أحداً، هذا الموت اللغز المجهول، العصي على التفسير، الذي يحيطنا بشموله المطلق ولا نقدر على الاعتراض. . . هذا الموت الذي يعرينا في اللحظات الأخيرة حت

من ملابسنا، ويا للهول...».

«...يا ويل الإنسان من عقله، يأتي إلى الحياة من دون رغبته، ويصبح له أبوان لا يعرفهما، ويختاران له اسماً يفرض عليه، وقد لا يحبه فيما بعد، ويموت من دون أن يسأله أحد لماذا سيموت، ما هذه الحياة؟...».

أكاد أجزم، كما ألمحت سابقاً، أن ياسين رفاعية أرّخ لحياته وحياة زوجته بما يشبه اليوميات أو المذكرات أو السيرة الذاتية، بغض النظر عن القالب المنهجي في ذلك، وهو ـ بذلك ـ وضع بين يدي القرّاء ما يرغبون قراءاته والاطلاع عليه، ولاسيما أن ياسين وأمل علمان من أعلام الأدب والفكر في بلادنا، ونحن أحوج ما نكون للتعرف عليهما وعلى مكوناتهما وتكوينهما، فكيف إذا جاء صادقاً وشفافاً وجريئاً بلسان أحدهما أو نقلاً عنه.

زاغت نظراته حول الطبيبة الجميلة وكان يتحين لحظات خاطفة كي ينظر إلى تلك السيدة الجميلة وهي بملابس نومها الخفيفة... وترك يده مشدودة على يدها... ويطلب، أخيراً، أن تسامحه على كل إساءاته وخياناته وكذبه...

كم صبرت عليّ أمل، وكم كانت رحيمة بي ولم أكن رحيماً بها، تتعب لأرتاح، تسهر لأنام، تستيقظ قبلي للاهتمام في البيت ثم... كنت لا أقول لها كلمة شكر...

وأنت يا زوجي العزيز: هكذا اكتشفتك وعرفتك من جديد، أنت توجد عند الملمات والصعاب، توجد بكل عطفك ومحبتك، كم أنا محظوظة بك...

وغني عن القول، في هذا السياق، تفصيل العلاقة مع شقيق أمل وشقيقتها وموضوعية أمل وياسين بهذا الاتجاه، فقد استطاع ياسين أن يكون محللاً نفسياً وعالم اجتماع في الوقت عينه.

وفي إطار السيرة الذاتية لأمل جراح الشاعرة والإنسانة، غير التي أسلفناها، يقف قارئ رواية ياسين رفاعية عند كثير من صفاتها وخصالها، فقد كانت محبوبة الجيران، وذكية، شغوفة بنفسها إلى حد التطرف، تكره أفلام الرعب، وتحب الموسيقى، وتحتفظ بورقة الروزنامة لتقرأ ما كتب خلفها من حكم وأقوال، وكانت تخاف من الشيخوخة... ولها رواية (خذني بين ذراعيك) التي فازت بجائزة مسابقة مجلة الحسناء، وكانت الرواية قد ولّدت في نفس ياسين في حينه مشاعر خاصة في إطار إشكالية العلاقة بين البنت والأب في غياب الأم المتوفاة... إضافة لمجموعات شعرية خمس...

ويصف ياسين رفاعية بمفردات صادقة وشفافة ومختارة، تكاد تشكّل معجماً لا نبالغ إذا قلنا ماركة مسجلة باسمه، ذلك المشهد الرهيب عندما تولى تغسيل أمل إثر وفاتها...

لعل كثيرين ظنوا أن ياسين قد استنفذ في ثلاثيته (نصوص في

العشق) مفردات اللغة وألفاظها، ولكنه أثبت، والألم يعتصر قلبه ويهدّ كيانه، أن الحب يفعل المعجزات، فهو بهذا المعنى قادر على رفد نصوصه بالمزيد من العبارات الموحية والجمل المؤثرة.

«. . . هذه المرة الأولى في حياتي أراها عارية بهذا الوضوح، لم تتعرَ أمامي بهذا الوضوح قط. . . ها هي أمامي كما خلقها الله، بكل جمالها الآسر، وبكل بياضها. . . لم أظن أن جسدها أبيض كالثلج، كأنها جوهرة بيضاء ممددة أمامي، بيضاء كالورد الأبيض، بيضاء كالورق الذي كتبت عليه قصائدها، بيضاء كالزنبق الذي كانت تحبه، بيضاء كالياسمين، بيضاء كالقرنفل، بيضاء كالأمنيات الجميلة، كالنفس الطاهرة. . .».

ولعل ياسين رفاعية، دون سواه فيما أعلم من الروائيين، خصص لموضوع المقبرة والأموات في مقاربة ومباعدة للخيال صفحات أدار الشخوص على مسرحها وهو منهم ببراعة لافتة، وطرح ـ من خلالها ـ تساؤلات مختلفة: الخوف (من يخاف من مَن) ارتفاع أسوار المقابر، حكاية الذي مات في كفنه، سرقة جثث الموتى، ولكن، بالمحصلة، المهم أن نؤمن. . . الإيمان بالله هو النجاة دائماً. . .

فلا غرابة، وقد جمعهما هذا العشق، أن يتوهم أن لوثة من جنون قد أصابته فهو ـ وكما وصفه خليل الخوري منذ خمسين عاماً ـ شديد الحساسية يعاني حياته معاناة فتنعكس صورها على إنتاجه وفي كل كتاباته، أنه واحد من جيل القلق والمأساة يحمل في نفسه كل خصائصه وكل

تناقضاته، قلق، حزين، باحث ابداً عن القيم في عصر أكثر الأشياء فيه تبدلاً هي القيم، فهل بات ياسين، رغم كل ذلك، يرى بعين أمل، على مرضها، أن الحياة ليست وهماً وأن العالم كله رجاء وأمل يتجدد كل يوم، وأن الإنسان يتوازن بالحب. . .

❐❐❐

عفيف البهنسي
تأريخ وتوثيق وإبداع

عفيف البهنسي
تأريخ وتوثيق وإبداع

أنجز د. عفيف البهنسي (١٩٢٨ ـ ٢٠١٧م) رحمه الله، ما يقارب المائة كتاب، بعضها موسوعي في عدة مجلدات وأجزاء، ومن بينها أكثر من أربعة وعشرين كتاباً باللغات الأجنبية. كما أنجز العديد من الأبحاث المعمقة والموسعة نشرت في مجلات ودوريات محكمة، أو صدرت في كتب. إضافة إلى عدد كبير من الدراسات والمقالات التي تضمنتها موسوعات ومجلات وصحف مختلفة محلية وعربية ودولية.

وعبر وسائل الإعلام أعد د. البهنسي برامج إذاعية وتلفزيونية. أسبوعية ويومية، استمر بعضها أكثر من ثلاث سنوات، وقدّم، في سورية وخارجها مئات المحاضرات في موضوعات مختلفة. علاوة على كونه من المحاضرين البارزين في جامعات عربية وعالمية: في دمشق، الأردن، الكويت، قطر، تونس، أمريكا، استراليا، إنكلترا، الجزائر، طوكيو، باريس، روما، صنعاء، السعودية، ليبيا، بغداد، تركيا، ألمانيا، الإمارات... وغيرها...

ويعتبر د. البهنسي من مؤسسي نقابة الفنون الجميلة في سورية،

وأول نقيب لها، ومن مؤسسي اتحاد الكتاب العرب. وغيرهما من المؤسسات والنقابات. والأكاديميات مثل: كلية الفنون الجميلة، جمعية أصدقاء دمشق، معهد الفنون التطبيقية، معهد الآثار والمتاحف...

وقد رأس تحرير بعض المجلات والدوريات، أو كان عضواً في هيئة تحريرها: الحوليات الأثرية (سورية)، ماكاربوس (بوسطن)، الحياة التشكيلية، آرت (لندن) دبل (سويسرا)... كما صمم شعارات: المجلس الأعلى للعلوم، المركز الثقافي العربي بدمشق، نقابة الفنون الجميلة، مدينة دمشق، الإذاعة والتلفزيون، المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية، القرن الهجري الخامس عشر، مؤتمر الآثار الفلسطينية... وشارك في الإشراف على تصميم طوابع بريدية، العملة الورقية المتداولة في سورية، صرح الشهيد في دمشق، بانوراما حرب تشرين التحريرية، ومتاحف: السويداء، دير الزور، درعا، حماة...

أسهم د. البهنسي في إنشاء العديد من المتاحف والمراكز الفنية التشكيلية: الخط العربي، الفن الحديث، بصرى، الرقة، دير الزور، اللاذقية، أرواد، حمص، الطب والعلوم بدمشق، التقاليد الشعبية بحلب، التقاليد الشعبية بتدمر، إدلب، خان مراد باشا بالمعرة، دمشق التاريخي ومتحف التقاليد الشعبية بدمشق...

ولا ريب في أن شخصاً بهذا المستوى المعرفي والأكاديمي يغني حضوره المؤتمرات والندوات، ويغتني بها أيضاً، وفي هذا الإطار فقد جاب العالم وحضر باحثاً ومشاركاً في أكثر من مائتي مؤتمر وندوة...

وقد أكسبت د. البهنسي هذا والسيرة العلمية والفنية الغنية تقدير جهات مختلفة، وأعربت عن هذا التقدير بعشرات الأوسمة والأوشحة والميداليات، محلياً وعربياً ودولياً... وجعلته أيضاً، موضوعاً بارزاً وهاماً في عدد كبير من اللقاءات والحوارات بوسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية...

ولمكانته العلمية المتميزة أسند إليه وضع مقدمات لعشرات الكتب والمؤلفات وتولى، بحكم درجته الأكاديمية، الإشراف على أكثر من اثنتي عشرة رسالة دكتوراه وماجستير... وقد شغل، قبل أن يتفرغ لتدريس تاريخ الفن والعمارة، في كليات الفنون الجميلة والعمارة والآداب بجامعة دمشق، إدارة الفنون الجميلة في وزارة الثقافة، والمدير العام للآثار والمتاحف...

وقبل إلقاء الضوء على بعض نتاجاته، لابد من الإشارة إلى أن د. البهنسي الذي ولد بدمشق (حي الشهداء) في السابع عشر من نيسان ١٩٢٨م، حصل على إجازة دار المعلمين، ومن ثم الحقوق ودبلوم العلوم الإدارية من جامعة دمشق والدكتوراه في تاريخ الفن من (السوربون) ١٩٦٤م بدرجة مشرّف جداً، ودكتوراه الدولة من الجامعة نفسها بدرجة مشرّف جداً في عام ١٩٧٨م...

باكورة إصدارات د. البهنسي كتاب (الفنون التشكيلية في سورية)[١]

---

(١) وزارة الثقافة، ١٩٦٠م.

ثم أصدر عن الفن الحديث العالمي: الفن عبر التاريخ، قضايا الفن، ومايكل أنجلو... ليتابع إصداراته، بعد ذلك، في إطار الفنون: اتجاهات الفنون التشكيلية المعاصرة، الفن الحديث في سورية، رامبرانت، الفن والقومية، تاريخ الفن في العالم، الفن الإسلامي، أثر العرب في الفن الحديث، الفن والثورة، الأسس النظرية للفن العربي في جمالية الفن العربي، الفن الحديث في البلاد العربية، الفنون القديمة، الفن في أوروبا، الفن والاستشراق، رواد الفن في البلاد العربية...

أصدر د. البهنسي عدداً من المؤلفات عن الشام، سورية، دمشق... الشام: لمحات فنية وآثارية، دمشق الشام (ثلاث لغات) الشام الحضارة، سورية الحضارة ماذا أعطت للغرب، الجامع الأموي الكبير، عمران الفيحاء، سورية: التاريخ والحضارة...

ونتوقف، بهذا الصدد، عند ثلاثة عناوين بارزة. الأولى: الشام الحضارة[1]، الذي يتناول، من خلاله، أصول أهل الشام المشتركة قبل التاريخ. الشام والحضارة، الشام والعالم، الآثار الشامية، دمشق الشام، بداية العمارة الإسلامية في بلاد الشام، والفنون الشامية... مؤكداً الدور الأساسي الذي لعبته بلاد الشام في تكوين الحضارة العربية قبل الإسلام وبعده... وعدم تأثير أشكال التجزئة، إبان معاهدة سايكس بيكو، في

---

(١) وزارة الثقافة، ١٩٨٦م.

وحدتها التاريخية والحضارية. . . الثاني، عمران الفيحاء[1]، الذي يوثق لتكوّن مدينة دمشق، التي تعتبر أقدم مدينة ما زالت قائمة حتى اليوم. . . وعلى مدى اثني عشر فصلاً، ومقدمة وافية في تكوين المدينة العربية، يتحدث المؤلف عن دمشق التي ما زالت زاهرة حتى اليوم، وعن العوامل الأساسية المكونة لها، وعن مشاهدات الرحالة والجغرافيين لها، وعن تكون المناطق والأحياء، وتكون مركز المدينة، والجامع الأموي الكبير، وعن تكون معالمها بعد الأمويين، وإشكالية التكون الأصيل، وتكون المدينة المعاصرة وتحديات العصر الحديثة، ومجابهة هذه التحديات، ومن ثم مخطط دمشق ونظامها الإداري. . . وقد حفل الكتاب /عمران الفيحاء/ بمجموعة من الملاحق والمخططات والصور التي أغنته.

والعنوان الثالث: موسوعة سورية التاريخ والحضارة[2] في ثمانية مجلدات، تناولت التاريخ العام من خلال المكتشفات الأثرية، بداية التاريخ في سورية، المدن الأولى، سورية ومصر، سورية والبحر المتوسط، الممالك الآرامية، النفوذ الأجنبي وحكم الفرس، العصر اليوناني والسلوقي، روما وسورية، سورية والمسيحية، الفتح الإسلامي، الحروب ضد الفرنجة والمغول، خارطة سورية عبر التاريخ، الدول السورية، الحدود السورية، تضاريس سورية وأنهارها، الاقتصاد

---

(١) دار الفكر، ٢٠٠٢م.

(٢) وزارة السياحة، ٢٠٠١م.

والتقسيمات الإدارية. . . وعبر سبعة مجلدات يوثق بالقيمة والصورة المعبرة تاريخ دمشق وريفها، الجزيرة والفرات، البادية وتدمر، المناطق الجنوبية، الساحلية، الشمالية، والوسطى. . .

وفي كتاب (العمارة عبر التاريخ)[1] يتناول د. البهنسي بالدراسة والتحليل العمارة المصرية القديمة، والعمارة الرافدية، العمارة السورية القديمة، الفارسية، الإغريقية، الهلنستية، الرومانية، المسيحية الأولى، العمارة في الشرق الأوسط، العمارة العربية قبل الإسلام، والعمارة الإسلامية، العمارة في عصر النهضة. العمارة الأوروبية، العمارة الحديثة في القرن العشرين. . . مؤكداً خلال ذلك أن الحديث عن العمارة عبر التاريخ يدخل في صميم الحديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية، فثمة تأثير متبادل، وقد تكون العمارة هي الشكل الخارجي لهذه الحياة، كما تكون الحياة انعكاساً لشكل العمارة. . .

في بينالي الشارقة السادس يرفد د. البهنسي المكتبة العربية بكتاب جديد، في الموضوع ذاته ولكن في إطار جديد: العمارة الهوية والمستقبل يتضمن الهوية وخصائص العمارة، الهوية في عمارة المساجد، الهوية في عمارات القدس، وزخارفها، العودة إلى الهوية في العمارة، قراءة تراثية في آخر منجزات العمارة.

وفي عام ٢٠٠٤م يصدر د. البهنسي ثلاثة عناوين هامة: علم

---

(١) دار طلاس ١٩٨٧م.

المتاحف والمعارض، علم الجمال وقراءات النص الفني، علم الخط والرسوم. . . حيث يتحدث في الأول عن نشأة المتاحف وتكوينها ومعروضاتها وأشهرها وعلاقتها بالتربية، ويفصّل القول في بعض المتاحف العربية والسورية، منتهياً إلى الحديث عن المعارض بوصفها أسواقاً. . . أما في الكتاب الثاني فيبحث في ماهية النص الفني ودلالته وأشكاله خطياً وتشكيلياً. . . وفي كتابه الثالث، ضمن هذه السلسلة، يبحث في تاريخ الخط العربي، وفنيته، وتعليمه، ومن ثم الرسم الزخرفي والرسوم التعليمية وغيرها.

في سيرته الذاتية المرتبة والأنيقة، وقبل كل شيء الفنية، التي كان قد قدمها لي د. البهنسي مع بعض كتبه، في منزله الذي ينضح بالأصالة والفن، لفت نظري أنه سرد عناوين كتبه (الفنية) باللغة العربية، واللغات الأجنبية، ولم يتطرق لإبداعات ذاتية ووجدانية جسدها عبر عواطفه في نظم شعري جميل. . .

ثلاث مجموعات شعرية أصدرها د. البهنسي، على الأقل ما علمت به: أبيات على صفحة الجبين، أناشيد للوطن، أغنيات حالمة.

ولعل تجربة د. البهنسي الشعرية تعكس تربيته الأخلاقية والوطنية، وأثر البيئة في تكوينه، ولا بأس من الإشارة إلى عناوين بعض القصائد التي تؤكد ما ذهبنا إليه: أمي، ابتي الحبيب، بيتي، دمشق الشام، لغة العروبة، دم الشهيد، شهيد ميسلون، المعلم، الربيع، نصر الجنوب، عصر الجلاء. . .

يقول شاعرنا[1] د. البهنسي، ويظهر أثر الاختصاص والأكاديمية في ذلك ممزوجاً بحب دمشق الأزلي:

أغنـــت دمـــشق شـــهرة قديمـــة
أســـبابها حـــضارة عنـــد الأزل
وجنـــة تحيطهـــا كمعـــصم
وجـــدول مـــن الـــسلجين والعـــسل
عزيـــزة بقاســـيون شـــامخ
كهالـــة مـــن كبريـــاءِ أو أمـــل
مدينـــة غنيـــة بغوطـــة
محـــصولها أثمارهـــا شـــهدُ عـــسل
عيونهـــا الخـــضراء روّت أنهـــراً
وماؤهـــا أضـــحى رويـــداً للأجـــل
أســـوارها أبراجهـــا كانـــت حـــصوناً
للـــسلام مـــع تـــضاريس الجبـــل

وبعـد لابد أن نذكر من مناقبـه التواضع والبعد عن التشوف، فهو يعتقد دائماً (أنه لم يكن البطل الذي يقهر كل التحديات، وليس هو فرد

(١) أبيات على صفحة الجبين.

عصره الذي لا نظير له في مجاله، ولكنه حريص على أن يسرد التاريخُ حصيلة جهده، لعله يكون مثالاً أو لعله يستطيع أن يجلي بعض الغموض واللبس في فهم إنجازاته).

❐❐❐

نذير العظمة

وعباءة الشيخ ابن عربي

نذير العظمة
وعباءة الشيخ ابن عربي

تمرّس د. نذير العظمة (المولد في العام ١٩٣٠م) بكتابة القصيدة بكل أشكالها فعدّ ـ بلا خلاف ـ واحداً من روادها، ومن رواد الحداثة. ولكنه ـ إلى ذلك ـ كتب المسرحية الشعرية والنثرية، وأيضاً الدراسة النقدية والمقالة والمحاضرة... فكانت نتاجاته التي تزيد على الخمسين عدداً، بعضها باللغة الإنكليزية، إثراء ليس للمكتبة العربية بل للمكتبة والإبداع الإنساني مما يؤكد على عمق الخلفية الثقافية والأكاديمية له في مختلف مجالات العطاء الفكري والأدبي... وللدكتور العظمة ـ كما لا يخفى ـ مشاركات فاعلة في كثير من القضايا المطروحة على الساحة، منطلقاً من قاعدة صلبة بناها بجد واجتهاد كبيرين من دون كلل أو ملل...

والعظمة، على الرغم من كثرة كتاباته ومشاركاته، يحرص على وحدة منهجية تنظم أعماله جميعها في سياق علمي وفلسفي، وضع إطاره وسار على دربه بمنتهى الدقة والإخلاص... ولم ينس في غمرة أعماله ومشاغله الأكاديمية، حق أمته العربية عليه، فأنصفها بكل قوة وجسارة في كافة المنتديات التي دعي إليها، وكان خير سفير للغة الضاد

في المحافل الدولية . . .

لقد شرّق الدكتور العظمة وغرّب، وأقام وارتحل، فأكسبته الغربة خصالاً أهمها سعة الأفق، وسعة الصدر، وسعة التجربة والثقافة، مع الاحتفاظ بكل الجذور الأصيلة والقيم الخالدة، فهو رجل جديد ومتجدد من غير ضجيج، جديد بالروح، ومتجدد بالطبيعة والفطرة. . . إنه الشجرة المباركة دائمة الخضرة، لم نرها ـ قط عارية في أي موسم، وهي متفتحة في كل الفصول، محملة بالثمر والأريج.

نذير العظمة شاعر الأمجاد والأساطير، ينطلق ـ وكما سيأتي ـ كالنسر في أعماق الماضي، ويعود محمّلاً باللؤلؤ والمرجان، والمحار النادر الغريب. . . إنه السندباد الذي لا يتعب من الإبحار، الباحث ـ دوماً ـ عن المدهش والعجيب. . .

ولعل بعض المثقفين يتفقون أو يختلفون مع أفكار العظمة، غير أنه ـ في كل الأحوال ـ تبقى الفكرة النيّرة هي الهدف، ويبقى الحوار العلمي الموضوعي هو الوسيلة الحضارية للوصول إلى قناعة بشأن المرتكزات الأساسية التي ينبغي أن تسير عليها قافلة العطاء الإبداعي. . .

* * *

وتأكيداً لما أسلفنا من ملامح في شخصية وتكوين نذير العظمة ننقل، وعلى لسانه: . . . حملت في نفسي ملامح الحياة، خزّنت الذاكرة كل ما مر بها، والدي كان ينهضني ويوقفني على الطاولة ويقول: هذا

وريث (يوسف) العظمة، البطولة والتاريخ. . . كل هذا العنفوان النفسي الذي حصّلته من الطفولة استمر معي في الإبداع. . . وعندما ربيت في قاسيون لم أتصور أني سأصل إلى نهايات العالم. . . لم أكن أظن أن طفولتي، التي توزعت بين قاسيون ونهر يزيد سوف تسوقني إلى العالم المستدير، انتمائي السياسي ونزوعي الحضاري ونكهة العنفوان هي التي قذفتني في حومات الحياة الصاخبة، واستدعت مني استجابات خلاّقة. . .

لقد عشت الصوفية كتجربة إنسانية مارستها وأنا فتى، وكنت أتردد على حلقات النقشبندية، وعشت في جوار محيي الدين بن عربي وعبد الغني النابلسي، وكان جدي صوفياً، وله تجربة. . . ويضيف: أما أمي فقد كانت نقية دون تعصب، وقد التزمت التصوف الحضاري الإنساني الذي يخشى الله، ويرعى القيم الإنسانية. . .

* * *

في العام ١٩٧٤م أصدر العظمة روايته «الشيخ ومغارة الدم» وفي العام ٢٠٠٣م أصدر روايته «أوراق عارف الدمشقي» وبينهما ـ في إطار دراستنا دمشق في أدب نذير العظمة ـ أصدر في العام ١٩٩٢م مجموعة شعرية بعنوان «سيدة البحر» وهي مجموعة قصائد عن حصار بيروت، وفي العام نفسه كانت «دروع امرئ القيس» لتأتي في العام ١٩٩٦م مجموعته «طائر الرعد» فـ «لماذا لا أغرد للموت» في العام ٢٠٠٣م.

وغني عن القول، أنني لست بصدد تعداد بعض إبداعات نذير العظمة، فهذا في متناول اليد عبر الكثير من الإصدارات والدوريات والترجمات. وإنما أردت، من خلال تعدادها، الوقوف على ظاهرة بل حقيقة مذهلة تتلخص بأن شخصية نذير العظمة، التي قدمنا بعض ملامحها وخصائصها، تسربل المتلقي بأجوائها فتجعله ينطق باسمها ويعبر عنها، وإليكم التفاصيل:

فعلى الرغم أن ربع قرن من الزمن يفصل بين ما أبدعته ريشة مصطفى الحلاج على غلاف «الشيخ ومغارة الدم» وريشة تركي محمود بك على غلاف «أوراق عارف الدمشقي» وأيضاً أغلفة: سيدة البحر، ودروع امرئ القيس، وطائر الرعد، ولماذا لا أغرد للموت... فقد أتت قراءة الفنانين المبدعين متوافقة، إن لم نقل متطابقة، وهذا ما أكدناه في تحليلنا لمنهجية نذير العظمة...

في «الشيخ ومغارة الدم» حيوان على شكل فرس، يشبه، إلى حد ما، البراق، من خلال الأجنحة والنصف الآدمي، مع تشكيل يوحي بالتداخل شكلاً (الحافر) ويقف متوثباً على شفير صخري مموج باللون الأحمر، مع نتوءات منشارية لها مدلولها...

وفي «أوراق عارف الدمشقي» يبرز التداخل مجدداً، بالرسم واللون، ويتراءى للمدقق أنهما لوحتان، وإنما متداخلتان في نسيج متكامل (نذير العظمة ـ الأيام الأولى، أوراق عارف الدمشقي، مع تكرار كلمة: أوراق لنؤكد على تداخل السيرة الذاتية في الرواية).

وفي «لماذا لا أغرد للموت» يتم التركيز على الخطوط وحروفها مع استخدام اللونين الأسود والأحمر ومساحات النقاط وألوانها، مع تكرار نشيد الشاعر وكلمات معبرة عن القصيد. . . ناهيك عن التداخل الخطي واللوني في جميع ما ذكرنا، مع الإشارة إلى أنه في هذه المجموعة ـ التي يغرد فيها للموت ـ أتت في تشكيل غلافها خلواً من اسم المبدع. . .

* * *

وتبرز الخلفية الثقافية والبيئية للدكتور العظمة من خلال (قمر الأيام الأولى) وقمر (النمر والبئر) إنهما قمر واحد بوجهين: في «النمر والبئر» يتجلى الوجه المضيء، وفي «الأيام الأولى» يتمثل الوجه الخفي. . . وهذا ما أبرزه العظمة، ضمن إبداعه المنهجي، في «سيزيف الأندلسي» الفاجعة الشعبية، التي دارت أحداثها في قرطبة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، حيث استخدم العظمة (ابن زيدون) قناعاً له من خلال تمسكه بالحرية والحب وتحمل النفي وإبراز مفاسد العصر. . . لقد بدا نذير العظمة مشدوداً إلى زمن الطفولة والحلم أيام الحارات والبساتين. . . ولسان حاله يقول: أن تضيء شمعة خير من أن تسب الظلام. . .

لقد أدرك العظمة أن السيرة الذاتية تصبح أكثر جاذبية وشداً للقارئ إذا توسلت أدوات الرواية. فعندما كتب (الشيخ ومغارة الدم) كان

يفكر بالرواية. . . ولكن عندما كتب (أوراق عارف الدمشقي) كان يفكر بالسيرة، والاثنتان متكاملتان من خلال أسلوبيته في تطعيم الأجناس الأدبية (الرواية) لأن الكتابة هي المرجعية العميقة، أما الجنس أو الأجناس الأدبية فهي أطر ظاهرة ومرجعيات برانية لما يجري في العمق من صراع بين الخيرة الإنسانية والقلم، بين اختلاج القلم والنفس ونبض الحرف. . . والزمن ـ بفعل التجربة الإنسانية ـ يصبح وحدة نفسية لا تباعد بين حاضره وماضيه، ولا تفرق بين اليوم عن الغد أوراق التقويم وتعدادها. . .

في «أوراق عارف الدمشقي» ومنذ العنوان تستوقفك كلمات تدخل في تكوين نذير العظمة: عارف، شمعة، الأهلّة، المجذوبة، النار، الذاكرة، الكاسات، عشتار، القمر، طقوس، الحرق، الحلم، الموت، الشيطان، الكابوس، الحجر، الشجرة، الرحم، المعرفة، النهر، . . .إلخ أليست هذه المفردات، ناهيك عن أسماء الأعلام الذين تضمنتهم الرواية، تجعلنا في رحاب الصوفية وفي ملكوتها. . .

وتأتلف المفردات لتبنى في جمل وعبارات تقارب الحكمة وتتسربل بمعاني التصوف وأجوائه: النهر الذي تشرف عليه المدارس، التي تعلّم فيها عارف، ما يزال يعيش في الذاكرة. فهو يريد من (بردى) أن يجري كخيط من الزمرد بين خواصر الصخور من سفح (قاسيون) قد تأكل النار ورق الذاكرة، ووشم الحلم لكن خيّل إليه أن النهر ما يزال يجري في عموده الفقري، ونخاعه الشوكي فهل للنار أن تأكل الماء في حياته!.

ويحلق بنا العظمة في ملكوت الكون ودورة الحياة: هناك يوم لليأس

ويوم للأمل ويوم للفرح والتكوين، ويوم لاكتشاف العالم، ويوم لاكتشاف الموت في تقويم الجسد الواحد.

الإنسان نبتة تخرج من باطن الرحم إلى الشمس، بذرة تزرع فيها، تتكون خلقاً ذا عظم ولحم وعصب. يتوقف النبض يدق، يدق، يدق، حتى يتلاشى ويذهب إلى ملأ المجهول...

ويبحر العظمة بأفكاره وتصوراته مقارناً ومقارباً: أليست السحلية هي مصغر الديناصور؟ أليس القبر، من حيث الشكل، هو مهد مقلوب على وجهه، والقبور المحدودبة بحدباتها الترابية كأنها زوارق مقلوبة تبحر في التراب وهي واقفة بشواهدها البيضاء الأشبه بالأشرعة!

وتشفّ العبارة في مواضع شتى لترسم لوحة غاية في الروعة والإتقان: ...وطلعت صبايا النجوم في وهلة الدجى، والقمر يرقبها كعاشق ولهان امتقع وجهه!

في أدب نذير العظمة: موتة عن موتة تفرق. اليوم يموت الناس بسرعة، المشيّعون يركبون السيارات، وشيخ الجنازة يردد الأدعية من مذياع يصرخ بدون حنان، وينتقي أهل الميت أقرب مسجد إلى المقبرة، فلا يسير موكب الجنازة إلا خطوات معدودة، بينما في الأمس ـ حين كان الناس يعتمدون على أرجلهم ـ كانت الجنازة أكثر بهاء وأروع موكباً! الموت كان أبطأ في الماضي، إنه الآن أسرع من الرصاصة...

وفي روايات العظمة تفرز الذاكرة من مخزونها الشيء الكثير: جامع

أبي النور، جامع الشيخ محي الدين، الحلاق أبو التوت، البايكة، بستان السيروان، الحجامة، العلق، عين الكرش، الطنبر، أصابع البو، الضمّانة، بستان السبيني، . . .

ويحن في غير موضع من رواياته لطبيعة دمشق وسحرها فـ: شجر الحور الباسق قامات صبايا أسطورية تطعن الفضاء، وحين تعانقها الريح المجنونة تترنح يمنة ويسرة، ويعكس اخضرارها الممتد علواً في ضوء الشمس الغاربة ألواناً أخرى تخلب العين. . .

من خلال روايات العظمة تتبدى دمشق بأجوائها الاجتماعية والمهنية والوطنية، ولاسيما فترة الانتداب الفرنسي، وتحفل الروايات بمفردات وعبارات قاموسية تعكس الحياة الدمشقية بأطيافها كافة: شيخ الشباب، شيخ الكار، شيخ الصاغة، شيخ الأرض، شيخ الحدادين. . . التي هي عبارة عن تنظيمات نقابية للسهر على مصالح الفئات الاجتماعية وصيانة حقوقها في إطار اجتماعي متناغم دمرته مساعي التحديث. . .

ويحتل البيت الدمشقي ساحات واسعة في إبداعات نذير العظمة:

قضى سنة كاملة في (الخجة) عند الشيخ كامل، كان يتعاون هو وزوجته على تحفيظ القرآن للأطفال في بيتهما العربي المزنر بأحواض النارنج والياسمين والمسقوف بعرائش العنب البلدي. . .

ولا ينسى العظمة أن يضمّن روايته «أوراق عارف الدمشقي» شعراً

يؤكد ما ورد في تضاعيفها من مسيرة وأفكار:

كنـــت فـــي الأمـــس مـــصطفى

وأنـــــا اليـــــوم عـــــارف

أحرقتنـــــــــي تلهفـــــــاً

فـــــي العـــــروج المواقـــــف

يـــــا لهيـــــاً إذا هفـــــا

أوجعتنـــــــي المعـــــــارف

* * *

وطالما دخلنا في عالم نذير العظمة الشعري فجدير بنـا ألا نغادره قبـل الإشارة إلى بعض الشواهـد التي تدخل في موضوعنا: دمشق في أدب نذير العظمة.

تحت قبـة الحنين، وعبر مفردات رمزية لافتة: الصخر، الجوع، النار، الرحم، . . . ينادي نذير العظمة من غربته قاسيون، الجبل العتيد الشامخ، مهد الحكايا والأساطير، ونبع الذكريات والتراجيع، ويبادله، وهو يمرغ وجهه في ترابه، الشوق والحنين. . . والحارة القديمة ماثلة في وجدانه، تضج في كيانه، وهو يستذكر قبر الشيخ محيي الدين وروحه الطاهـرة، وحلقات الذكر، واحتفالات عيـد المولد النبـوي الشريف، وطقوس النذور. . .

ويشب حنين الشوق مرة ثانية، بل مرات، في أعماق شاعرنا وهو لا يفتأ يبحث عن الحقيقة، متماهياً مع المدينة التي أحب، ليبرعم فجر جديد، مشفوع بالدعوات والصلوات ليتخمر اليقين، وتولد ميسلون من جديد:

كل بذل في سبيل الأرض والحق يهون

يا رفات المجد ظلي شعلة عبر القرون

علمينا كيف نرقى بالشهادات المنون

ميسلون ميسلون

أيها الفجر الذي علمنا معنى اليقين

ويصلي نذير العظمة لدمشق التي غناها كثيراً في منفاه، ولكنه كرمى لعينيها كتم أحزانه، وكابد أشواقه، وخبأ هواها في جروحه، وبين ضلوعه:

يا قاسيون تركت الركب والهة

عليك أكباده غصت بحنجرتي

يا قاسيون تركت الصخر في كبدي

نبعاً من الماء عند الموت شاهدتي

نثرت للريح والآفاق أحرفه

فربل النبض وجداني وأغنيتي

وتفور نخوة الدم في ضميره ووجدانه فيستذكر ويتذكر ميسلون ثانية:

يوســـفٌ أينمـــا تلفـــت فاحـــت
نخـــوة الـــدم واســـتمات الرجـــال
لـــيس عـــاراً إذا الـــضحايا توالـــت
إنمـــا العـــار أن يخـــون القتـــال
يـــا دمـــشق اشـــمخي وتيهـــي اعتـــزازاً
كـــان صـــعباً علـــى البغـــي النـــوال
قـــد جبلنـــا التـــراب بالـــدم والنـــبض
فغنـــــت عروقنـــــا والرمـــــال
ورواب مـــــن ميـــــسلون أطلـــــت
نهـــضة وجههـــا الفـــدى والنـــضال
رفعتهـــا شـــهادة العـــز شمـــساً
لـــم يخـــيم علـــى ضـــياها الـــزوال

* * *

ومن وحي ذلك أسارع لأختم:

قـــم ســـيد الـــشعر حـــدثنا فمـــا عجـــزت
يومـــاً يراعـــك عـــن ورد ولا صـــدر

ففيـــك مـــن ميـــلون شـــيمةٌ بقيـــت

تـــأبى القيـــود ولـــو كانـــت مـــن الـــدر

ولـــم تخـــن صـــرخة للحـــق أعلنهـــا

شـــهيد حـــق أمـــام الظـــالم الأشـــر

❐❐❐

محمد حرب/ أبو صبحي تيناوي

سيرورة الحكايا

محمد حرب/ أبو صبحي تيناوي
سيرورة الحكايا

يعتبر أبو صبحي التيناوي (١٨٨٤ ـ ١٩٧٣م) من الفنانين السوريين الذين نفخر ونعتز بهم، ولا سيما في نزوعه الفطري الذي جسّد ما اختزنته ذاكرته بأسلوب لافت وجميل نجده في إرثه الحافل والمعبّر من خلال رسومات شعبية مؤثرة وآسرة في آن. . .

ولد «محمد حرب» عام ١٨٨٤م في حي باب الجابية، زقاق الحطّاب، وهو أحد أحياء مدينة دمشق القديمة، وما يزال نصف البيت الذي ولد فيه قائماً حتى اليوم يروي التأثير الذي استنشقه الطفل الوليد من خلال الأقواس الجميلة التي تزينه، والأعمدة والزخارف المنتشرة فيه والسائدة في حينه، وبحرة الماء التي كانت تتوسطه وتسقي أحواض المزروعات المحيطة من ياسمين ونارنج وكبّاد وأزهار وورود، وما يحيط به من حارات قديمة ومعالم تاريخية تعج بها المدينة القديمة.

كان أبوه يعمل في محل بمنطقة الدرويشية، يبيع الخرداوات والأدوات المنزلية (العصرونية)، وفي الوقت نفسه كان يمارس، ضمن محله، هواية الرسم الشعبي للوحات من وحي الخيال والأساطير

والقصص المرويـة، وما أن ينتهـي من وضع الخطوط الرئيسية لمعالم لوحاتـه وأبطالها حتـى يحيلها لابنـه «محمد» الذي يقوم بتلوينها وملء فراغاتهـا بالألوان الترابيـة التي كان والده يقوم بتحضيرهـا بنفسـه لعدم وجود ألوان صناعية آنذاك. وذلك بعد عودة الصبي «محمد» من الخوجة والكتّاب الذي ألحقه والده بهما ليتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن.

بعد العاشرة من عمره أخذ يعمل بدكان والده باستمرار ليحل محلّه فيما بعد بمتابعة العمل الذي كان يقوم به، وقد أطلق عليه والده منذ يفاعته كنية «أبو صبحي» التي لازمته طيلة حياته وهذه عادة محببة لأهالي دمشق القديمة، وكان لأبي صبحي شقيق من والدته يدعى «أبو ياسين التيناوي» يعمل في دكان ملاصق لدكان والده لبيع الأدوات المنزلية.

ترك أبو صبحي التيناوي دكانه بالدرويشية، فيما بعد، وافتتح دكاناً مستقلاً لنفسه بباب الجابية ليقوم بنفس أعمال الدكان السابقة، ويتفرغ لأعمال الرسم الذي بدأ يأخذ بتلابيبه بعد أن زخرت نفسه بالثقافة الشعبية التي استمد معظمها من خلال متابعته لقصص الحكواتي الذي كان رائي عصره، ووسيلة الترفيه الأولى للرجال عصرئذ، حيث يقص على الحضور القصص الشعبـي عن عنترة، والظاهر بيبرس، والزير سالم، وأبي زيد الهلالي، والملك سيف بن ذي يزن...

لقد كانت مهنـة الحكواتي الرائجة في تلك الأيـام تقوم من خلال عرض القصص التي تنزع إلى بث الشجاعة في القوم، والسمات العربية الأخرى، من كرم ومحبة ووفـاء، وحميّـة ومروءة وجرأة وحفظ الذمم

ورعايـة الجار . . . إلى آخر ما هنـالك من المكارم المتأصلة في إنسـاننا العربي، المنسوبة إلى أبطال هذه السير، الذين يحالفهم فيها الحظ على مناوئيهم الذين يتصفون بالكذب والبخل والخيانة والغدر والرياء والخديعة والنكث بالعهد. وجدير بالذكر، أيضاً، أن مهنة الحكواتي الذي يروي قصصه المتعلقة بالأبطال المذكورين كانت متوارثـة، فالحكواتي الابن يروي حفظاً عن أبيه الذي ورث مهنتـه عن أبيـه أيضاً دون أن يكون أي منهما قد تعلم أحداث قصصه، أو قرأها في أي مكان للتعلم، وقد ترك الحكواتي انطباعاً كبيراً في نفس أبي صبحي التيناوي سوف ينعكس فيما بعد بكافة أعماله ورسومـه ولوحاتـه وخاصـة ما كـان يتعلق منها بقصة «عنتـرة بن شداد» الذي كان موضوعاً أثيراً لديـه مما جعل لوحاته تعج بقصصها وأحداثها. . .

خصص «أبو صبحي التيناوي» طاولة صغيرة في أحد أركان دكانه، وبدأ رحلة الرسم على الورق والكرتون الأسمر، ثم انتقل منه للرسم على القمـاش، وانتهـى للرسم على الزجاج بطرق شتـى، كان أجملها على الإطلاق ما رسمه على لوح الزجاج بشكل مستوٍ، وعند انتهاء لوحته كان يوقع عليها اسمه وعنوانه مفصلاً بشكل مقلوب ليتسنى للمشاهد أن يقرأه بعد قلبها، وذلك حفاظاً على اللوحة من تلف ألوانها بيد المشاهد، وحفظاً لها أيضاً من عـوامل الطقس، وقـد تبـدت لنا تلك الطريقة بوضـوح من خلال كتابة اسمه بطريقة متعرجة وغير مستوية أو مضبوطة. . . أما توقيعه على لوحاته فقد كان يحمل عبارة تتألف من: «رسم محمد حرب. أبو

صبحي التيناوي. باب الجابية. زاوية الهنود. دمشق. سورية. سنة (يذكر فيها التاريخ تارة بالسنة الهجرية، وتارة بالميلادية، وتارة أخرى بكلا التاريخين)» وهذا التوقيع النادر قلّما نجده متشابهاً في كافة لوحاته، إذ كان يكتب اسمه أحياناً على اللوحة أكثر من مرة، وأحياناً أخرى يكتب كنيته مكررة، وقليلاً جداً هي الحالات التي كتب فيها توقيعه متطابقاً في أكثر من لوحة، وهذا ما ميّز اللوحات التي قام برسمها بنفسه عن اللوحات التي رسمها من قبله أبوه، ومن بعده أولاده وأحفاده الذين امتهن أكثرهم طريقة لرسم تلك.

أنجب أبو صبحي التيناوي ثلاثة أبناء (محمود، يوسف، حسيبة) وقد ورثوا فنّ والدهم بدقة وأصبحوا يساعدونه بتلوين اللوحات التي كان يرسمها تماماً كما بدأ مهنة الرسم مع والده، ثم انتقل إليهم هذا الفن الإرثي ليقوموا بتطويره حسب رؤية كل منهم، كما أبدع أحفاده بذلك وخاصة منهم السيدة «نجاح حرب التيناوي» التي قامت بإعادة الروح من خلال تطويرها وإحيائها لذلك العمل، وافتتحت لأعمالها معرضاً ضم نخبة ممتازة من اللوحات التي رسمها بنفس الطريقة جدها حيث شهدته مدينة دمشق في المركز الثقافي الفرنسي شهر أيلول عام ٢٠٠٧م، وقد ضمت لوحاتها المعروضة والتي رسمتها على الزجاج مواضيع متشابهة لما كان يرسمه جدها.

لم يحظ أبو صبحي التيناوي أثناء حياته بالشهرة الإعلامية التي يستحقها، باستثناء عدة مقالات ودراسات وضعت حول تجربته أثناء

حياته وبعدها، وفيلم وثائقي قصير. لم يحظ هذا الرسام باهتمام يذكر، حتى جاءت رسالة الماجستير التي وضعها الفنان السوري الشاب (حبيب الراعي) في المعهد الأعلى للفنون الجميلة بتونس عام ١٩٧٧م كما أشار د. محمود شاهين في مقال لـه نشـر في مجلة الكويت إلى جوانب من حياتـه، ولا سيما أنـه سبق وقابله أواخر حياتـه في بيته الشامي بمنطقة باب الجابية، واطّلع على دكانه المتموضع بالحي نفسه، وعلى محتوياته ولوحاته، واستطاع بدقة ملاحظته، وهو الضليع بذلك، أن يتعرّف على خصائص أعمالـه من خلال الكم الهائـل الذي كان يرسمه وذكر أن همّ التيناوي الأول والأخير أن يرسم وأن يبيع ما يرسم، وأنـه لم يعرف من العالم كله سوى دمشق وبيروت، وله في الأخيرة آلاف اللوحات، وأنه ينسى بسرعة ويغضب بسرعة، ولم يسمع بتاريـخ للفن، ولا يعرف إن كان في سـورية رسامون غيره.

تأثر بفن أبي صبحي التيناوي العديد من الفنانين المحليين والعرب، فضلاً عن أبنائه وأحفاده، بل طالت شهرته الأوربيين الذين كان من ضمن برنامج زيارتهم لسورية التعريج على دكانه للاطلاع على لوحاته واقتناء ما يروق لهم منهـا، وكان من أشهر الفنانين السـوريين الذين راقـت لهم أعمال التيناوي وتأثـر بها فيما أبدعـه من لوحـات الفنان البارع برهـان كركوتلي (١٩٣٢ ـ ٢٠٠٣م) الذي عايش التيناوي منذ طفولته، وكان يتردد على دكانه في باب الجابية، ويتأمل لوحاته المعلقة على الجدران بإعجاب خاص، وقـد حاول أن يجعل من شهادة أبـي صبحي شهادة معاصرة،

ولا سيما أن احتدام عاطفته الدمشقية دفعته للارتباط البنيوي بأسلوبه مما جعل من الفنان كركوتلي وريثاً شرعياً لفنه. وكذلك الفنان «الياس زيات» في بعض لوحاته التي حفلت بتعابير الصور الشعبية المختصة بالسير على غرار منهج المصوّر أبي صبحي التيناوي.

مع بزوغ نجم أبي صبحي التيناوي في عالم الرسم، أخذت لوحاته التي كانت تشكل في البداية عملية هواية له وحسب تتحول إلى مصدر رزق بالنسبة له، بعد أن بدأت بالانتشار وبدأ السوق يتلقفها بسرعة فصار لا يخلو محل حلاق في مدينة دمشق منها، وكذلك المقاهي الشعبية المنتشرة فيها ولا سيما مقهى «النوفرة» الذي كان وما يزال موئل الحكواتي والذي يتجمع السيّاح فيه ليستمعوا إلى القصص الشعبي وسير الأبطال الغابرين، فضلاً عن أبناء المدينة وزائري مدينة دمشق القديمة، كما أخذ أصحاب المكتبات القائمة في السابق على جانبي سوق المسكية الموصل إلى الجامع الأموي وأرصفته بطباعة تلك الرسوم وبيعها بإذن من الرسام أو بدون إذن منه، وذلك مع التحفظ على الفارق بين قيمة اللوحات المطبوعة والأصلية التي كان التيناوي يرسمها بنفسه، كما قام متحف التقاليد الشعبية بدمشق (قصر العظم) باقتناء عدد كبير من لوحاته المتميزة، وتم عرض بعضها في قاعات المقهى الشعبي والمحمل، ولا يكاد يخلو دكان من دكاكين دمشق القديمة وأسواقها الشعبية من لوحات التيناوي الذي كان يضع عنوانه مفصلاً على لوحاته كما أسلفنا، مما يجعل أمر الوصول إلى محله سهلاً وليس بشاق، أضف إلى كل ذلك فقد كان

للزائرين اللبنانيين لمدينة دمشق اهتمام فائض بلوحاته، فقاموا باقتناء الكثير منها، وقام أصحاب العديد من المكتبات والمهتمين والباحثين منهم في مجال الفنون الشعبية بالاتفاق مع أبي صبحي التيناوي على إنجاز كم من اللوحات كان ينفذها لهم حسب الطلب، وبالتالي فقد كانوا يبيعونها في أنحاء لبنان والمهجر. أما بالنسبة للأجانب فقد شكّل لهم دكان التيناوي معلماً هاماً من معالم المدينة القديمة عند زيارتها، فكنت ترى أفواجاً من السائحين يقصدون دكانه بهدف اقتناء المعروض والمتوفر من لوحاته، وإذا تعذر عليهم ذلك فكانوا يقصدون محلات بيع الشرقيات لشراء ما يروق لهم من تلك اللوحات.

إن ما سبق ذكره من انتشار مبيع لوحات التيناوي كان قد ساعده على نشر رسوماته وأعماله وفنونه الشعبية في كافة أرجاء المعمورة، الأمر الذي أتاح له أن يكون معلماً من معالم الفن الشعبي دون قصد منه، حتى أن متحف اللوفر بباريس كان قد اقتنى عملين من أعماله، مما يدلل على رقي نوع الرسم والمواضيع والطريقة التي كان يستخدمها التيناوي بتنفيذ أعماله الفنية.

امتلكت لوحات التيناوي حساً مرهفاً دقيقاً كونها كانت تنبع من وجدان شيخ طفل، وكان كلما تقدمت به السن ازداد رهافة في طريقة عرضه لمشاعره وأحاسيسه عبر لوحاته التي شكلّت هاجساً له، وعندما نتذكر أنه لم يتعلم الرسم في المدارس، ولم يتخصص به في الجامعات والمعاهد، وأنه لم يمتلك ناصية فنه من خلال العمل الأكاديمي

المحترف، ونلحظ الإتقان الذي مارسه في أعماله الفنية كافة فإننا نستطيع أن نفهم سرّ امتلاك متحف اللوفر بباريس للوحتين من لوحاته، وازدحام الطلب عليها من كافة السائحين، ناهيك عن أهل مدينته، كونها استلهمت التراث الشعبي الذي مثل وجدان الأمة بكل أبعاده وخصوصياته.

بدأ التيناوي الرسم على ألواح الزجاج، ثم انتقل إلى القماش، فتراوحت مقاسات لوحاته ما بين الـ ٢٠×٢٠ حتى تجاوز بعضها الـ ٥٠×١٠٠ سم، أما الألوان التي استعملها برسوماته فقد كانت ترابية، وكان يقوم بتحضيرها بنفسه، والتلوين عنده يتم من خلال مساحة لونية واحدة (طريقة الطلس) فلا نرى تدرجاً للألوان في لوحاته، ولم يهتم بعملية الظلال التي يمكن أن تعطي عمقاً للرسوم، أما وجوه أبطال لوحاته فلم تحمل الانفعالات أو التعابير التي تؤديها من خلال الحركة المفترضة لها، كذلك كانت الدلالات في لوحاته بسيطة الشكل، ضعيفة الصيغة، ولكي يملأ الفراغات الكبيرة في رسوماته فقد كان يرسم فيها نجوماً لكي تزين لوحاته من جهة، وتمنع العين من التوقف على فراغ ما ضمنها.

لقد استطاع أن يكون حكواتياً ولكن من نوع آخر وذلك عندما استبدل (صندوق الفرجة) السائد أيامه بالرسم على الزجاج، وجعل فرشاته المصنوعة من شعر الماعز تحيك اللوحات دون أن يفكر للحظة واحدة بأبعاد اللوحة التي يرسمها، أو بتناغم ألوانها وتجاورها.

كذلك كانت شخصيات رسوماته تتمتع بالكثير من المواصفات التي تخضع لمزاجه الشخصي وحسب، فتارة يرسم الحصان الذي تمتطيه

«عبلة» بلون أحمر، وتارة أخرى يرسمه بلون أصفر، ثم بلون أزرق. . . وهكذا، وها هو السيف، وقد رسمه، بيد أبطاله، يجعل منه سيفاً صغيراً بيد اللئيم الحاقد. ويجعله بشقين بيد الأبطال الطيبين، كذلك نرى الغني رأسه كبير، والحارس عصاه غليظة، والفيلسوف لحيته طويلة، وأبو زيد الهلالي بشاربين كثين ومفتولين وسيفه طويل، والأفعى لها قرون، وعنترة أسود راكباً حصانه الأبجر بالزي الميداني والشاربين الطويلين، والزير سالم على ظهر الأسد . . . إلخ.

لقد تأسس الرسم الفطري الشعبي على تقنيات وأساليب وطرق ولدت قبل أن يتعلمها كبار الفنانين المحدثين في أوروبا بقرون، وبناء عليه فقد قدّم التيناوي في لوحاته ما اختزنته ذاكرته من قصص وأساطير شعبية بطريقة بدائية تقليدية دون أن يعرف أن هناك تأثيرات فنية أوروبية حديثة غزت العالم وأثّرت بالفنانين الذين تلقفوها وأخذوا عنها، وهذا ما أكده د. محمود شاهين لدي زيارته له بدكانه (مرسمه) فيما إذا كان قد سمع برسام يدعى بيكاسو، فأجابه بالنفي، وأكد أنه لا يتعاطى مع هذا الشخص، وأنه لم يغادر دمشق طيلة حياته، ولا يعرف عن أحد ممن يسأله عنه أية معلومات، وأنه لا يهمه من أمرهم إذا قلدوه شيئاً ولا سيما أنه لا يقلد أحداً، ولا يأخذ من أحد.

ركّز أبو صبحي التيناوي في لوحاته على الشخصيات الهامة في التاريخ الذي تلقفه عن طريق المشايخ والحكواتي فتأثر بذلك كثيراً، وكانت الشخصية الأثيرة عنده «عنترة بن شداد» ومحبوبته «عبلة» وقد

رسمه في أكثر لوحاته ممتطياً حصانه «الأبجر» وتخيله على أنه ذو شاربين كثين ضخمين مفتولين، مرتدياً ثياب الميدان باستمرار، ويحمل بيده اليسرى رمحاً ضخماً كان أطول من حصانه، على حين كانت «عبلة» أصغر منه في باقي اللوحات، وكانت تركب حصاناً صغيراً، وترتدي ثياباً مزركشة وهي تسير خلف محبوبها والذي يسير في حارات دمشق القديمة قلما يلمح دكاناً أو بيتاً أو مقهى أو مطعماً إلا وتزينه عشرات اللوحات لهذين العاشقين الذين أضفت السير الشعبية عليهما البطولات الخارقة، والحب الجارف، والأحداث غير المنطقية.

كما رسم في لوحاته «الزير أبو ليلى وهو المهلهل بن ربيعة» صاحب الشعر المضطرب المثير، والمعارك المريعة المهولة في حرب البسوس، وما جرى له مع شيوخ القبائل في عصره من وقائع وأحداث دامية زيّنها الحكواتي في روايتها حتى أصبحت قصصاً خرافية.

وتناول شخصية «أبي زيد الهلالي» أو ما كان يعرف لدى القصاصين «بتغريبة بني هلال» وما جرى معهم أثناء رحيلهم لبلاد الغرب.

واهتم التيناوي بالناحية الدينية ووقائعها في رسوماته كثيراً كون تربيته كانت في الخوجة ولدى المشايخ فهاهو يتناول شخصية «آدم وحواء» بجرأة عفوية أثناء وجودهما بالجنة، وقصة النبي «ابراهيم» وابنه «اسماعيل» وما رافق القصة من وقائع الذبح واقتداء «اسماعيل» بكبش عظيم ورسم «البراق» الذي قام بنقل النبي محمد ﷺ من مكة للقدس قبل عروجه للسماء، كما رسم السيد «الخضر» عليه السلام وميزه بلحية بيضاء جعلها

طويلة وكثة، وصوّره حاملاً سبّحة كانت بيده لا تفارقه، كما رسم العديد من اللوحات للنبي «سليمان» عليه السلام وهو متكئ على عرشه ويحيط به الجن والشياطين من كل جانب، كذلك قام بتجسيد قصة النبي «يونس» الذي التقمه الحوت وأعاده من جوفه للأرض، ورسم سفينة النبي «نوح» عليه السلام التي حملت من كل زوجين اثنين وذلك من خلال تأثره بما قرأه عنه في القرآن الكريم، وكان للخليفة العباسي «هارون الرشيد» وزوجته «زبيدة» نصيب في لوحاته، وكذلك للملك «الظاهر بيبرس» صاحب موقعة عين جالوت والتي انتصر فيها انتصاراً ساحقاً على الصليبين وأوقع بهم شر هزيمة.

أما الثوار السوريون الذي وقفوا بوجه الاحتلال الفرنسي فقد احتفى بهم التيناوي في لوحاته وجسّدهم تجسيداً رائعاً من خلال رسمهم بألبسة شامية محضة، حيث كانوا يتلثمون بالرداء الشعبي «السّلك» ويحملون الخناجر المعقوفة والمستوية ولم ينس أن يزين وجوههم بشاربين طويلين معقوفين.

أما عن الطقوس الدينية فقد صور لنا محمل الحج في أكثر من لوحة، وبيّن فيه الزخارف والكتابات التي كانت تسطّر عليه.

ولم تخل لوحاته من بعض الاهتمام بالطبيعة فقد رسم مشاهد للغوطة، وأخرى لنهر بردى، وبعض البساتين والبيوت الدمشقية القديمة وما تضمه من مشاهد، وزيّن معظم لوحاته بالخضرة والأزهار والياسمين وأنواع الزهور البسيطة...

لقد كانت البساطة والعفوية والصدق هي المعيار الحقيقي لكافة ما قام أبو صبحي التيناوي برسمه من لوحات غزت أحاسيس أهالي دمشق ولبنان وأوروبا، فكان فناناً شعبياً لـه جوه الخاص، وأسلوبـه المنفرد، ونكهته الدمشقية العتيقة، التي تبعث من خلال تجسيده لمعطيات القصص الشعبي السائد بحينه، لذا فقد أحبه الناس واهتموا بلوحاته على الرغم من بساطتها وعفويتهـا، ولا بد من الإشارة إلى التشابه في أسلوب الرسوم التي قام التيناوي بتنفيذها وأسلوب الرسوم الموجودة في المخطوطات العربية القديمة والتي تناولتها الطبقة الشعبية بالتجديد عبر كتابي «كليلة ودمنة» و«مقامات الحريري».

وأخيراً، تجدر الإشارة أن أبا صبحي التيناوي لم يقم أي معرض للوحاتـه، ولم يقم أحد بفعل ذلك بعد وفاتـه، غير أن إبداعاته حظيت بمتابعة بعض المهتمين فقد أشرنا إلى ما كتبه د. محمود شاهين، وإلى رسالة الماجستير التي وضعها الفنان حبيب الراعي، إضافة لفيلم قصير أعـده الراحل الفنان عبـد العزيـز علون عن فنه وأخرجه محمد ملص. وتشرفـت ـ ضـمن سلسلة الأفـلام الوثائقيـة التي أعددتهـا، وبثت على الفضائية السورية بعنوان: سيرهم بأقلامهم ـ أن استضفت الصديق محمد خالد حمودة ليتحدث عن سيرة وإبـداعات التيناوي على مدى خمسين دقيقة مشفوعة بالمزيد من أعمالـه الرائعة، وقد أفـدت كثيراً فيما كتبت آنفاً من ذلك، ومن أجـواء التصويـر في متحف التقاليـد الشعبيـة (قصر العظم) الذي أفرد حيزاً مهماً لأعماله...

وبات أبو صبحي التيناوي موضوعاً مقرراً في مادة الفنون الشعبية التي تدّرس في ماجستير التراث الشعبي المحدث في العام ٢٠١٥م في جامعة دمشق. . .

❐❐❐

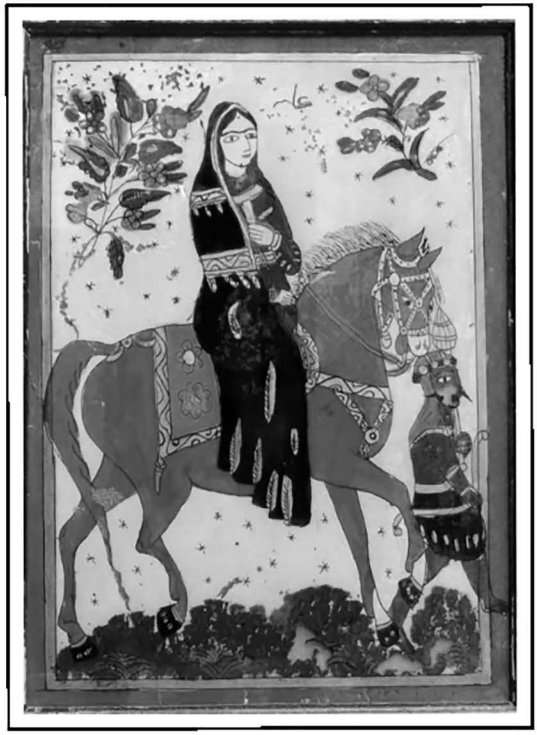


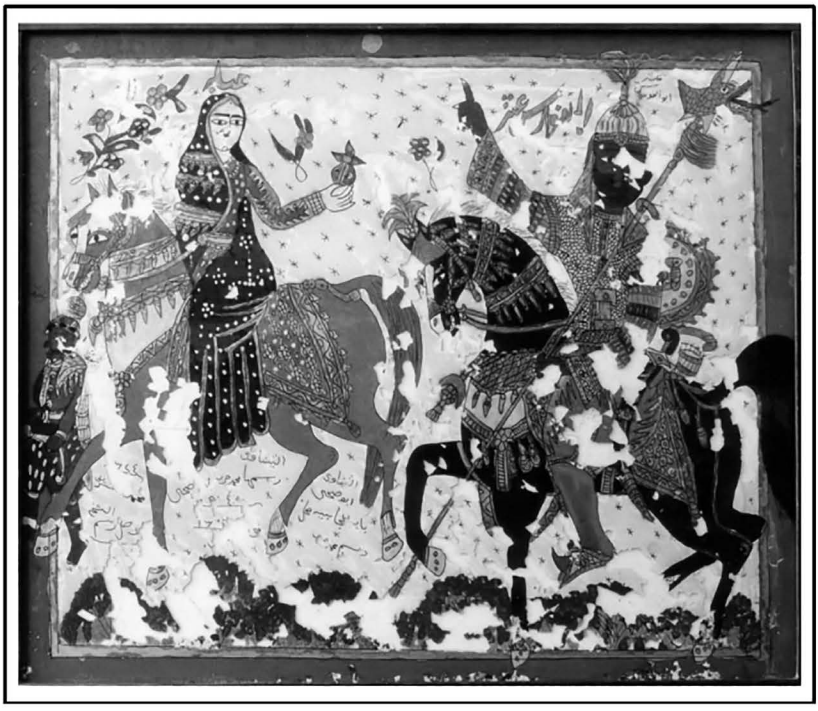


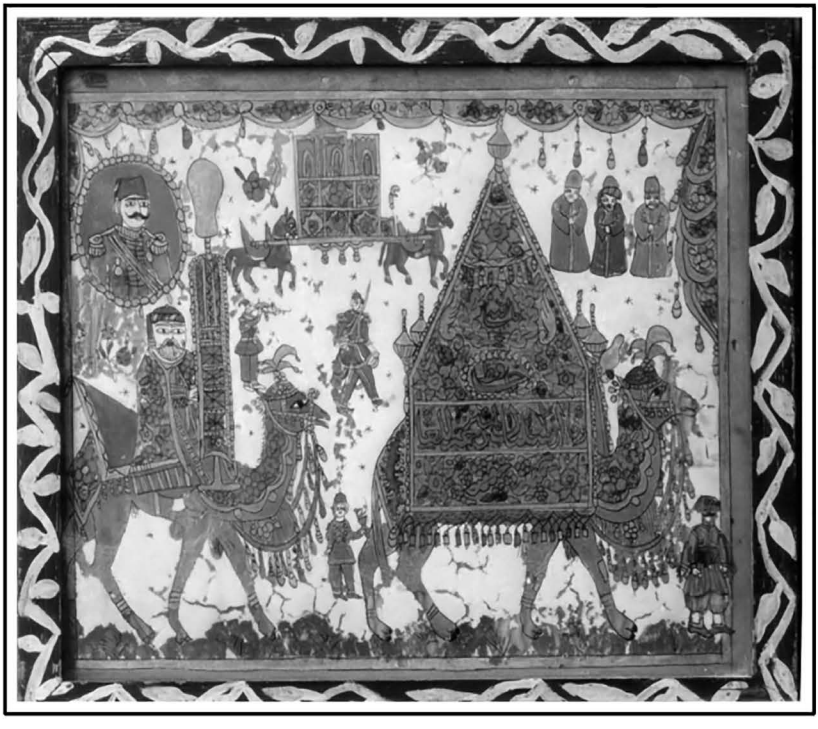

الامير دياب ابن غانم الزغبي
ضارب الزيناتي خليفه
حاص نوس
خليفه الزيناتي ابو سمره الامير المغرب صلاح

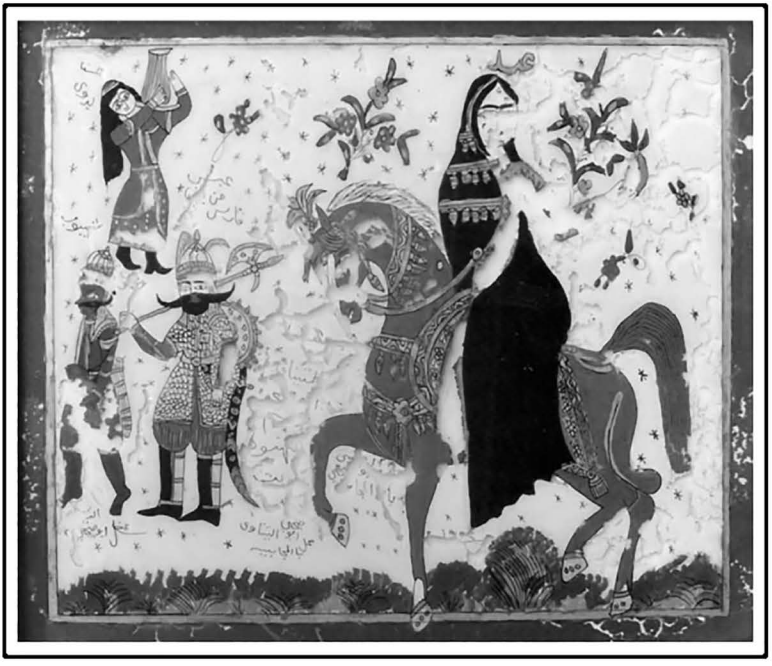

ابا الفوارس عنتر
عبلة













المراجع

- أبو ريشة، عمر: الأعمال الكاملة (ج١ ـ القصائد)، الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٧م.
- الدقاق، عمر: الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق ـ حلب ط٢ ١٩٦٣.
- دهان، ميرفت: القضية الفلسطينية في شعر نزار قباني.
- قباني، نزار: الأعمال السياسية الكاملة (المجلدان ٣ و٦).
- الكلاس، غسان: هوامش على مفكرة عاشق دمشقي.
- الكيالي، سامي: الأدب العربي المعاصر في سورية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.
- مرشد، إياد: تجليات السياسة في شعر نزار قباني.
- نجم، خريستو: النرجسية في أدب نزار قباني.

❐❐❐

صدر للمؤلف

١ ـ شفيق جبري رجل الصناعتين (بالمشاركة).

٢ ـ دوما عروس الغوطة الشرقية (بالمشاركة).

٣ ـ يوسف العظمة، صفحات من أدب ميسلون.

٤ ـ دمشق... قراءات وإضاءات.

٥ ـ هوامش على مفكرة عاشق دمشقي.

٦ ـ مختارات من شعر الجلاء.

٧ ـ كمال فوزي الشرابي، شاعراً ومترجماً وباحثاً.

٨ ـ خيال الظل.

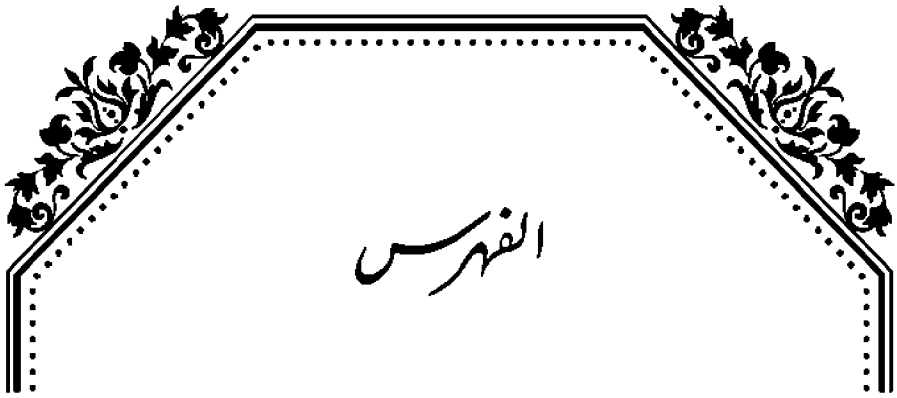
٩ ـ مختارات من شعر ميسلون.

١٠ ـ مظلة الفيء والرطوبة (البيت الدمشقي).

١١ ـ في رحاب التاريخ والفن والادب.

١٢ ـ عبد الغني العطري: أديب الصحفيين وصحفي الادباء.

❐❐❐



الفهرس

الموضوع	الصفحة
* إهداء	٥
كلمة لابد منها	٧
شفيق جبري. . . شاعر الشام	٩
الوطنية والتأمل	١٨
الوطن والثورة	١٦
بأقلام من عرفوه	٢٥
عمر أبو ريشة. . . أضواء على شعره الوطني	٦٧
نزار قباني. . . قبل الهوامش وبعدها	٨٥
نزار قباني في رسائله الشعرية	٨٧
فلسطين في شعر نزار قباني	١١٢
بديع حقي. . . بين الدبلوماسية والأدب	١٣١
عبد الغني العطري. . . أديب الصحفيين وصحفي الأدباء	١٤٣

الموضوع	الصفحة
سلمى الحفار الكزبري. . . سفيرة الثقافة	١٥٩
قتيبة الشهابي. . . رائد التوثيق في القرن العشرين	١٨٩
عوالم كمال فوزي الشرابي الإبداعية	٢٢١
عادل أبو شنب. . . حكواتي الفن	٢٣٧
ليلى الصباغ. . . منهجية الدراسات التاريخية	٢٥٣
ياسين رفاعية. . . بين الوهم والحياة	٢٨١
عفيف البهنسي. . . تأريخ وتوثيق وإبداع	٢٩٣
نذير العظمة. . . وعباءة الشيخ ابن عربي	٣٠٥
محمد حرب/ أبو صبحي تيناوي. . . سيرورة الحكايا	٣١٩
ـ المراجع	٣٣٩
ـ صدر للمؤلف	٣٤١
■ الفهرس	٣٤٣

❐❐❐

